

رواية
الملاك

رواية
الملاك
الملاك



جمال الغيطاني



العدد ٥٨٥

سبتمبر ١٩٩٧ • جمادى الأولى ١٤١٨ هـ

No-585-SEP-1997

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة

شهرية

لنشر

القصص

العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:

يناير ١٩٤٩.



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم



ثمن النسخة

سوريا ٢٠٠ ليرة - لبنان ١٢.٠٠٠

ليرة - الأردن ٤٥٠٠ فلس - الكويت

٢٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريال -

البحرين ١٠٥ دينار - قطر ١٥

ريال - دبي/أبوظبي ١٥ درهما -

سلطنة عمان ١٠٥ ريال.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥
جنيتها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا
٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار -
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال
عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيوني زغلول
: الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ١٧٤١١٦٤
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدلين
سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب :
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا :
المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فلكس : FAX 3625469

سَفَرُ البُنْيَانِ

بقلم

جمال الفيضاني



دار الهلال

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن
القاهرة

الغلاف والرسوم الداخلية
للفنان جودة خليفة

”لتمام الظهور.. لا بد من غياب“

مصطلح

باب



تعم الأراجيف، تهتز الثوابت، يذوى ما ظنه البعض أبدياً لا يتبدل، لا يتغير، انعزلت الطرق التى ظلت دهوراً سالكة، يقطعها الإنسان بمفرده آمناً، إن بالليل أو النهار، لا يدري المرء ماذا يمكن أن يقع صباح غد، نواخى عديدة يتعذر الوصول إليها الآن بعد أن ظلت مطروقة آلاف السنين.

مقابر أبناء الآلهة نهبت، محتوياتها تنقل إلى جهات شتى، الأسماء المحفورة فوق الجدران والصخور تمحى، هكذا يذوى ذكر أصحابها إلى الأبد، حتى الأهرام الموصدة نفذوا إليها وعيشوا بما تضمنه الحجرات الظاهرة. كافة ما وصل إلى الكهنة مهدد الآن، تراثيلهم المتضمنة للحقائق القديمة، وإشاراتهم الدالة على الطرق المؤدية، غير المرئية، تلك التى يصعب وصفها باللفظ، أو رؤيتها بالإنظر.

إنهم الآن فى حاجة إلى ما يمكن أن يجمع النقيضين، ما يؤدى ولا يؤدى، ما يمكن رؤيته ولكنه خفى، ما يلمح ولا يصرح، ما يومئ لكنه لا يفصح، ما يظهر ويختفى فى الوقت عينه.

الأمر صعب، ومع كل سعى للنهر المعبود من الجنوب إلى الشمال تتغير الأشياء وتمحى العلامات، أيام وعرة، وقلقلة سارية، ومخاطر محدقة.

أصعب ما يواجه الإنسان فى وجوده المحدود، المؤطر بقدر، رؤيته اهتزاز كل ما نشأ عليه، هكذا تسرى الغربة، تكتمل الفجوة بين المرء وما يحيطه، ما يتحرك فيه، ما يتنفسه من هواء، ما يطالعه من وجوه تغيب عنه ملامحها مع أنه ظل يطالعها عمره كله، ما يصله بالآخرين بهن، يضعف، حتى يصل إلى لحظة بعينها يتمنى عندها المفارقة، بل ويسعى إلى اكتمالها، فبتغير الأماكن، وزوال المعالم، وافتقاد الصحبة، وضياع العلامات، وتداخل الإشارات، يصبح ما يدل على الغرب جواز مرور إلى الشرق، وما جاء متماسكا يستمر مجزأ، غير قادر على التواصل، إنه اغتراب الغربة ذاتها.

ويصدقوا، ويتطلعوا، ويغتشوا ما سيطالعونه فى أفئدتهم، حتى يظهروه فى سائر المياني الدنيوية أو الأخروية، بيت أو مقبرة، معبد أو قصر، حتى فى القوارب الكبرى التى تسبح فى النيل، أو تفرد أشرعتها عبر البحار قاصدة بلاد العاج. والبخور، أو الموانىء الجالبة لخشب الأرز والصندل والعنبر واللبان والزهور النادرة التى تنبت من الرمال القصية، وتلك الطالعة فى الثلوج القطبية.

لا يعرف أحد الوضع الذى اتخذه قبل أن يكشف عن ملامح ما توصلت إليه الأفئدة، ما جسد رغبة الحفظة، البررة، خلال زمن الاضطراب، وتبدل الأحوال وانقلاب كافة المعايير.

لا يعرف إنسان مهما أوتى من ثغاية البحث، ودقة النفاذ، النقطة التى سدد إليها البصر، أو الترتيل الذى تمتعه أو علا به صوته قبل أن يفضى إليهم بنتاج البحث، وثمرة الكد، ومستودع الحقائق، ومثوى المعانى والرموز، والعلامات كافة، لن يطلع مخلوق على وصف للامح شهود المعنى، إلى تلك المساحة المحددة شخصوا ذاهلين، متعجبين، وانتقلت دهشتهم عبر هذه اللحظة من جيل إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، وتخللت حقب تبدلت فيها الملامح، وأقام الغرباء فى الوادى، وتمكن بدو الصحراء الرحل من بلاد الخضرة والماء الوفير والظلال المتوارثة، لكن ما أشار إليه كبير الكهنة، ما كشف عنه الستار فى ذلك الزمن القصى، المندثر، ذاع وانتشر واتخذ أشكالا عديدة وهيئات مختلفة.

قال إن الأزمنة أودعت الخلاصة هنا، وأن واحدا فقط، لو أدرك إنسان ما السر، الكلمة العظمى، القصوى، فيمكنه النفاذ بمفرده أو يتبعه قومه والعبور من كون إلى آخر، من وجود إلى وجود.

قال كبير الكهنة إن كثيرين لم يولدوا بعد، سيمثلون أمام الباب الوهمى، ويتساءلون، ويجتهدون، ويبذلون الطاقة، وربما يشرف بعضهم

على المعنى الكامن، تماما كما ستجىء لحظة يمكن للأحفاد أن يدركوا
القصد الحقيقي للأهرام، والمسافات التي قطعتها أصدااء النقوش في
آفاق الكون المنظور، لكن هذا الباب الوهمي، المائل، الخفي، الظاهر،
الممحو، الحاض، الصاد، الداعي، الناهي، المشجع، المحبط، السهل،
المستعصى، الواقع الماموس، والاشارة المحوية، الحاوية .

الباب الوهمي ..

إنه ذروة التفتق، ومجمع المعاني، عين الوصول، لن يدرك ويفهم
ويستوعب، بدونه لا يمكن لأي إنسان فهم ولو قبسا يسيرا من الخبيئة
العظمى، السارية، المخفاة في الأكوان كافة، والظاهرة الجلية لمن يدرك
ويستوعب .

حكاية

خبيثة



5740
16.4.10

أربعون يوماً استغرقها الاحتفال بتمام الشأن وانقضاء الأمر ، من مسيرة سبعة أيام يمكن للساعين ، القاصدين رؤية التضوى المتلألئ ، بل وقراءة الحروف التى يعكسها نور الشمس وضوء القمر وخفقات النجوم ، لا تغيب عن الناظر قط ، يمكن لكل حصيف أن يقرأها كما يريد ، أن يأتيها من كل جهة يحدث بها قلبه ، هذا من أسرار الأهرام الكبرى ، وما يتعلق بتلك الكتابة التى تكسوه من الجهات الأربع ، وتحوى ما تحوى ، بعد تمام الغروب بذهب «رع» إلى بيت الأبدية بدأ ابن الشمس ، خنوم خوف ، رحلة عودته إلى مقر إقامته والذى يمكن فى أى موضع منه رؤية الهرم ، بدأ التحرك محمولا على المحفة المقدسة ، مستقرة فوق أكتاف اثنى عشر من مشاهدى المعانى والحقائق يتقدمهم حراس القصر ، صممت بحيث تستدير تلقائيا صوب البناء الأعظم ، يعقد يديه أمام صدره ، إحداهما تمسك بعضا تنتهى بالصل ، والأخرى بالنحلة الذهبية . تتوالى عليه قراءات القوم فى الأزمنة التالية ، ما يتخيله يراه ، قليله مَرَضٌ وكثيره ممض .

الحروف تصعد فى الفراغ ، تبرزج بأنفاسه ، بصور ذاكرته .

نقطة بيضاء مترجرجة .

إنها العلامة .

يغمض عينيه مضطراً ، الحروف حوله ، فوقه تحته ، محومة ، غير متكئة إلى بنيان ، تتراقص عبرها تلك النقطة التى يعرف معناها ، ويدرك مغزى مجيئها ، يلوح غثيان يصحبها دائماً ، تظهر نقطة أخرى ، ثالثة ، رابعة ، بعد لحظات تتلاحم ، تتصل ، تختفى المرئيات ، تتقلص المساحات ليبدأ الصداغ العنيف ، الموجع ، يطبق على رأسه ، يخلو إلى نفسه فى غرفة الليل ، لا ينفذ إليها شعاع ضوء ، هذا ما أوصى به كبير الكهنة ، والعالم بعداواة الآلام .

لا يمكنه ذلك الآن ، ليس أمامه إلا التماسك ، والجلد ، كل خطوة منه مرصودة ، مراقبة ، مصانة فى عيون الآخرين ، إنه يوم التمام ، نروة الفيض والفرح العام والخاص ، ما سيبقى لن يجيء بعد أن يفنى ، كل من عرف المشاهدة الختامية

مجرد اشارات، علامات دالة، تماما كحروف الكتابة المنفصلة عن بعضها، كل علامة حاوية فى حد ذاتها لكنها غير كافية، كل حضور يبدأ بإشارات كذا يذ عبر يوارق خاطفة.

ما يبدو جليا، ساطعاً الآن، سيلوح يوما غامضاً، مدينا للأحاجى منتسبا الألفاظ المحيرة، غير أن الشأن تحقق.

لا يمكنه اغماض عينيه، تتسع الرجرجات البيضاء، ابن الشمس مضطر ابقاء عينيه شاخصتين، كافة ما يصدر عنه مرصود الآن، غدا يشيع فى الواد: فى أماكن تناول المياه الطاهرة.

حقا .. مهما اكتملت المعرفة سيظل باستمرار ما يصعب ادراكه، رغم كل تم فضه من أسرار بين الروح - الجسد - فى تلك الدنيا، يبقى ما يستعصى : الفهم وإن يدرك إلا لن يبلغ المدينة هناك عند الغرب، أطباءه مطلعون على مسار الدماء فى شرايينه، مقاديرها، فى كل لحظة، يعرفون الفرق بين الدقة والدقة، يا الجهلاء أن كل دفقة من القلب تشبه ما سبقها أو ما يلحقها، لكن جوهر الحق مغاير، مختلف، إنهم مطلعون على اتصال الأنفاس وتردادها منذ بدء النبض الرحم الأصغر، وحتى تمام الصمت المصاحب للخروج من الرحم الأكبر، لكنهم يقدروا بعد على إنبائه بحلول تلك النوبات.

باستمرار، سيكون ما يستعصى على الإدراك، وأوله .. تلك الأهرام، بته ظهورها يكون الاختفاء، بدء السعى إلى بلوغ الحقائق، المكان القصوى، والز المستحيل، برأ لحماقة الأحفاد، وجهل القادمين، الذين سيسعون بغير علم.

لو يخلو إلى نفسه الآن، يفتح عينيه أو يغمضهما لا فرق مع اكتمال العت لا يمكنه الجهر، لو أقدم سيعد ذلك نذير شؤم، ويقترن ذلك بالفرض من البني وعندئذ لا يعلم أحد ما تصير إليه الأمور، ربما يتصدع مجمع الأسرار، وتقوى الخبيثة عن السعى فى فضاء الكون، يبطل التذرى، ستبدو الحروف فى سه المدينة عند الغرب، لن يبلغها أى إنسان.. ليحتمل، ليحتفظ بوضعه حتى مع بلا

ما يشمخ الآن قائماً، محاطاً بأفواج قدمت من كل فج، ما يبدو الآن جلياً، صريحاً، سيبدو لغزاً، معظم من يحتفلون الآن، أو من سيجيئون بعد أزمئة نائية، أو يفدون من عوالم شتى، لن يدركوا الجوهر، إلا إذا وقفوا على الأسرار المبتوثة، وإن يتم ذلك إلا بعلم طائل، وجهد عسير، الأمر جلل، وما تم تحصيله لابد من حفظه مصوناً لمن يدركه وإلا جرى محولاً أمكن تجميعه عبر أزمئة صارت إلى فناء.

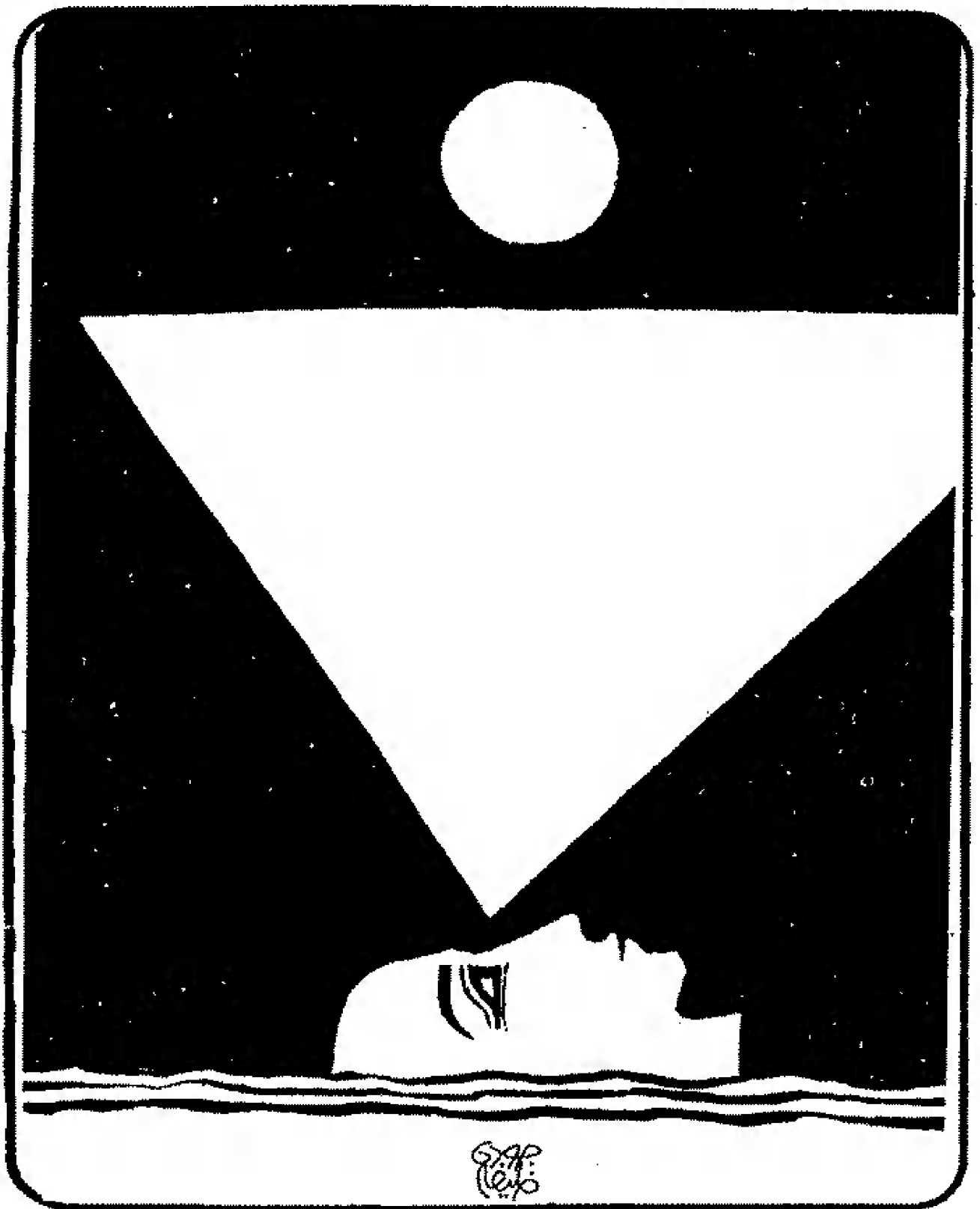
من حقه أن يزهو، أن يشب، وما بداية النوبة إلا علامة على تصاعد موجه، يعرف ذلك عبر أيامه، دائماً تعقب نوبات فرجه أو شجنه الغامض، أو اجتهاده العام، ما تم أمره الليلة عصى على الأجداد من قبل وسائر الأحفاد من بعد، الفكرة قديمة، لاكتمالها أو أن، عمل اجتهد في اتعاده، عندما أطلعه سيد الحكماء على النبوة القديمة هاله ما أصغى إليه، من يتصور اكتمال الغربية يوماً، وتيه الآلهة وضياح الحقائق، امتداد الأيدي الجاهلة بالآلات الهدم إلى ما يركع أمامه القوم الآن، الانتهاك، السخرية من المعارف المستقرة، لكل ما توصل إليه خدام الشمس، وسدنة الضوء، فزع من تنبى الأحفاد في عصور لاحقة، عرضهم الأجساد المقدسة أمام الغرباء، هكذا نذر جهده وأوقف كل طاقة لإتمام مجمع الأسرار، وصيانتها وإطلاقها في رحم الكون، كما جرى التموه على الأحفاد القسقة، والغرباء الفجرة، الجهلاء العمى، المقيمين منهم أو العابرين، كل ما سيرونه ويقفون عليه ويتباهون به مجرد بدائل لبنايات وفنون وعلوم جرى أخفاؤها بحكمة حكيمة في تلك الحروف، لن يدركها إلا من يبلغ المدينة أو يعبرها، سيعثر السذج، الغفل على الممرات والسراريب التي لا تؤدي إلى شيء، وتلك الموصلة إلى الحلى، وقلائد الذهب، والتماثيل والأواني، والمعادن، وحباب الفيروز، ونفائس الدر، والأدوات، ولفائف البردى، يبيعون ما يصل إليهم بثمن بخس مهما غلا، ويستبيع المصعاليك ما يستقر بين أيديهم، سيضعون المؤلفات، والشروح والتفسيرات، ولن تنجلي الغشاوة عنهم أبداً، وهل يدرك الطفل الغرير أن اللعبة التي يمنحها انهماكه كله ما هي إلا وهم؟ أما الأسرار الجمّة، والحقائق المفضية، فقد جرى حفظها

وتمويهها وترميزها وإطلاقها ليتم تشبيح الفضاءات المتوالية بعد ألف ألف دورة يكتمل عندها القمر، إذا بلغ القوم مدينة الغرب، أولئك السعداء، الكُمل الذين سيمضون طويلاً وربما ينتظرون أوقاتاً بطيئة أو سريعة في النزول حتى عبورهم النهر العميق، حتى اجتيازهم القنطرة، أولئك المحظوظون البررة يمكنهم فك الرسائل السارية والتي لن يكف الأهرام عن بثها حتى تختفى سائر الحروف منه، من مجمع الجهات الأربع والجهات الأربع، ألا يستحق ذلك زهواً رغم قسوة النوبة. اضطراب في الأمعاء يسير، لن يقدر مشاهدو المعاني على إبطاله أو التخفيف منه، يتماسك مبقياً على وضعه، تمضي المحفة تماماً كما خطط مدبرو الحفل ومنظمو الشعائر، يؤله بقاء عينيه مفتوحتين، لكن لا بد له من دوام التحديق صوب مجمع الأسرار، هرم الحقيقة، البيت الأكبر لكل جلوة، لا بد من استمرار النظر حتى مع اكتمال الغشاوة الناصعة، تحجب عنه مجمع الأسرار، بدأ الليل صعود الكتابة، بعد حين مقدر تظهر أولى الحروف في سماء مدينة الغرب، عند تمام الاندماج يبدأ التشظى، عند ذروة الوضوح تمحى الحروف لكن يبدأ صون المعاني.

يشخص محتفظاً بالجهة، متشبثاً بالاتجاه مع انحسار كافة المراتبات، يعرف أن كل عمارة مهما بلغت من الاتقان فثمة نقط ضعف كامنة، غير يادية، لكن هذا البناء ليس عمارة، إنه توق، إنه تذكرة، إنه مسعى الحروف التي ستبقى بعد فناء كل شيء عند بلوغ تلك الذروة، هناك حيث يمكن إدراك مدينة الغرب.

حكاية

رياح



لم يتعسف الفرعون المتسائل - كما عُرف في العصور المتأخرة - ولم يظهر سطوة، أو قدرة غشومة، عند طرح استفساراته وافتراءاته ورؤاه على كهنة آمون، حفظة العلوم القديمة وما يستجد منها.

هو أول من طمأنهم وهدأ خواطرهم، عندما بدأ يطرح أسئلته، ويسفر عما يشغله، هو أول من قال إن السؤال معرفة، يكفي النطق به، فذلك يعني الاستدلال على الموضع المستعصى، وبداية الحل، أول خطوة نحو اتخاذ موقع ثانى اثنين، وتمام عبور البرزخ الفاصل، غير أنه كان معنياً بالإجابة، لكنه قال وأمر بنقش ذلك على جدران غرفة رقباده الأبدى، حيث يكتمل غيابه هناك، ليظهر في أفق الأبدية، تماماً مثل العمارة المتقنة، فما نراه منها يستند إلى مخفى غائب، وقد فصلنا ذلك في الحديث عن الأساس وهذا مصطلح وعمر يصعب التحقق من سائر جوانبه، والنفاذ إلى كافة أغواره، إنما أوردنا منه ما قدرنا عليه، ولكن بالتمعن ربما يبلغ من يسعى بعض الأسباب، وهذا ما كان يردده الفرعون المتسائل حور محب القديم، هو القائل إن الحياة أساسها غياب، ولو اطلع البصر على الجنين قسيفنى، وبعد الميلاد يصبح شرط الحياة في الغياب نقيضاً لتمام الظهور واستمرار التوالى حتى يتم الرحيل الأبدى، وما بين اختفاء نترك بعضه حيث يستقر الجنين وغياب تجهله يكون له التجهيز يجرى السعى، تماماً مثل العمارة، فكل بناء إلى اختفاء مهما طال ظهوره.

في ليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة السابعة تسائل والمجلس منعقد، مكتمل، وهذا مجلس أمره ذائع وظل معروفاً بما يجرى فيه حتى العصر الرومانى، وأخذ فلاسفة اليونان الكثير مما تردد داخله عندما كانوا يجيئون إلى معابد أون ومنف وأبيدوس وطيبة ويقعدون أمام الكهنة القدامى صامتين، متلقين لا غير، كثير منهم حفظ بعض ما قيل في تلك الليالى المنطوية،

الغائبة، صعب استعادة ما فيها، لكن بانطوائها ظهر ما نوقش فيها واكتملت خطى من المعرفة.

قال الفرعون المتسائل - حور محب - : من أين تجيء الرياح؟

فلما تطلعوا إليه صامتين ، حائرين ، مضى موضحاً : هذه النسيمة التى مستنا الآن، أين نقطة بدايتها، وأين نهايتها؟

من أين تبدأ حركتها، وإلى أى مدى ستمضى حتى تكف تماماً؟

قال كبير الكهنة : أفصح ، فسر ، زادك أمون حكمة ودعة.

قال الفرعون المتسائل - حور محب - : هل يمكنكم إقامة عمارة للريح؟، إنما أريد بناء تسكنه ريع الجنوب، وآخر تأوى إليه رياح الشمال، وثالثا نمسك فيه بالخماسين، ورابعا وخامسا وسادسا وسابعا يمكننا أن نستضيف فيه النسمات النهارية، والهبوبات الليلية ، ونستحضر ما يجيء ملامساً موج البحر مصحوبة بزرقتها.

قال كبير كهنة أمون ، مسموع اللفظ ، عمدة التحقيق وبداية التمام.

«وكم تمهلنا لبلوغ تلك العمارة يا ابن حورس المخلق أبدا».

قال الفرعون المتسائل - حور محب - :

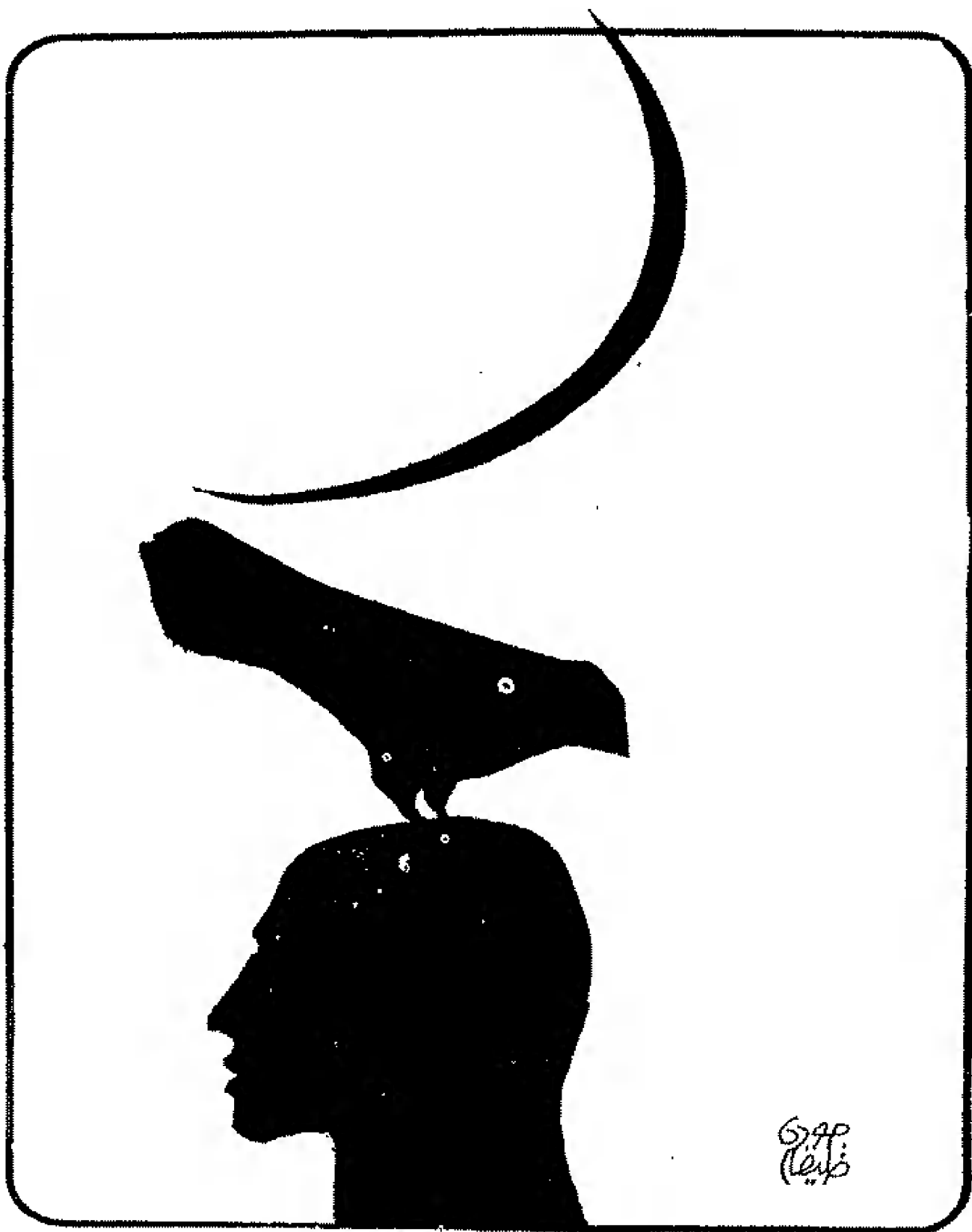
«يقدر اجتهدكم...».

كم مضى على تلك الليلة من ليالى الشهر الأول لفيضان النيل من السنة

السابعة لتولى الفرعون المتسائل - حور محب - موضع الرائي ، المجتهد؟

مصطلح

حامل ومحمول



كل بناء من حامل ومحمول ، ليستمر التركيب ويتصل ، لا بد من تحميل شيء على آخر ، حجر على حجر ، خشب مقطوع بحسبان يتعامد أو يتصل بآخر ، نحت يفضى إلى نحت ، وربما يقع انقطاع يتم بعده استئناف ورحيل ، فما دام الأمر احتوى على حامل لمحمول فلا بد من حركة ، لا بد من انتقال ، لا بد من سفر ، فالتحميل لا يكون إلا عند الرحيل . من هنا فإن كل حامل ومحمول تأهب لمغادرة ، وكل بناء يبدو للأحداق العواير ثابتا ، جامدا ، إنما هو فى حركة ، طالما أن جزءا منه محمول على آخر ، نرى العمارات الشاهقة ثابتة ، راسخة ، غير أنها ماضية ، من سفلى إلى علو ، ومن لحظة إلى أخرى ، ومع حركة الكوكب حول جرم الشمس فما كان عنده صباح اليوم لا يكون هو نفسه لحظة غروبها ولهذا تفصيل آخر وأسفار مغايرة ، لكن ما نؤكد عليه أن الحامل إذا أفضى إلى المحمول فلا بد أن تصير حركة حتى وإن لم تبد ، لكن نتائجها ربما تلوح عند لحظة ما ، لا يمكن تعيينها ، لحظة تحميل الحامل على المحمول . وإن كان التنبؤ بها ممكنا إذا رصدت الشواهد وفحصت الأسباب .

لا يمكن للحامل أن يظل حاملا إلى الأبد ، ولا يمكن للمحمول أن يستقر ممثلا لوضعه ، هذا من ناحية ، من جهة أخرى فإن الأمر نسبى ، ما نراه حاملا ، ربما كان محمولا فى نفس اللحظة ، لنتنظر إلى العمدة الشواهد ، مختلفة التيجان ، فى الكرنك ومعبد الأقصر وأبيدوس وسائر البرابى الباقيات وأعمدة المساجد والكنائس والمباني الشواهد ، إنما تبدو حاملة للأسقف أو القباب ، أو الطوابق المتوالية ، كل عمود وحيد ، كل عمود منفرد ، منفرد فى الأرض فهو من هذه الناحية محمول ، رغم

أن كافة الشواهد تقول إنه حامل لما فوقه ، وما فوق ينوء بثقل آخر ،
ما من بناء الا ويفضى إلى آخر ، لذلك تتأكد الحركة ويستمر الانتقال ،
من جدار إلى سقف ، من مدخل إلى معر إلى فناء ، من مربع مستقر إلى
قبة دائرية ، شاهقة ، أمرها جلل ، تلخص مهابة أروع القباب ، المنتقلة
دائما ، الزرقاء المرصعة بالغمام ، وبالنجوم السوامق ليلا ، التي تؤكد
لنا أن الأمر دائرى ، وما كان دائريا يعنى أن أى نقطة فيه بداية وأيضا
نهاية ، لأن النقطة إذا لم تتصل بالنقطة فلن تكتمل الدائرة أبدا ، ولن
تظهر ، البداية نهاية ، والأمر بضده ، لذلك كان الحامل محمولا فى
الوقت عينه .

ومن الأمور الصعبة اختلاف الحامل عن المحمول ، فإذا كانت
الجدران مربعة والقبة دائرية ، كيف يلتقيان ، كيف يولد المستدير من
المربع ؟ .

لاشئ يستعصى إذا قصدنا الرحيل ، لا شئ يحول إذا بدأ الانتقال ،
لذلك كان التدرج البطيء مرغوبا ، وفيه حل . وقد رأيت حلولاً شتى ،
منها مقابر البجوات حيث يجرى الانتقال عبر الميل المحسوب ، وربما
استوحى المعماري ذلك من فراغات الصحراء الشاسعة التى لا يحدها حد
وتبدو حاملة للسماء ، والسماء حاملة للنجوم ، والحقيقة أن ما تدركه
الحواس ليس كما يلوح للمعائن ، الظاهر ، وفى تيجان الأعمدة اللوتسية ،
والمستوحاة من دلال النخيل حلول شتى أدت إلى ما يعرفه القوم
بالمقرنص ، حنيات متداخلة ، متصلة متراكمة فوق بعضها ، منتظمة
كخلايا النحل ، تبدأ بواحدة ، ثم ترحل لتصبح ثلاثة فخمسة فسبعة ، ومع
كل انتقال يجرى ميل إلى أن تنطلق القبة صوب المركز القائم على
فراغ ، وهذا من أبلغ الحلول وأبسطها .

هذا كله متعلق بالحامل والمحمول الظاهر للمعنيين ، المتفحص ،
المتابع ، سواء اتصل أمره بالبناء مباشرة أو انفصل ، أما أصعب ما كان
فما لا يبدو ، ما كان مستعصيا على الظهور ، سواء في بناء أفقى أو
رأسى ، لكن فى كل الأحوال يمكن التمييز بين هذا وذاك . بحيث يصح
التعيين ، هذا حامل وذلك محمول ، عدا الإنسان فى سعيه ، إنه الحامل
المحمول ، تدركه الحواس صامتا أو ناطقا أو ضاحكا أو شجيا ، فيخيل
إليها أنه مائل ، إما حامل أو محمول ، فى الظاهر ، لكنه كلاهما معا ،
وإذا اكتمل الحامل والمحمول وتعاشقا متدمجين فإنهما منفصلان حتما ،
مهما دام الحفظ وتمكن الصون .

حكاية

عاقبة



فى السنة الألف بعد بناء مجمع الأسرار الذى صار معروفا للقاصى والدانى
ومزاراً لكل عابر ، غريب ، جرى احتفال مهيب تليت فيه التراتيل العتيقة .

وجرى النطق بالحروف الحامية، ومشت الأرتال تترى وسجد الكهنة ومشاهدو
المعانى.

بعد إمعان وطول تقصى ، أيقن ابن الشمس ، ربيب النجوم ، والملم بالأفق،
حور محب، الفرعون الأعظم المتسائل ، أن كل بنيان مهما بلغت متانتة، وبراعته ،
صائر إلى محو، إلى اندثار . أن كافة ما يقوم حوله، ما يتحرك خلاله، ما يحتجب
خلفه ، ما يحيره، ما يظهر من خلاله ، كل ما يقع عليه البصر لا بقاء له . وعند
لحظة معينة سيتوارى كل شىء ، طال انتظارها أو قصر .

ألم يتنافس من سبقوه فى ترميم ما تصدع ، ما تقشر ، ما بهت، ما تساقط
من أحجار أو طلاء ، ليس من واجهات المعابد ، والسباحات المقدسة ، إنما من
الاهرامات ذاتها . من حروف الكتابة المقدسة التى خطها الأجداد لتحصى البر
وتحوش غضب النهر ، وأخطاره ، وكل مكروه . لكنها لم تمنع عن مداد أجسادها
الذبول .

ما يرتبط بالبنيان من حكايات صغيرة ، ورواية أحداث ، أبقي وأشمل من
رص الأحجار وضبط الزوايا ، والحد من حرية الميل ، وصون القدرة على
الارتفاع !

رغم قناعاته التى لم يقصع عنها ، ولم يشرع فى تقليبها ، وتفحصها إلا أثناء
أسفاره فى البرارى ، خاصة إلى الواحات الغربية، حيث يدنو المرء من حافة
الأبدية ، كذلك عند ركونه إلى الراحة خلال رحلات الصبر ، لاشىء يخفى على
الكهنة والمرتلين فى المعابد المقدسة . والمقاصير ، وعقب الحفلات الطقوسية. كذلك
مشاهدو المعانى.

الجهر بها عنده تجديد لا يدري عاقبته ، ولا يمكن لمؤمن حق أن يخطر احتمال
بذهنه ، فليحذر ، مكانته لا تقى ، وكل أفق له حد . ما استقر داخله رغبته فى بقاء
نكره ، تماماً كآسلافه المقدسين ، كئى عابر بهذا الكون ، فما ثمة إقامة ، تريد
الاسم يعنى بقاء صاحبه ، لكن .. إلى متى؟ ، إنه يؤد استمرار نطق الألسنة به ،
البناء قد يمضى يوماً اسم بانيه ، أو يكتب مجهول - لم يبذل جهداً فى تشييده -
ألقابه عليه ، ما يعنيه التفاصيل المتعلقة بالبنيان ، وليس العمارة ذاتها ، أما مدينة
الغرب فلم يرد منها خبر يقينى .

ما الباقي؟ إنها الحكاية ، لو انتقلت من عصر إلى عصر ، من ناحية إلى
أخرى ، يمكن بلوغها الأقصى مع الرحالة والتجار والصيادين والباحثين عن
مواضع لم يبلغها بشر بعد ، كيف ؟

أمعن وتفحص وخلا بذاته كثيراً . لم يفكر على الإطلاق فى محاكاة مجمع
الأسرار ، فلم يشيده الأجداد لتخليد الذكر إنما للاطلاع على الحقائق ، وما هى
ذى الفضائل العليا مستمرة فى احتوائها إلى حين مقدر .

ما يريده مغاير ، مجانب للطرائق ، للقواعد المعمول بها ، لما يعكف عليه الطلبة
ليالى متوالية . ودورات عدة من فيضان إلى فيضان إلى فيضان ، استدعى كبير
المهندسين ، سيد البنائين ، أول من يخط التفاصيل الأولى فى القاعات ، ويحدد
الداخل والبوابات وأشكال الأعمدة قبل مفارقة مراقدها فى المحاجر الجنوبية
المطلّة على النهر الأبدى .

« ما أريده عمارة لم تخطر على ذهن ولم يحدث بها بشر .. ليس مهما الحجم ،
لا يعنينى كبرها أو صغرها ، المهم فرادتها ، أن تكون موضعاً للأحاديث بشتى
الألسنة .. »

له أفق الطلب ولن يواجهه حدود الإجابة ، لكم تساءل ولكم أصغى إلى ما
قالوه ، وحتى الآن يبدو السؤال الناتج من معاناة وحيرة أصدق وأدل من كل
جواب .

بعد إطراقة ذات أصداء ، تماماً كالحظات صمت الطبيب قبل إفصائه بالنتيجة للمريض المتلهف ، قال سيد البنائين إن ما يطلبه أمر العالم ، ليس باستطاعته ، إنما يحتاج الخيال إلى انطلاقة حية ، وهذا يقتضى استعانة بالغض ، الأخضر ، الذى يتبقى أمامه أكثر مما مضى وراءه ، مع وفرة الامكانية ، وازدهار التطلع .

نظرة دالة ، يرتجف منها كل من يواجه حافظ دروب النجوم ، العارف بمسارات الضوء الخفية إلى المركز ، ألوان الطيف المؤدية إلى النزل فالقنطرة فمدينة الغرب .

« أمهلنى ثلاثة أيام ... »

إنها المدة اللازمة لإرسال الحمام بالبطائق إلى الجنوب ، بالتحديد أبيدوس ، لم يخل المعمارى الهرم إلى نفسه طويلاً ، إنما كان يعرف من يحتاج إليه هكذا أنبأت خطواته التى يرصدها سيد الأفقيين ورفيق رحلة رع الظاهرة نهاراً ، الخفية ليلاً ، ثلاثة نهارات ، وثلاث ليال ، تلك التى تمثل الحد الأدنى للوصول إلى منف .

بدا الشاب دون العشرين نورة ، متوقد النظر ، يفيض بتطلع صوب الجهات المعنية ، والافاق غير المرئية . قادراً على ترميم ما فسد رغم بداياته ، وتحقيق ما جرى العمل به ، وقاد الحضور ، مألوفاً للكافة ، غير هياب عند انتقاله من موضع إلى آخر فى القصر ، كأنه وقد على الدنيا هنا .

« كيف تخطط وتشيد المدن ؟ »

لم يجرؤ إنسان غيره من قبل على توجيه مثل هذا السؤال ، غير أن لهجته فريدة ، تقرب ولاتنفر ، تطلع إليه سيد الأفقيين محفزاً ، مشجعاً ، عندئذ استأنف :

« كلها ممتدة أفقياً .. ساقيم لك مدينة رأسية .. » :

لم يخف اندهاشه وإن لم ييده كاملاً ، ليس للمطلع على أسم رع السرى ،
الممسك بحروفه . الملم بظلاله أن يعجب من أى مظهر أو جوهر . كانت الإيماءة
المقتصرة تعنى الإشارة ، ولم يستغرق الأمر وقتاً ، بعد أربعين رحلة ظاهرة
وأربعين خفية لرع المعبود ، عرض الأبيدوسى البناء - كما صار يعرف فى القصر
وسائر الدواوين - النموذج الذى سيعلو فى الفراغ إلى حد يتجاوز فيه الغيوم
التي تاتى بالمطر فى أول الأيام الشتوية .

أثنى سيد الأرضين على ما رآه ، وقال إنه لم يسمع بمثل ذلك ، وأن أمر هذه
المدينة سيقترش وتستقر بين العجائب التي يصعب محاكاتها ، لكنه يأمر
الأبيدوسى بالتنفيذ من الذاكرة ، هذا النموذج يجب اتخاذ التدابير لإخفائه عن
الابصار ، إنه مختلف حتى عن كافة الرؤى والأوصاف المتخيلة للنزل المؤدى إلى
الغرب . فيما بعد استعداد كبير كهنة أمون تلك اللحظات وتفحصها على مهل ،
وتوقف طويلاً أمام رد فعل الأبيدوسى الشاب ، بلا شك فوجئ ، لكنه لم يرتبك ،
انحنى متمهلاً ، قبل الأرض مشهوراً الطاعة والنية على تمام الأداء حتى اللحظة
الفارقة . أمر ممسك رموز الرياح الموسمية باتخاذ اجراءات أدق من تلك المتبعة
مع اخفاء ثمين الخبايا ، لا يعرف إنسان حتى الآن ما تم بالضبط لاختفاء النموذج
الدقيق ، العجيب ، الذى لم يسمع بمثله فى مشرق أو مغرب ، ما لم تخبر لفائف
البردى بوجود شبيه له ، لا فى أعلى النهر أو أسفله ، لا فى أول البحر ولا آخره
إن أدركوا له بداية أو نهاية .

الدهشة كلها فى تجسيد الفكرة والخطوة من خلال هذا النموذج ، فيه يكمن
السر ، ومنه تشع نطفة الخيال ، لم يكتف فقط بتوضيح الخطوط الحاكمة ، أو
الاعمدة الواصلة والأسقف العازلة ، والشوارع المفضية من هناك إلى هنا ، والمباني
التي تبدو متراكمة وكأنها كتلة متواصلة ، متراصة . لكن يلوح كل منها أيضاً
وكأنه البداية والنهاية ، لا يوجد غيره . لكن عند حد معين من الطريق أو الدرب

المؤدى أو جدار البيت ينفتح فراغ مؤد إلى أعلى ، هكذا تقوم المدينة، كل مرتكزاتها خفية ، عسية على الإدراك ، حتى أنها حيرت العالم بمصدر الموجة الأولى لكنه لم يستفسر ، فالسؤال لا يصدر إلا عن جاهل وإن كان مشروعاً للكافة عداه فى مرحلته تلك ، لم يفض الأبيدوسى ، ولم يوضح ، فقط .. أبدى الهمة.

لم يبهره امتلاء طرقات النموذج بصغار البشر ، بسعيهم وحركتهم، وكل ما يبدو وعند حد معين من التدقيق يمكن تحديد الملامح ، رغم دهشة الكهنة، ودروع السدنة ، وعجب رجال القصر وابتهاالات مشاهدى المعانى واهتزاز أصوات المرتلين، إلا أن ما قلقله النقاط غير المحددة التى تمسك هذا البناء الصاعد فى الفراغ.

تردد مرات لاحصر لها أثناء التشييد ، حتى بلغه قلق كبير كهنة رع من صعوده المتكرر إلى الجبل الشرقى وقلة احتجابه ، وتردده المستمر على الحافة المطلّة جهة الغرب حيث اختار الأبيدوسى نقطة البداية، مجرد مرتكز صخرى لا يتسع لمؤخرة اثنين إذا تجاوزا متساندين . من تلك المساحة الضيقة ينطلق الصرح المتين إلى أعلى متحدياً كل فراغ، متجاوزاً كافة القوانين السارية ، شارع يعلو آخر ، وبيوت متراصة كأحجار مجمع الأسرار فوق هضبة الجيزة. أحيانا تبدو جنوع الأشجار معلقة مؤدية . النهايات تتماس بالبدائيات ، بل يجرى التبادل اليسير، فالمفتتح ينقلب إلى مختتم ، وهكذا تصير الأمور على غير ما ألف القوم، وما تسمح به الرؤى.

من بعيد من مسيرة عدة ساعات تبدو المدينة معلقة فى الفراغ ، كأنها تستند إلى فكرة يصعب تحديدها ، وليس إلى أساس ممتد فى الصخور العظمى ، موثق متين مهما بدا من نحوه ، وصعوبة اكتشافه أحيانا.

سريان البنيان فى الفراغ عجيب، وتجاوزة حد الغيوم الممطرة أول الشتاء أعجب . أما الاكتمال فمريبك لكل من ادعى أو تظاهر ، جاس سيد الكون فى

المدينة على مهل رغم إحاطته بها ، ومعرفته بأقسامها ومستوياتها خلال البناء ، استقر معجبا تياها ، بما أنجز في أيامه ، بيته لامثيل له ، لأول مرة تتلى الأدعية والتراتيل على هذا القرب من مسار الاله رع . لم تكن إقامته لاجابه فقط بالعمارة الفريدة ، إنما لدفع القوم إلى سكنها والسعى في أسواقها ، والتناسل في دورها ، غير أن ما أقلقته ذلك الأبيدوسى الشاب ، ليس لما يبلغه عن إعجاب الكهنة والسدنة والمرتلين وأرباب الفنون وأفراد الحرف المختلفة به ، من الطبيعى أن يسرى اسمه عبر الأفاق الأربعة ، وأن يتردد في الأزمنة التى لن يسعى فيها بجسده ، إنما بناتج مخيلته ، وما جسده ، كم مثله لحقهم هذا الفهم النادر لعمارة الكون ؟

لايضايقه ذلك ، لايفلقه هذا ، إنما يزعجه ما يتوقعه القوم منه ، الأبيدوسى مازال شابا ، فتيا ، وما ينبسط أمامه عديد ، أكثر مما انقضى وما يرقد فى مخيلته بلاحصر ، أجنة مدن لم يسمع بمثلها مقيم ، ولم يرها راكب مرتحل ، ماذا لو اختطفه غرباء ؟

ماذا لو أرسل أعداء البلاد من يغريه بالهدايا والإثاث ؟

لم يعرف عينين متوهجتين مثل حدقتيه ، خطاه تفيض ابداعا وخططا ومبادرات تنبئ بكل جديد ، إن وجوده بالقرب منه مقلق ، واستمراره مزعج ، من يشيد معماراً كهذا لا يحتاج إلى آخر ليتردد اسمه بعد رحيله إلى الأفق الغربى .

ما أثار خشيتته ، أنه كلما نظر إلى الأبيدوسى يكاد يوقن أن هذا الشاب الجنوبي يفهم ويقف على كافة ما يمر به ويفكر فيه .

هل يحتاج إليه بعد أن قامت المدينة التى لم يسمع بمثلها أحد . ألم تتخذ سبيلها فى الزمان عجبا وأعجوبة .

ألم ينجز ما صمم ؟

ألم يجسد ما تخيله ؟

اتخذ سيد الأفق قراره . ولم يكن بحاجة إلى النطق به ، أو تدوينه على لفافة بردى سرديّة ، فمن يسعون بين يديه يدركون رغباته قبل النطق بها . ويتعقبون اتجاه نظراته ليفسروا ويفهموا ويقفوا على ما خطط له .

أمر الرياح لا يصسرح إنما يومئ ، يلمح ، هكذا تجرى الأمور من قديم وستظل .

عندما بدأ ظهور الأعراض أدرك الأبيدوسي سريان السم البطيء إلى خزانة روحه ، لم يرقد ، رغم إدراكه أن البحث عن ترياق عبث ، إلا أنه آثر الخروج إلى الغرب بذاته ، بنفسه ، بخطاه ، لعله يبلغ المدينة المرجوة ، التي تتجلى لمن يطلبها ، ربما يدركها بعد خطى معدودات ، ربما تواتيه الفرصة ليصمم ما يمكنه إضافة شيء ما قبل الفوات ، لكنه يجب أيضا أن يبلغ رسالته الأخيرة إلى ابن الشمس ، سلم رسالة البردى إلى مُشاهدى المعنى ، هكذا تليت على أمر الصل وهادى الظلال ومحرك النسيمات ، ورغم خطورة ما جاء بها إلا أن ملامحه ظلت ثابتة شاخصة ، متطلعا بنظره الثاقب إلى الأفق الغربى .

حكاية

بستان الخضر



لا تنفذ الدهشة مهما استمر الطواف وطالت الإقامة بالكون المعمور، تأتيه الأوقات بما لا يتوقعه، لذلك تعجب عندما وصل هذه الأرض التي لم يطمأها من قبل، يسر بالاكتشاف مقدار بهجته بما يعانیه ويراه، ذلك أن توقعه للمغاير نادر بعد طوافه وتردده مرات على النواحي والجهات.

توقف ، يعرف تلك اللحيظات التي تسبق دخوله المدن أو القرى، مناطق ومواضع إقامة البشر، ما خططوا له، ما أقاموه، مطلع، ملم على أسماء لا حصر لها من لغات اندثرت وأخرى سارية الآن، تتصل كلها بالمكان، عدا النزل المؤدى إلى مدينة الغرب، لو بلغها لن يطوف أبداً! مقارنة المدن مماثلة لاستشراق خبايا الإناث، حيث لواح الوعود الغامضة، والامكانيات التي يصعب تعيينها، إنه منبهر رغم ما رآه . لم يعرف مثيلاً لذلك .

أبداً.. لم ير ما يمكن القياس عليه.

ليست المدينة إلا بناية واحدة ، وحيدة، غير ممتدة، إنما صاعدة إلى أعلى، يمكن رؤيتها على مسيرة سبعين يوماً، لا تبدو للأنظار والأحداق على هيئة واحدة، إنما تتغير من مرحلة إلى أخرى، ومن موضع إلى موضع، ومن إنسان إلى آخر، لن ينسى أبداً الأضواء المعلقة، الطالعة، المتوزعة على الفراغ، اشارات لكنها دالة، نهاراً، تبدو للراكب أو المترجل مستندة إلى الياينة، إلى صخور المرتفعات المشرفة، وأحياناً كأنها تضرب بجنورها فى فراغ، وعند اجتياز بوابتها الرئيسية فلا ينبىء أى شىء بما ينتظر القادم، الغريب، كأنه يلج بناية محدودة، وحيدة، فى البدء ظن أنه مقدم على دخول بيت أو مسكن.

واجهة البوابة منبسطة ، مائلة، بوابة مؤدية إلى فناء محدود، تطل عليه ثلاثة أبواب تعد بالمرور، لكن عند الدنو يجدها مصممة، حجرية ، لا تؤدى إلى شىء، غير أن ممراً قصيراً ، منزوياً ، يبدو عليه واعداً مؤدياً .

تقوم البيوت فوق بعضها ، يمكن رؤيتها تفصيلاً ، ويستحيل جملة إلا من موضع واحد لا يدركه أحد ، يكمن فى بقايا قصر ابن الشمس ، الذى يؤكد الجميع أنه مركز المدينة التى يتجاوز ارتفاعها سحب يتاير ، حقاً .. إن من يعيش ير ، ومن امتد حضوره عبر الأيام مثله ؟ من تقلب على الأزمنة مثله ؟

لولا أنه توصل إلى صيغة ألزم نفسه بها لتحول ما خص به ، ما حصل عليه صدفة وتفرّد به دون الخلق كلهم إلى نقمة وليس إلى نعمة ! يثق أن البلى يبدأ من الداخل ، ما من مخلوق معصوم ، محصن ، مهما طال به العمر ، انهيار المعمار يبدأ من النخر فى الأساس المستتر ، غير البادى للنظر ، أما تداعى المرئى فأخر المراحل ، لا يعلم إلا الخالق، ذلك المدى الذى يجب أن يقطعه قدماً فى الزمان .

لم يعلن عن هويته قط لمن التقى بهم هنا ، تماماً كما جرى فى البلاد والأصقاع الأخرى ، مهما امتدت به الإقامة ، كل الأوقات إلى انقضاء . تقمص مهنا شتى ، وأتقن علوماً صعبة ، أحب تجارة الحرير من الصين إلى ديار الغرب ، عرف كل الطرق العتيقة المؤدية ، وعمل طويلاً فى حفظ أجساد الموتى على ضفتى النيل ، وحمل الرسائل المطوية من رجال بالشرق إلى آخرين بأقصى أنحاء المغرب ، وتنقل مع حجاج يسعون عبر المسافات إلى أمكنة بعينها لإرضاء حاجات خفية وظاهرة معاً ! ، بلغ كل جهة ، عدا النزل المفضى إلى المدينة ، مدينة المدن كافة ، لم يكشف قط عن هويته ، حتى لمن اقتربن بهن وأنجب منهن ، ولا أبنائهن الذين أقام معهم ، رآهم عند ولادتهم وشيعهم ، لا يمكنه الآن تذكر أسمائهم وألقابهم ، لو أقدم لكلّ وملّ وضاعت القرايطيس ، يعرف أن أمره شائع ، وأن بعضهم وضع عنه عدة مؤلفات تتداولها الأيدي ، وأن التفاصيل بلا حصر ، فى كل ناحية ينسب إليه البعض اسماً مغائراً ، أعجبه « الأخضر » ربما لإتقانه درجات اللون الأخضر ، وراحته عند التمدد فوق الحشائش وفى ظل جذوع النخيل والأشجار ، حقاً .. إن من يعيش ير !

كلما صعد فى هذه المدينة الرأسية ردد تلك الجملة التى سمعها من معمر مصرى فى جنوب الوادى منذ ثلاثة آلاف عام . سعى قبل بناء مجمع الأسرار ، والهيكل العظمى ، والطرق المؤدية . نطقها بلغة مندثرة الآن . لم يتبق منها إلا بعض حروف فى كهوف عميقة أعلى الصخور الشرقية ، يجهلها أحفاد من حفروها ، وكتبوا بها على اللفائف ، والعظام ، وقرون الوعول ، والواجهات الواقية . هو نفسه لا يذكر مع أنه أمضى دورات عديدة على ضفتى النهر ، وتتبع مساراته ، وتحولات فروعها ، أشقى ما عاناه فى بقائه الديمومى تبدل اللغات وإتقان الفروق بين اللهجات . لكم اجتهد فى المقارنة عند الخلو وتمام الانفراد .

صعد مع البيوت ، وأماكن الراحة العامة ، والعقود المتينة المحنية ، الموصلة ، والجسور المتقنة ، والشرفات العلوية القائمة . كلما انتهى إلى بناء ظنه الأخير يكتشف اتصاله بأخر أعلى ، لم تتغير إجابة كل من سألته عن البيت التالى ، أو الطريق الآخر ، دائما تشير الأيدى إلى أعلى .

من كل بيت يتفرع طريق صاعد . دائما إلى الأسطح . يتم الوصول إليها من الخارج ، لماذا ؟

« لا نعرف .. »

لسكان المدينة خصائص وسمات يندر رؤية مثيها ، إنهم نحاف ، رجالهم طوال القامة ، أشداء البصر ، أما نساؤهم فلا مثيل لهن فى الطراوة ، ولين الأجساد وتنوع القدرة على إثارة الضجيج ، وملوك الوادى لا يتزوجون إلا منهن ، لا يتجاوزهن إلا نساء مدينة المدن ، هناك فى مجمع الجهات كلها . هنا الغرباء ينزلون أماكن محددة ، موزعة على ارتفاعات متقاربة ، لهم المأوى ، والطعام ، والكرم . لكن لا يسمح لأى منهم بالمرور فى أى طريق إلا مرة واحدة ، ولا يقيم إلا ثلاثة أيام ، كل بيوت الإقامة العابرة لا تؤدى إلى منازل أخرى ، محاصرة بشكل ما ، رغم دماثة المقابلة ، وحنو اللفظ ، إلا أن حذرا مخيما على الكافة ،

حتى الصغار ، تصعب الإجابات على الأسئلة ، خاصة ما يتصل بتخطيط المدينة ، ومقر مهندسها الأبدى الذى لم يتوصل إليه أحد ..

« لا نعرف .. هذا ما وجدناه .. »

لكن ، من وضع الأساس الأول فى المخيلة قبل أن يجسده خطوطا ثم حجارة ونقوشاً .

« كل الأبنية ، وجدت هكذا .. »

« منذ متى ؟ »

« من زمن الفرعون المتسائل .. »

« ما اسمه ؟ »

« لا نعرف .. لكنه قديم » .

أى قدم يعنون ؟ كم مقداره ؟ متى بدأ ؟ جال فى الحدائق المعلقة والجسور العابرة لندف الغمام ، التزم بكل ما أبلغ به من محاذير الغريب عندهم حرمة طالما لم يبد المخالفة . غير أن فضوله شب بما لم يتصوره ، وما لم يعهده طوال القرون الأولى ، أقام على مقربة من المدينة العجيبة ، وسمع من أهالى القرى والمحلات المحيطة ومن أفراد البريد القادمين من الجهات الأربع ما لا يجزئ أحد على ترديده داخل المدينة الفريدة ، التى تلوح متينة ، ركنية الأوتاد ، ثمة ما يؤكد مكان الخيام فى الصحارى القريبة عن مقبرة المؤسس وما تحوى من كنوز يكل إنسان واحد عن احصائها ، غير أن أصحاب النخيل ورعاته فى الوادى يؤكدون أن الفرعون العظيم لم يدفن فيها . إنما شيدت مقبرته فى الفراغ المنطلق ، مايلى ذروة المدينة ، وأنه أوصى بتذرية رماد جثمانه لحظات هبوب الرياح الموسمية حتى يسافر مندمجاً إلى جهات الكون ، لكن الكهنة حالوا دون ذلك واعتبروا تنفيذ هذا كفراً بكل ما ورثه الأبناء عن الآباء ، عن الأحفاد ، وسمع أيضاً ما يتردد عن

اختفاء المهندس الشاب الذى صمم المدينة وأشرف على تنفيذها ، كل مقاطعة تنسبه اليها وتؤكد ما يجعله مولوداً بها . متعلما فى معابدها . والخلاف حول هذا الأمر حاد ، غير أن كثيرين ممن يعتقد برأيهم يؤكدون أن الشاب لم يدفن جثمانه ، إنما اختفى فى موضع ما من المدينة . ذلك أن الفرعون العظيم قلق بعد افتتاح المدينة ، وانتقاله للسكنى فيها تشجيعاً لرجال تولته وأسرههم . هابها القوم فى البداية ثم تنافسوا على الإقامة بها ، خشى أن يفتق ذهنه عن بناء أروع ، أن يتجه صوب جهة ما ويجسد أعجوبة أخرى ، لكن فى ظل سلطان غريب . حقاً .. إذا كان قد توصل إلى تصميم هذه المدينة وهو بعد فى العقد الثانى . ما البال إذن بعد استواء الخيرة ، ويلوغ المخيلة أفاقاً أبعد ؟

لهذه الأسباب وأخرى غيرها دس له السم البطيخ ، ويبدو أن المعمارى الحصيف كان حكيماً أيضاً . نافذ البصيرة ، متوقفاً ذلك ، عندما وهن العظم منه لم يلزم الرقاد إنما شرع فى الرحيل . أرسل لقافة بردى أوصى ألا يفتحها انسان عدا سيد الأفقين ، أكد احتواها على سر ، تؤكد المرويات المتوارثة أن جلالته بمجرد فراغه من الاطلاع عليها نزل عليه غم ، ولم يمكث طويلاً ، لايعرف أحد ماذا تضمنت الرسالة بالضبط ، لكن أشهرها يقول إنها حوت نبأ ممضاً ، مقلقا حتى الآن ، هذا المعمار الذى يضم فى ثناياه مرتكزات تحميه من الزلزلة أيا كان عنفها ، وكل تقلبات المناخ ، ويث فيه مسارب الأمطار المؤدية إلى خزانات بعينها ، هذا التكوين الهائل ، العجيب ، يحوى موضعاً صغيراً ، إذا داسه انسان بقدميه ثلاث مرات تنهار البنية كافة .

هذه المدينة الأعجوبة ، التى تخلق ظلالها من داخلها ، وتضئ الليالى بوسائلها ، وتتقى تقلبات المناخ بزوايا مواجهتها للرياح الأربع ، ولا تدع قطرة ماء تتسرب خارج خزاناتها . هذه البيوت المتضامة ، المتساندة تعصف بها صدفه ، وتنتهيها خطى ثلاث غير مسددة .

تتنوع الرويات وتتعدد الحكايات بين كافة القريبيين منها ، المحيطين بها ،
المترددين عليها ، غير أن أهلها المقيمين ، ينكرون ما يصل إلى أسماعهم ،
ويؤكدون أن المدينة قديمة ، وأن أجدادهم جاءوا من بعيد ، صمموا ونفثوا ،
وأقلعوا عائدين إلى سكناهم فى المدينة الجامعة بأقصى الغرب .

كان يصفى إليهم هادئاً . مترسخاً عنده استحالة رد الأمور إلى أصولها ،
وربط المسارات ببداياتها . عند حد معين كان عليه أن يرحل، أن يفارق ، خاصة
مع صعوبة المكث ، واستحالة مخالطة القوم ، والنفاد إلى اشاراتهم أوامر ، لم
يطق صبراً فانطلق !

يم

بهدى من ذاكرته أولاً وموضع النجم البراق ثانياً وبقينه الخفى ثالثاً. اهتدى
إلى الموضع بعد خمسة عشر قرناً بالحساب الحديث لدورات الفلك، كأن هذا
الركن من العالم مصدر دائم ، متجدد للدهشة عنده ، لا أثر للمدينة ، للأرض
المتدة حولها ، بقايا الصخور التى أتقن تحديدها وتعيينها مظلة على بحر ممتد
تغرب الشمس عند أفقه ، غير أن فطنته وبرايته مكنته من تحديد مسارات
الرياح، تأكد أنها لم تتغير .

استغرقه اليم ، تدرجات الزرقة والتقاؤها بالبنى المخصب ، رغم بساطة
العناصر إلا أن أسباب الحنوالورققة ضافية . مياه وصخور وسماء ضامة ،
حاوية ، لا غير .

مرة أخرى أنتظر حلول الليل ، عندما أشرق النجم أعاد حساباته وأوضاعه ،
أيقن أنه الموضع الصحيح . يوقن من حلول لحظة تغرب فيها الشمس ولا تشرق
مرة أخرى ، يطول ليل بنجوم مغايرة ، يختفى ما يظنه أهل الفلك علامات ثابتة ،
ما يهتدى به البحارة وأصحاب الريادة فى دروب الصحارى الغميقة. شهد فى

سماء البحار الجنوبية الممتدة ، ميلاد نجم لامع ، متوهج ، بدا فى أحد الليالى فرداً ، وافداً ، مفاجئاً كان حضوره مباغتاً ،... ومنذ أن طالعهُ أيقن رحيله مهما أقام ، للنجم العابر ، غير المقيم مظهر يعرفه . ما يجىء فجأة يذهب بغتة ، وبقدر معاناة الظهور تكون مدة البقاء . جوهر أتقنه خلال بقائه الممتد عبر رحلاته القصوى ، وخروجه عن الناموس الانسانى عقب ارتوائه من عين الحياة التى لا يعرف موضعها ، ولا يذكره ، فكم من جرعات ارتشفها خلال رحلاته الأولى . رغم ذلك يوقن بزواله رغم امتداد العمر به ، لا شىء يبقى ، الثوابت زائلة أيضاً ، لكن .. إلى متى إقامته هو؟ فى لحظة معينة سيجد نفسه فى النُزل ، ولن يكون أمامه إلا الانتظار .. إلى متى ؟ هذا ما لا يمكنه الاجابة عليه ، لا يقدر إلا على السؤال ، وأكثر ما يؤلم الانسان اليأس من الجواب ، يهز رأسه عندما ينفرد ، وتصدر عنه إشارات ، وتتعاقب على ملامحه التعبيرات ، لا يحاور نفسه إلا عند عبوره البوادي ، ومكثه فى الغياض . وقطعه المسافات الفاصلة ، لم يسترسل هنا ، كان على حذر . ذلك أنه اكتسب حاسة فريدة تتعلق بأدراكه طبيعة الأماكن التى يطرُقها وخصائصها ، الأخطار لا تعد ، وأخشى ما يرهبه طول البقاء مع العجن ، هذا فظيع ، لذلك يتمنى موته واقفاً ، تماماً كما ترحل الأشجار النادرة ، المعمرة ، تجف رؤيدا ، رؤيدا ، حتى تهوى بلمسة ريح ، أو استناد شخص عابر مثله إلى جذع يبدو عتيداً متيناً لكنه ينهار عند أول لمسة .

ربما يبدو انشغاله الدائم بالغناء غريباً رغم أمره الشائع ، المعروف عند كثيرين ، المذكور فى كتب الأقدمين ، يتوارثون أخباره وأحواله من موضع إلى آخر ، ومن لغة إلى لغة ، يصفى إلى القصاصيين والوعاظ إلى الكهنة ، إلى المنفردين ، العزل ، أمره معروف وإن اختلفت صيغ المشرق عن المغرب ، هنا .. له اسم ، وهناك آخر مغاير ، ما تردد حوله جعل موقعه مقدساً بين أديان متنافرة شكلاً ، متفقة مضموناً ، يقين خفى لديه أن الأصول كامنة فى تلك المدينة التى

خالفت ما عداها. لكن أبوابها أوصدت في وجهه ، لكم تمنى لقاء هذا الشاب الجنوبي إذا تعذرت المعرفة فليتبّع الأصول الأولى ، لكنه يصل إلى المكان فلا يجد أثراً ، وما كان يابسة أصبح يماً طاماً ، ممتداً ، لمن يروى مشاهداته الأولى ، من يصدقه ؟

إنه مضطر إلى إخفاء هويته ، إلى تمويه كُناه ، ألا يصرح بحقيقة حتى لأبنائه وأحفاد أحفاده الذين يتوهون عنه ويضلون ، ويحيد عنهم ، لو أدرك بعض أصحاب السلطان قبساً من أمره لأذاقوه الويل كله ، ظننا منهم أنه مستحوذ على سر البقاء ، ومغالبة الفناء ، والترحال من زمن إلى زمن ، لهذا كله هو مختفٍ ، متوارٍ رغم ظهوره ، بعيد رغم قربه ، مهدد بالوصول إلى النُزل رغم أمنه مما يخشاه البشر ، من خلال الصخور وأمواج البحر وعناصر خفية يوقن بوجود ظلال ما للمدينة المندثرة ، إنها قائمة مثله ، حاضرة في الفراغ رغم فنائها وتغير معالم الطبيعة ، لكن ثوابت النجوم دالة . عبر لحظات تقع بين النوم واليقظة أدرك أن ثمة من ينظر إليه . قام بغتة.

رجل يصعب تحديد عمره ، لكنه في العنفوان ، هادئ ، مرتبط إلى ركبته يشير إليه مطمئناً ، ينطق ألفاظاً يصغى إليها للمرة الأولى ، مر به ذلك كثيراً ، حروفها متشابهة ، إيقاعاتها متقاربة .

يمد يده ملامسا الكتف الأيمن .

علامة ما ، يمد يده بدوره ملامساً الكتف الأيسر .

تعود الابتسامة إلى ملامحه ، يقف ، يستدير داعياً له أن يتبعه ، هكذا بدأت الصبحية ، عبراً صخوراً متصلة ، لايشذ ارتفاع بعضها إلا قليلاً ، تتدرج صاعدة نحو واجهة عريضة حمراء اللون تتخللها فجوات ، فتحات مؤدية إلى كهوف تختلف اتساعاتها ، كلها مظة على البحر مشرفة عليه ، بعضها متجاور ، مداخل فسيحة ، مرتفعة ، وأخرى لا يمكن عبورها إلا زحفاً .

جاء القوم ، تجمعوا حوله ، شابات مشرعات النهود ، عجائز يسدنون
اليصر ، تجاء حضوره ، مقطبين ، متأملين ، لا يجمعهم أى شبه بأهالى المدينة
الأولى .

بعد اكتمال القمر بدمراً سيع مرات ، نطق بالآلفاظ الممكنة ، لم يكن هناك معلم
أو لغة مقاربة ، لكن.. الفضل يعود إلى هذه البنية ، العقية ، الشاية ، اختارته ،
عندما تحلقوا حوله وطال وقوفهم تعجب وخشى ، فيما بعد أدرك أنهم كانوا
يتفحصونه ، ينتظرون إعجاب احدهم به . الرجل هنا يجب ألا ينام بمفرده ،
خاضة إذا كان ضيقاً غريباً حل بهم ، أو أسيراً ، أو سجيناً ، يوازى ذلك عندهم
الكفر ، إذ يعنى مبيت القادر ، البالغ بمفرده إهدارا لفرصة اثراء الحياة بمخلوق
يجب ألا يحول أى شىء نون مجيئه إلى الكون .

ماذا يربط أهالى هذه الصخور ، تلك المغارات ، بسكان المدينة الأولى ؟ كان
سكانها مشغولين بالموت ، حتى ليذكر بدهشة حزن الوالدين وفرحهما فى نفس
الوقت لوفادة مولودهما ، الفرح لاكتمال ظهوره ، والحزن لبدء النقصان ، لبدء
العد التنازلى صوب تلك النقطة التى لم يرجع منها أحد حتى الآن . وعندما يكتمل
أجل المرء يصحب معه كافة ما يمت إليه من أشياء .

هؤلاء القوم يعيشون على صيد البحر ، يمتلكون أربعين قارباً مختلفة
الأحجام ، يتوارثونها ، يبذلون من أجلها الجهد والصيانة .

«منذ متى أنتم هنا ؟»

قالت الصبية ، الدافئة ، المزهوة ،

«منذ ظهور الشمس والقمر ..»

ثم قالت وأناملها تودع أثراً لم يمح من حواسه لأزمنة متعاقبة .

«من قديم .. لا نعرف أرضاً أخرى أو شاطئاً آخر لهذا البحر ..»

يصغى متدغدغا بالود ، بالنشوة ، ممتنا لها لأنها اختارته ، عندما تقدمت نحوه ومدت يدها إليه بمحارة صغيرة ، علامتهم المتفق عليها ، منذ اشارتها صارت له ومضى إليها ، لو رفض .. عليه مفارقة الموضع كله ، لا تحل له إقامة أو صحبة ، الأنثى هنا لا ترد ، قولها فصل ، إليها ينسب الأطفال .

الحق .. أنه لم يعرف فى رحلاته مثل تلك الصببية ، قوية الطلع ، ناعمة مطواعة ، رغم أنه أزال بكارتها إلا أنها حوت ميراث إناث الكون كلهن ، كأنها امتداد لرغباته ، تجسد ما يهوى قبل نطقه به أو إعرابه عنه ، لم يعرف رياً ورضاً وسكينة وقدرة على الإصغاء كما عرفه هنا فى ذلك الكهف الصغير ، المشرف ، المطل على أليم .

« من سواها هكذا ؟ »

« الرياح والنجوم .. »

« أحقاً ؟ »

هل يمكن للطبيعة أن تبلغ هذه الدقة ؟ ، اكتمل القمر ستين مرة وصحبتهما مكتملة ، لم يعرف الضيق ، ولم ينل منه الضجر ، وظن أن اكتمالهما باق أبداً ، هو الموقن من فراق كل حى !

لم يكف عن تنسم ما تبقى من المدينة الرأسية ، كانت تحفظ حكايات عديدة ، وعندها قدرة على وصف ملامح الوجوه لحظات مواجهتها للبحر ، مرة توقف وحاول جاهداً اقتفاء مالا يمكن إدراكه بالحواس ، عندما قصت عليه نبأ النابغة الذى شيد داخل هذه الصخور مغارة لا مثيل لها ، ليست من صياغة النسمات ونجر الموج وايقاعات الزلازل ، لكنها من نتاج تفتق عقله وعشقه للحجر ، بعد أن فرغ أدرك شيخ الناحية أنه يمتلك شيئاً لا مثيل له . وأن المخيلة التى نتج عنها هذا التكوين يجب أن تصمت إلى الأبد ، ويقال إنه أوقفه ليلاً ، وألقاه فى البحر ، وأن

صرخاته تسمع فى لىالى المحاق رغم بلوغه النزل وعبوره إلى المدينة التى لم يرجع أحد منها لينبىء عن قبس مما تحوى .

بيستان

أولج فى الزرع قبل بلوغه المدينة التى سمع بوجودها على مسيرة أسبوعين . أشجار كثيفة ونخيل باسق ، وزهور ، ألوان منغمة ، وعبق ليمون ، أطياف نعناع ، وظلال تين عسلى ورسوخ نخيل ، وتربة سوداء غنية ، قديمة ، طبقات متداخلة ، تنبىء بعताقتها ، ودموع أحبة غامضة ولحظات مولية ، جد نائية ، عبير النهر القريب سارى . مضوع ، حشائش كثيفة ، ناعمة كالقطيفة الصينية ، يطأ مهادها ، يتجاوزها فتشرب من جديد وكأنها لم تنتن قط .

جنوع الأشجار تحتوى الأزمنة ، والأوقات تحيطها . تلك التشققات ، اللحاءات الخارجية ، الفروق فى الألوان ، ما بين فاتح وغامق وداكن امتص حرارة الشمس ، منبىء بالرسوخ ، ما بين الجذور والأغصان القصية يتنقل بصره ، كم من باسقات عاينها وأغفى تحتها واستظل بنعومتها . عرف أسماء البعض من القوم ، ما لم يعرفه منحه أسماء وعلامات لم ينسها قط . حتى إذا رأى نبتة فى أقصى المغرب وصادف مثلاً فى نهاية المشرق يجرى المقارنة على الفور .

هذا البستان الشاسع ضمه ، وهدده ، وأتاه بكل جميل ، أسماء وعلامات وخطى مشاها وضحات ارتقت إلى توحد نشوى بديع . هنا سعى وأقام . المرة الأولى فى المدينة الرأسية ، والثانية فى مدينة الماء والصخر . ما أعجب وأغرب ، حوالى خمسة عشر ألف عام مما يعدون . كأنها سويغات ، أو لحظات استغرقها

تواری ظل علامة على استمرار دورة الفلك ، كل ما مضى يتساوى ، وكذلك ما
تبقى!

عندما سمع بخير البستان فى ديار قصية ، وأدرك من دقة الوصف عين
المكان ، استفسر عن خطط له ونثر بنوره ، وتعهد بالرعاية ثمار أشجاره ، قيل له
إنه قديم ، لا يعرف أحد من أنشأه بالضبط ، لكن تقول بعض حكايات الرحالة
والمسافرين لأغراض شتى أنه لم يتبق منه إلا مستوى واحد . ذلك أن النبات
والزهور والأشجار كانت صاعدة إلى أعلى تتجاوز السحاب ، وأن الغرس كان يتم
فى الغمام ، كيف ؟

لا أحد يدري ، من شيد تلك البساتين المعلقة اختفى ، قيل إنه جاء من كوكب
بعيد ، أمضى زمنا مع صاحب له ، أنهوا مدتهم ومضوا بعد أن تركوا علامات .
أشهرها هذه الجنائن التى لم تجد من يهن بها ، وقالوا إنه مهندس ذو بصيرة
ونفاذ ، كان يمكن أن يملأ الدنيا شواهد باقية ، ومدنا محفورة فى الصخور ،
وطرقا وبنائات فوق السحاب ، غير أن من كلفه بإنشاء تلك الحديقة الصاعدة بغير
عمد قتله لسبب ما . أمر بإلقائه من آخر نقطة مرتفعة وصل إليها البستان .

لماذا ؟

لا أحد يدري .

لا أحد يقطع ، غير أن ما يراه ، ما يجول فيه مجرد بقايا ، عدة أيام يمشى
متمهلا ، مسرعاً ، متأملاً ، لم يلتق بأحد ، ولم تلح نهاية أو نقطة يمكنه بلوغ
النهاية عندها .

يتوقف عند أشجار الصبار ، أنواع لم تجتمع فى مكان واحد ، يعرفها من
خلال طوافه الطويل ، منها المستطيل كالعصا ، والأوراق الصغيرة ، المتفرقة ،

كرات متماسكة ، كأنها تتوالد فى لحظات متعاقبة ، رأى كلا منها فى موضع ينأى
عن الآخر مسيرة أعوام ، كيف تجاوزت هنا ؟

لابد أن أيدى خبيرة . حاذقة رتبت الأوضاع هنا .

متى ؟

لا يمكنه سماع الاجابة ، حتى لو التقى بالعديد من البشر . يتوقف أمام أنواع
شتى من الزهور ، من الأشجار ، يقترب مبتسما لتلك الأغصان النحيلة ، الحاملة
لأوراق خضراء . رقيقة كالحرير . لم يطالعها-إلا فى مكانين متباعدين ، الأول
جزيرة فى بحر الصين الجنوبي ، واحدة من الجزر التى تشرق عليها الشمس
أولا . والثانية جزيرة أكبر مساحة فى البحر القريب ، يتوسطها بركان شهير ينفث
جمرا سائلا كل خمسين سنة . نبات له خاصية غريبة ، إذا توقف أمامه مخلوق
ما يبدأ انكماشه وتراجعته ، إذا لمسه أحد تنطوى الأوراق حتى لتصبح خيوطا
رفيعة ، يستمر فى التلملم ، فى الانكماش حتى يتحول الغصن بأوراقه إلى نقطة
صغيرة تدرك بصعوبة ويتردد أنه يوجد بكثافة فى مدينة الغرب ، للأشجار حواس ،
وللزهور لغات ، وما يعرفه البشر الساعون ، الواعون ، تدركه تلك الأغصان ،
وهذه الجنوع . والجنور الضاربة ، عرف بشرا أقاموا ومضوا ، تخاطبوا وعلموا
أبناءهم واحفادهم لغاتهم ، غير أن ألفاظ المخاطبة اندثرت ، كأنها لم تنطق قط ،
لكن لهجات الرياح ولغات النيات لم تتبدل .

لكم تابع مظاهر التحول والتغير ، وأن يسمع المرء بالتقلب شئ وأن يعايشه أو
يمر به أمر آخر تماما ، ما من علامة توقف عندها مثل رسوخ الأشجار ، خاصة
النخيل ، بل إنه ارتبط بعدد منها فى أماكن متفرقة من الأرض ، يحرص فى
طوافه على الوقوف أمامهم ، ويتذوق ثمارهم إن أمكن ، رغم إدراكه أن ما يراه من

أشجار مغاير لما رآه من قبل آلاف السنين . ما من أجل ممتد ، لكل شئ من ناطق أو صامت مطلع وحد ، يقين راسخ عنده ، رغم سريانه إلا أنه موقن بلحظة ما تخصه ، بعدها يلج العدم ! ، رغم يقينه إلا أن النخيل يمثل عنده الأبدية ، الثبات فى مواجهة القوى الطاوية والرمال الكاسية ، كأنها شربت من عين الحياة مثله ، غير أنها باقية ما ظلت الدنيا ، وهو محدود بوصوله فى طوافه إلى مدينة الغرب ، لا يعرف متى يمكن أن يقع ذلك ، ربما بعد خطوات معدودات ، أو بعد مرور قرون تتغير فيها المعالم وتتبدل القسمات . رغم حذره فإنه تواق لبلوغ هذه المدينة العجيبة التى تتناقض أخبارها وما يروى أحوالها ، إلى حد أن كل عنصر ينفى الآخر .

يتمدد .

تحيطه ، تحنو عليه الأغصان الكثيفة ، أصدق وأشف الصور ما يرد خلال رقدة فى ظل دوحة عتيقة أو أرزة راسخة ، توحى بالأزلية ، وتحتوى الحيوانات كلها فى عناصرها المكنونة .

يرهف السمع إلى الحفيف ، إلى الهسيس ، إلى الزئير ، العواء والهمس والجهر ، يثق من قدرته على التقصى الطويل ودقة الامعان كم لغة بدت فى المفتتح عصية ، لكنه مع الإقدام والتغلغل ، والتقصى نفذ وبرع وتفنن .

كيف لم يشرع من قبل فى اتقان لغات النبات؟ ، يعرف الآن أحاديث بعض الطيور ، يفهم حالات أساها وتوقها وفرحها ، لقنه أسرارها قوم من أهل المغرب الأقصى ، تخصصوا فى تعلم السنة الطيور ، واستقبالها كل سنة عند مجيئها من البرد إلى الدفء ، وتلقى أسرار جملة عنها ، خاصة ما يتصل بالنزل المؤدى ومدينة الغرب .

راحته فى ادراكه أمورا لم يعرفها بعد ، يقينه ببقاء ما يجهله يصغى ، يغمض
عينيه ، أرض وثيرة بطرحها الوفير من الحشائش القطيفية، المكان عينه ، لكنه
ليس هو ، يتوق إلى من يحدثه عن المدينة التى رآها وجال بها زمناً ، وإلى خطو
تلك البنية الفارحة ، رقدا هنا ، عند موضع ما من الناحية التى كانت موزعة ما
بين اليايسة والبحر .

أين ولت ضمتها ؟

أين وثارتها ، وحنوها عليه ، أين ؟

أين تمليسسها عليه ؟ ، ما يفتقده فى كل بنات جنسها ، سائر من عرفهن
بعدها ، أغداق اللطف من أصابعها ، فرشها نظراتها ليرقد ويتمدد ويفض أحماله
الثقيلة .

لا تتوهج نصاعة الذكر إلا من خلال أنثى ، إذ تلمسه يتشبث بها ، ذات
عصر امتزجا ، تعلق كل منهما بالآخر خلال إبحارهما صوب لحظة التذرى
والأوج ، تعاونهما على رشقة الحياة التى يعقبها همود ، البقاء والفناء معاً ،
دفعت بصدرها نحوه ، نفذت إليه بكلها ، ارتداها وتلفحت به ، وحتى الآن لم
تنأ عنه ..

مصطلحات

فناء



كل قناء خلاء ، حتى إن حده سور أو أحاطت به عمارة أو أحدى به
بنيان ، لا يقوم خلاء بدون امتلاء صب أصم ، الأمر هنا قديم ، فالشيء
لا يبرز إلى الوجود إلا بضده .

الأصل فى الكون خلاء ، وهذا له شروح مفصلة فى كتاب البوابات
المنقوش على جدران مقابر وادى الملوك ، والبوابات المعنية مقصود بها
ساعات الليل والنهار . كل ساعة مفضية إلى أخرى ، وهذا عبور دائم
من نقطة إلى أخرى ، ومن لحظة إلى لحظة كل باب مؤد ولا انتسفت
صفته أصلاً ، سواء كان اجتيازها إلى داخل مصون ، أو إلى خارج
مستباح .

كل باب مفض إلى خلاء ، محدودا كان أو مطلقا ، وكل خلاء
محصور مهما بلغ مداه ، لأن بلوغه يعنى الوقوف عند نقطة بداية
وماله بداية لا بد له من نهاية .

كل خلاء نعرفه ، نجتازه ، نقطعه ، إنما يعد استحضاراً للخلاء
الأعظم ، اللانهائى ، للكون غير المدرك كله ، فما نعرفه منه بالإحاطة
أو العلم مجرد هشاشة .

الأمر قديم ، سابق على تشييد مستودع الأسرار المعروف بالآهرام ،
وقبل التوصل إلى الأبواب التى لا تؤدى إلى شيء وتتصل بكل شيء ! ،
بل يمكن القول إن القوم توصلوا إلى الأمر ثم جرى تفسيره ، أو بتعبير
أكثر دقة ، فهمه ، وكثير من الأمور تبقى دلالاتها كامنة ، خبيثة ، حتى
يجيء من يكشف ويفسر فيشرح الأمر ويتم تيسيره ، هل أضرب لكم
مثالاً؟ لكى تقام غرفة لا بد من جدران وسقف ، سواء كانت مربعة أو
دائرية أو مستطيلة ، ليست الجدران إلا مقابلات للجهات الأربع الأصلية ،
ولما كان الانسان فى بداية سعيه وتمام إقامته على جانبى النهر الذى
حفر مجراه وأتم دربه عبر قرون لا يمكن احصاؤها بدقة ، كان يتطلع

إلى أركان الأفق ، ويرى السماء المنبسطة ، المحمولة على الجهات غير المرئية ، وعندما أراد الكنة ، الإقامة ، تدرج الأمر من السعى عبر الفراغ الكبير إلى الفضاء المحدد ، المقدر ، لذلك كان لابد من استحضار صورة الكون ورموزه ، هذا أمر لم يتوصل إليه القوم بين ليلة أو أخرى أو بين سنة والثانية ، تقول البرديات القديمة إن أمنحتب هندس البناء ، وصمم المصطبة فوق الأخرى ، ورسم حدود المدخل ، والممر ، والفناء ، لكن أمنحتب الذى كان عالماً وطبيباً وجراحاً ماهراً ومهندساً وفلكياً ، لم يكن بداية ، إنما هو ثمرة لما قبله ، وربما لم يوجد قط ، ولم يسمع رغم الإشارات غير المتناهية إليه ، وتحوله من بشر عادى فى الدولة القديمة إلى اله معبود فى الحديثة ، قرب تمام نهاية الزمن الفرعونى المرئى قبل بدء تحول رموزه وتغليف دلالاته واستمرارها تسعى حتى يومنا هذا ، سواء كان أمنحتب حقيقياً أم رمزاً ، اسمه يشير إلى أسماء كثيرة ، وخيرات مجهولين متراكمة ، المهم أنها أدت إلى نتائج محددة ، تتجسد حولنا وفوقنا ، فى نواظرننا وأحلامنا ، ماذا يعنى أمنحتب ؟ صحيح أن للاسم قوة ، لكنه يشير أحياناً إلى معنى ، إلى جهد ، إلى حكمة ، إلى خبرة ، ليس من الضرورى ارتباطها بصاحب الاسم ، إنما الأمر كله متبدد ، وهنا أمر دقيق يتصل بمعان أخرى ليس هنا مجال شرحها ، ما يعيننا أن أمنحتب أدرك معنى الفناء ، لم يوجد ، إذ كان ماثلاً قبله ، لكنه أحاط بمعناه .

كل بناء يتضمن محاكاة ، والنموذج الأصلى ، الأعم ، ذلك الكون الفسيح الذى لا تقطعه الأسفار ولا تطويه المسافات ، ولا تحيط به الأفهام ، وثمة قائل يزعم أن هذا الكون كله ربما لا يكون إلا مجرد عتبة مؤدية إلى أكوان أخرى ، أى أن ما نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة ، مؤدية إلى أكوان أخرى لا نعلم عنها شيئاً ولا ندرك من صفاتها أمراً ، ربما يتخللنا بعضها ، يتجاوز معنا ولا ندرك . أى أن ما

نظنه فناء ليس إلا عتبة موصلة إذا كان كل بناء استحضارا وتمثيلا لأصل غائب ، فالجدران للجهات الأربع ، والسقف للسماء مسطحا كان أوقبة ، اذن .. إلى أى شىء يرمز الفناء ؟ .

باختصار دال ، يمكن القول إنه يشير إلى الفراغات الكونية وما الوجود السحيق ، الساحق إلا فراغات هائلة تتخللها حجرات أو نجوم أو كويكبات أو مذنبات هائلة أو أجسام ضالة ، وما هذه الأجرام كلها دقت أو تعاضمت حجما إلا نثار .

الأصل هو الفراغ ، والمنتهى أيضاً ، إنه الهو اللامتناهى ، ولما كان الانسان يحن إلى البداية دائماً ، لذلك دأب على استحضار ما كان أو تمثله ، ولنضرب مثلاً لعل الأمر يتضح .

ألا يبدأ التكوين فى الرحم ؟ مجرد بذرة يظن الناظر اليها أنها هامة ، جامدة ، لكنها تموج بحياة وحركة تتضمن كل ما كان وسيكون ، ينمو الجنين فى وضع يتلاءم مع الحيز المحيط به ، منحنيا على بعضه ، ويلزم هذا الوضع أثناء نموه حتى يرقد الضجعة النهائية ، وقديماً كانوا يهيلون الجسد فى رقدة مشابهة عندما يأوى إلى الرحم الأشمل ، إلى الأرض ، جرى ذلك لآلاف السنين قبل أن يقع تطور مجهول المصدر عندما تحولت الرقدة الأبدية إلى الاستقامة التى تكفلها اللفائف الموميائية ، يحرص المرء على اتخاذ موضعه فى حيز محدد لكنه يحوى فراغاً حتى إذ كفت ركضات القلب عن التتابع ، وتوقفت الأنفاس ، أحبط بما يلغى الفسراغ ، لكنه هو ذاته يبدأ اندماجه النهائى فى ذلك اللانهائى ، غير المحدود .

ليس الفناء إلا استحضارا لهذا الفراغ المرنى ، أو غير المدرك . يقوم البناء فى شتى العصور منتظما حول فراغ محدد ، وفى العصور القديمة ، على ضفتى النيل ، وفى المدن الوليدة فى الصحارى الشاسعة ،

قامت الصلة المباشرة بين الفراغ والامتلاء ، ينتظم البناء معبداً كسان أو قصراً للفرعون ، أو بيتاً للفلاح فقير حول فناء ما . تختلف مساحته أو شكله ما بين تربية وتدوير أو استطالة ، لكنها تحفظ الصلة وتقيمها ما بين الأرض والسماء ، ما بين محدودية الإقامة وشسوع المدى المرغوب اجتيازه ، ما بين الثرى المبعوث والنجوم العالقة والهسهسات الحائمة . مهما بلغ جمال الداخل لابد من احتياج إلى الخارج .

تنتظم الدروب ، وتثنى العطفات ، وتقوم الأقبية ، وتفضى الأزقة إلى الشوارع ، وتصب كلها في الميادين ، إنها أفنية المدن ، كل ميدان فناء ، تنتهي عنده طرق وتبدأ عنده أخرى .

تكتمل المدن لحاجات في نفوس المقيمين بها ، أو الساعين إليها ، أو أغراض أملت على أصحاب الريادة انشاءها ، تبدأ المدينة من نقطة وتنتهي عند نقطة ، من بوابة إلى بوابة ، وكل بوابة اجتياز حتى لو كانت وهمية . تنأى المدن عن بعضها ، وما بينها أفنية ، كل مسافة فاصلة بين مدينة وأخرى فناء ، ترصف الطرق وتسوى الوعورات ولا يمثل هذا الجهد إلا قطع فناء مفض ، كل خلاء فناء ، إذن كل فناء أصل .

وفي لحظات استغراق عميق ، عتيق ، استحضرت صوتاً لأنثى شاكية ، بنية دقيقة ، هائمة الروح ، كان لوالدها بيت على هيئة مربع ، بابها ضئيل المساحة ، لكن عبوره ينقل إلى عالم مؤطر بالحنية والقدرة على قطع الأيام بهدوء الحال ، والأمستان ، واقصاء الخوف بأشكاله كافة ، غرف البيت تنتظم حول الفناء المرصوف ببلاطات ملونة ، تتوسطه نافورة تبت الماء في سلاسة ، لم يكن هذا الفناء إلا مركزها ومنطلقها إلى النجوم السارية والتي حفظت مواقعها وطلاتها منذ طفولتها ، وأتقنت تعيين حركتها ليلاً ، إلى أن حان أوان زواجها ومفارقتها بيت والدها .

وعندما وصلت بيت زوجها الثانى وقعت بصدرها عكمة ، كان قوم زوجها يقطنون جبالا مرتفعة يحفرون بيوتهم داخلها ، أو يتخذون من الكهوف القديمة مأوى بعد تنميقها وتنسيقها ، وجرى عندها حنين إلى النجوم ، وصارت تشكو ، لكن دموعها لاحت غريبة ، مستعصية على الفهم ، وفى ليلة تسللت إلى الفراغ ، تطلعت إلى النجوم الثلاثة المائلة ، الممتدة على خط مستقيم ، من خلال حركتهما كانت تعرف الوقت وتعينه ، تلقت ذلك عن جدتها . طال تحديقها ، وطال مكثها . وطال البحث عنها ، وكان توحدها ، بفناء الكون فسيحاً ونهائياً وكان والداها إذ يتطلعان من فنائهما المحدود يثقان أنها ترقبهما من موضع ما .. هناك !

حكاية

غمامة



إنها شرفة الأرض المعمورة على حدود السماء المجهولة ، المرفوعة بغير عمد ،
المنبسطة إلى أبد .

هكذا رأى عقبة بن نافع هذا الموضع الذى اختاره لبناء المدينة الجديدة مدينة
حملوها داخلهم . حلموا بشوارعها وتواصيها وأسواقها عبر دروب البادية التى
قطعوها بعد خروجهم من مصر قاصدين الغرب . لم يلجأ إلى الطريق المحاذى
إلى البحر . ما أسهله ، لكن .. ما أخطره أيضاً ، سفن الأعداء تجوب البحر ،
وتهدد الشاطئ ، لذلك كان ولوج الصحراء ، الاقتراب من بعيد .

لا يعرف قيمة اللون الأخضر إلا من فاض بتقيضه ، وحشة الرمال ، وثقل
الكتبان ، ولا نهائية الأصداء المرسله ، أحراش ؟ ، نعم .. لكنها متواصلة ، رطبة ،
تمهيداً ممكن وتسويتها سهلة مهما كانت المشاق ، لم يقع اختياره على الموضع
إلا بعد أن جاس واطلع ، توقف وأمعن ، ثم انثنى إلى هذا الموضع ، قيل له إنه
مسكون بالآفاعى والعقارب والهوام ، عندئذ تقدم صاحبه منفرداً ، صاح مخاطباً
من لا يفهم لسانه ، صاح :

« أيتها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
فارحلوا عنا فإننا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه .. » .

تناقل الناس والرواة فيما بعد ماجرى ، عندما فوجئ القوم باندفاع الحيات ،
والضباع والثعالب والعقارب وسائر أنواع الوحش والحشرات ، بهر بها ، لكن
بعض رواة الأخبار وكتاب التراجم يصفون اندفاع عقبة التى أعقبت صيخته
وبعاه ، لم يكن هيباً ، أو متردداً ، كان يخطو دائماً باتجاه موضع مغيب
الشمس ، غازياً ، مجاهداً ، ناشراً العقيدة ، قال لصاحبه إن الدين الجديد لن
يثبت إلا بعمارة النفوس والبنيان فى تلك الأصقاع النائية ، هكذا نصب خيمته
على حافة الأحراش التى صار ينزلها نهراً ، ويعمل بنفسه فى تمهيدها
وتسويتها .

وجد في المكان ما لم يجده في غيره ، ذلك الانبساط ، وتلك اللانهائية ، وحضور الحافة ، زرقة السماء صافية ، تجعلها دائية ، وغماماتها تهدد الذوات ، أما بعده عن البحر فضروري للسكينة وعكوف أهل العلم والتحرى .

ثلاثة شهور قمرية لم يفارق فيها الموضع ، وبعد أن أن جرى تمهيد رقعة تماثل مساحة فسطاط عمرو ، استدعى بناء مصريا وميقاتيا جهنيا ، قال لهما إنه سيقوم مسجداً في القلب كما جرت عادة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنه يريد بناءً بسيطاً ، متيناً ، تمر عليه الدهور ويمر عليها ، فالموضع هنا حافة ، شرفة على الصحراء ، وبوابة مؤدية إلى الأزمنة المنقضية والتالية ، إنه مكان ، وسط ، وقد جاء من صحراء مكة ماشياً على قدميه فلم ير موضعاً تقترب فيه السماء من الأرض كهذه الناحية ، وهذا اعتبار جلي ، غير خفي ، متضمن في الاختيار .

ثلاثة أيام أمضاها كل من السكندري والجهني ، يخططان ، يرسمان ، يشرعان ، كل منهما بمفرده ، بمعنى عن الآخر ، غير أنهما عندما اتجها إلى خيمة عقبة ومثلا بين يديه واحداً أثر الآخر ، البناء في البداية والميقاتي بعده ، قال كل منهما عين المضمون رغم أنهما لم يتفقا مسبقاً ، ولم يلتقيا ، ليس لأن مهمة كل منهما مغايرة تماماً ، إنما لأن عقبة أراد ذلك . لهذا تعجب عندما أفضيا إليه بعزمهما على أن يتضمن المسجد ما لا يوجد في أي بناء آخر ، قال السكندري إنه أعد نموذجاً من الجلد المتقن ، سيعرضه غداً بعد شروق الشمس مباشرة ، وقال الميقاتي إنه انتهى بالفعل من تحديد دقيق لاتجاه القبلة كذا مواعيد الصلاة يومياً بيوم على مدار السنة القمرية ، أخذ في الاعتبار حركة الأقلاك وأي تغيير يطرأ عليها بدءاً من اليوم ولدة ألف سنة ما لم تقع حوادث مفاجئة ليست في حسابان ، وعندما استفسر عقبة عن المعنى الكامن وراء ذلك ، قال الجهني إن ذلك نائب العزيز العليم .

أطرق عقبة ، أصفى إلى الجهنى ، وعده أن يعلن ما سيتفرد به المسجد بمجرد رؤية النموذج صباح الغد ، هكذا اجتمع القوم ، عقبة وأركانها ، قعدوا على شكل دائرة مفتوحة تتيح للقادم أن يدخل إلى مركزها ، هكذا وقف السكندرى وخارج الدائرة الجهنى ، كشف عن اللوح الخشبي المنبسط ، فوقه مصغر المسجد ، سور وفناء مكشوف ، وآخر مغطى ، وصومعة لم ير عقبة مثلها ، مغايرة لتلك القائمة فى ركن مسجد عمرو بالقسطاط ، فيما بعد قال أحد مساعديه من أبناء الناحية وكان قد تردد على مصر كثيراً ، ومدخله إليها مدينة الإسكندرية ، إن الرجل إنما اقتدى المنارة الكبرى التى بناها ذو القرنين ، وتعد من عجائب الدنيا السبع غير أن ما أعلنه السكندرى من إضافة متفردة جعلت الصومعة متميزة بخاصية لا توجد إلا فيها ، استوحاها مما سمعه يتردد عن مدينة الغرب المتنقلة . ذلك أنها عكس كل بنيان فى المعمور ، كلما ابتعد عنها الإنسان ونأى كلما رآها البصر أطول وأسمى ، يستوى الأمر بالنسبة للقادم من بعد قصى ، أو الخارج من المدينة ، المولى بعيداً عنها . وسيظل تعيين ارتفاعها صعباً ، غير مدرك بالدقة ، بحيث تبدو لكل متطلع فى حجم مغاير ، لمئات السنين المقبلة ستظل أعلى نقطة فى البر المحيط والبحر الواقع على مسيرة يوم وليلة ، ما من منارة كهذه إلا فى مدينة الغرب !

بمجرد أن أبدى السكندرى خطته ، وجلا أمره ، جاهر الجهنى بما أضمره ، أو بما قرره عند رؤية النموذج ، قال إنه يقترح تعديل وضع الصومعة من الركن الأيمن إلى منتصف السور ، فإذا وافقه صاحبه السكندرى على ذلك ، ستظلها غمامة بيضاء خفيفة ، حريرية الطلع ، طوال أيام السنة ، صيفا قائظاً أو شتاءً زمهريراً ، ربيعاً ناعماً أو خريفاً تعصف بأيامه رياح الشمال العاتية ، لا يمكن لبصر متطلع إليها إلا أن يرى ندف الغمام الأبيض وخلفها زرقة السماء الصافية ، هكذا تتفرد بما لا يوجد حتى فى مدينة الغرب .

رغم أن عقبة حافظ على جدية ملامحه وجمودها طوال تحديقه فى النموذج المصغر ، والذي يمكن من خلاله عد أحجار المسجد الذى لم يقم بعد ، حتى أنه لمح مع التدقيق كتابة بالقلم الغريب ، عندما سأل ، قال السكندرى ، هذه حجارة من بقايا مباني كانت هناك يوماً ، قال عقبة متسائلاً :

وكيف تقرأ هذه الكتابة ؟

أجابه السكندرى :

«عكس لساننا .. من اليسار إلى اليمين» .

قال عقبة :

«أقلبوا الأحجار أذن ، حتى يكون شكل لاغير ..» .

ثم أفضى بالاستفسارات والحيرة تطوى ملامحه :

«هل يمكنكما اخبارى بالمسافة الفاصلة بين مدينتنا الجديدة ومدينة الغرب التى حدث عنها الثقة ..» .

«هل باستطاعتكما إطلاعى على مدة تعلق الغمامة وملازمتها الصومعة؟» .

ثم قال :

«إلى متى يبقى هذا المسجد ؟» .

تطلع إليه المصرى ، وأطرق الجهنى ، خلا وجه كليهما من أى تعبير، وعلى مهل ، فى لحظة واحدة اتجها على مهل إلى الفضاء القسيح ، عند نقطة فى الفراغ علقت غمامة بيضاء ، دانية قصية ، ظلها رجراج، مانع على الأرض .

حكاية

هــوـدج



أقضيه أمرها وقلقل شأنه، شهران انقضيا منذ وصولها وعقده عليها، لكنه لم يمسهما ، لم يقربها، رغم أنها رهن إشارته، وطوع بنانه، إذا أوماً تجيبه، وإذا تطلع تنتنى إليه ملبية، وإذا أطرق فى حضورها تفهم عنه، لكنها بعيدة ماتزال، جد قصية رغم أنها فى المتناول، غير أنه لا يريد لها مطوية، مغلقة الشفرات، صادة، دافعة وإن بدا منها غير ذلك.

الأمر دقيق، لكنه ماض ، لا يثنيه ما يلقاه منها والصبر يكون جميلاً محتملاً إذا اقترن بالسعى، والرغبة فى الوصول. يسأله المقربون، من تتيح لهم درجات اقترابهم منه عما يشغله، عما يجمد نظرتة لحظة اتجاهه إلى نقطة ما، أو استماعه إلى شخص بعينه، لكنه لا يفضى، لا يلمح، الأمر نزال يصعب البوح به، هو الأمر بأحكام الله، من تطيعه الجموع، ومن ينتظر الكافة رفة رمشه، وظلال التعابير على وجهه ، هو السارى، النافذ ما بين الثرى والثريا، ما بين الظل وأصله، هو من هو تضعضع أمره تلك الببوية..

تلك ؟

أهكذا يقترن الاستفهام الممتزج باستنكار خفى، رصين ، عند ورود فكره عليها، عند طوافه بصورتها؟، إنها الملتقى، مجمع نساء الأرض، خلاصتهن، وفوحهن الأقصى . عليه أن يلزم حتى إذا خطرت له عند انفراده، عند انقطاعه عن الكافة واستحضارها بالمخيلة، بين المحيطين به، المهتمين بشئونه وتديير ما يتعلق به، نفر لهم حضور قديم فى القصر، يقفون على مقربة إذا التقى بواحد من أركان الدولة، أو قاصد ملك أجنبى أو وافد عليه من هنا أو هناك أو طالب حاجة أو متول شئنا، هؤلاء مدربون منذ بدء يفاعتهم على الإحساس به، مراقبة انفعالاته، ورفرفات ملامحه، حتى إذا بدا ضيق سارعوا، وإذا لاح وهن تدخلوا، وإذا بدر ملال من الإصغاء إلى متحدث أوقفوه، وإذا تجاوز أحدهم الحد ولو مقدار شعرة سارعوا.

أيهما الآخر، ولم يعد له من الأمر شيء ، فلا تفك أسره إلا بإذنها، ويعد ترطيبه بالماء الزلال، الحلال.

لم يعرف مثل ذلك في غيرها، ومنذ تلك الليلة يبحث عنها في كل من التقى بهن، جركسية كانت أو سودانية ، صقلية أو هندية، مصرية أو من بنات الترك، اختلفت ولم تظهر ، حتى قيل إن أحد الخصوم دسها عليه ليعتاد مالا يمكن الإحاطة به، ليهوى النادر، صعب الشبيه، صحيح أنه أدرك منذ بداية مراحله أن لكل أنثى أريجها، وأن الملمح لا يتكرر، لكن لو اقترنت بالإقامة لتغير حاله، وتبدل أمره ، ذلك أنه منذ أن عرفها ، واحتوته الجنوة الموقدة ، صار إلى بحث دحوب في البوادي، أطلق عيونه، وتتبع المصادر، من صحراء مصر الشرقية ، إلى الغربية، إلى مفازة سيناء وحتى جبل الطور والحجاز وغرباً إلى طبرق وصحاري تونس وامتدادات بلاد الغرب، حتى جاءت الأدلة بخبرها، عجوز من الرحل المتنقلين المعروفين بالفجر أو النور ولهم في بلاد الصعيد سرحات وجولات. خلال إحداها مروا بسوق يقام في مكان معلوم قرب منازل جهينة الكائنة عند آخر الحد المزروع جهة الغرب، يليها الصحراء الممتدة إلى أفق سحيق ، لا يقصدها أحد ولا يجيء منها أحد، وإذا تاه فيها الجمل أو شرد لا يتعقبه أحد. لم تدل الغجرية بأوصاف محددة، لكنها قالت ما قدر على صوغه لسانها، إنها ليس مثلها مثل، ولا يمكن الإحاطة بمكنونها، ما خفى عنه وما ظهر ، وفيما بعد فهم الأمر ما تعنيه المرأة، وعلم أنها لم تر من البدوية إلا عينيها وقوامها.

عندما دخل عليها بعد وصولها بيوم واحد كانت قاعدة، كأنها واقفة، مسومة، غصينية، لها توثب ومنها نبع، كانت ترتدى خمار البدويات الأتم، محبوبك، مزوم حول فمها وأنفها، نغم يسرى من الفراغ الأشم الذي يوجده تقدم أنفها المنمق، عصابتها لا تتجاوز العينين الشاهدين على روعة الكون ومعجزة امتداده ليطل عليه بصرها الحاوي.

عينان لم يعرف مثلهما ، سيشغل تطلعهما إليه علامة فارقة في مسيرته
الدنيوية، ومنهما سيتلقى اشاراتها الداخلية، فيسعد أو يشقى أو يتوهم أو
يتأكد .

ظهورهما أوجز ما لا يبدو منها، بروزهما لا يمكن اعتباره جحوظاً، إنما
تجسد وتعيين فكأنهما النموذج الأول الذى انحدرت منه سائر العيون والرؤى، ما
بينهما تلميح إلى بشرتها، درجة من البياض الشاهق، الضرعى، حليبي، بياضها
مجمع، فإذا شاء رأى فيه سمرة، أو شقرة ، أو صهباء، أو حمرة أو صفرة
وترددات علوية فيها أصدااء فيروزية، وضعية طلتها تشى بموسيقية عنقها السارح،
الغصنى، السيسباني.

لم يدم مكثه بحضرتها إلا وقتاً معلوماً، رسائلها غزيرة، حاوية، أرتد إلى
موضعه المثل على أفق العباد ومحل سعيهم ليستعيد على مهل ما رأى وما أوصى
إليه رغم أن ما تبادلاه مجرد ايماءات، كانت ماثلة أمامه ، مصغية، متاهة للتلبية،
فلو شاء لقطف، ولو تقدم لجنى، لكن ثمة ما لا يمكن تعيينه أو تحديده حاشه عن
ذلك، أحياناً يكون تمام تأجيل المتعة أجمل من النيل، من تحققها، حكى له أمير من
بلاد الغرب عن سجنه مدة في زنزانة لا يمكنه التحرك فيها إلا نصف خطوة إلى
الإمام ومثلها إلى الخلف ، تداخل عليه الليل والنهار حتى ضاعت الفروق بين
الضدين، وحرموه أنواع الطعام التى اعتادها ، فلم يملأ معدته إلا بما جهله، حتى
أتاه الحارس يوماً بتفاحة ، مستديرة، صفرتها مغيبية، صلابتها فى ليونتها،
تناولها، شمها، تنسمها، لجلج فيما ينبعث منها، لكنه لم يقضمها، أبقاها، لو أكلها
سيفقددها، لن ينسى ذلك أبداً، إيقاع صوت الأمير وهو يقول بامتناعه ولم يسأله
ليتم معرفته، هل ألتهمها فيما بعد أم احتفظ بها؟ الأمر مغاير بالنسبة للبديهة التى
حلت به. فى اللحظات الأولى التى تلت قطفة المشاهدة الأولى سعى إلى الانفراد
ليمكنه الاستيعاب ، رغم تعدد ما رأى، وما عاين، فكأنه يطالع اللبنة الأولى.
القطعة الأولى التى انحدر منها سائر الخفق.

عينان غازيتان ، نغميتان ، شروقيتان وغروبيتان معاً ، فيهما الامتتان والعتاب متجاوران ، بقدر ما تضجان بالفرح المكنون تومئان في الوقت عينه بأسى شفيف باعث للحوية، مستنفر للقدرة، غير محبط، تتخلله أحزان شهبية، لم يغضب ولم يتعجل، إنها الأويقات المطالع، صعوبة البداية، صحيح أنها المعرزة، المدللة، المرغوبة في قصر الخليفة الآن. لها التسيد والمكنة، غير أن تبديل الأحوال وعمر، فما البال إذا اتصل الأمر بمفارقة الأهل، والانتقال من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر، غير أن حدسه حاد، وتقديره اختل.

ما بدر منها عند لقائهما التالي شحذه وأجج اهتمامه، عندما اكتمل انفرادها وقعد في مواجهتها وسبح باسم الله، خالق هذا الجمال، ومبدع تكوينها الفرد، استسلم للحظات الكشف تلك، أروع ما تحويه الصلة، عندما يسعى كل طرف باتجاه الآخر، يتبينه، يحاول إدراك خصائصه ، يستوعب أبجديته.

كلاهما معاً ، لا هو خليفة متول على الخلق، متصرف فيهم، مدير لأموهم. ولا هي بدوية . غريبة. ما يريده إقامة صلة وليس إشباع رغبة، فأت زمن التهذئة باحتواء الجسد ، التمكن الأتم، المرضي، لا يكون إلا بامتزاج ما لا يرى. لا يذكر عدد الأبقار اللواتي افتضهن، تتداخل الملامح عنده، عندما اكتشف منذ سنوات ما يقمن به القيان المدربات، الخبرات أبطلهن عن ذلك، كان ذلك عرفاً مستقراً منذ عهود الأجداد المطهرين، بعد أن تستقر الجارية في القصر، يجرى إعدادها وتجهيزها. تمريرها عبر بخار العطور العنبرية أو المسكية، ما يفضلها ولي الأمر، تجري الأمور كلها طبقاً لما يحبه ويهواه ، تحكى إحداهن عن عمه الذي غضب عندما وجد الجارية القبرصية متوفية، ملساء ، كان يحب بقاء الشعر وتحسسسه ويكشف حلقة أو اقتلاعه بأنه شبيه بالسليخ، أما جده الوثائق فاعتاد أن يفتض بكراً ملساء كل خميس، كان يبيت العيون يستدل على كل ذات أسنان فلجاء وشفقتين ونويتين. يرسل ليخطبها أو يشتريها، تصل قبل الخميس إلى القصر، يجرى

دعكها وتطيببها، وفي الليلة المعينة تجلس معها القيمة ذات الخبرة، تنصحبها بوضع معين، ألا تقاوم ، أن تكون طوعه تاماً، فإذا شاء أتاها من أمام أو من خلف، تصحبها إلى حجرة الملابس، تشرف على ارتدائها الثوب الموصلى الشفاف، لا شيء تحته ، رغم أنه يلمح أكثر مما يصرح إلا أنه يبرز ولا يخفى، كان رحمه الله يدخل إلى الغرفة صامتاً. يقبل على من أنته طوعاً أو غصباً فلا ينطق كلمة، ولا يتبادل جملة. لا يبدي رسماً أو إشارة . وبمجرد إفراغه ينصرف إلى الحمام المجاور ، وتبقى المفتضة ساعة على الأقل بمفردها تماماً، فى غرفة لا نوافذ لها ولا مخارج بادية. تدخل القيمة لتبدي الترفق والعناية، ولتسألها عما إذا كانت راغبة فى الإقامة بالقصر، أو العودة إلى أهلها على أن يصرف لها فى تلك الحالة مقدار معلوم يكفل أمرها وشئون مولودها حتى يشب ويسعى. تعتبر مطلقة الخليفة، لكن.. لا يحق لها الزواج أبداً، أيهما تقبل ؟ لا بد من حسم أمرها تلك الليلة.

عندما ألم بما كان يجرى أبطل ذلك، لم يبق إلا على عيونه التى تسعى فى البادية، وما تلك البدوية إلا ثمار سعيهم. ليتته توصل إليها بنفسه، ولكنه يعرف تماماً أن الإنسان لا يمكن أن يلم بكافة ما يرغب، ها هى مائتة أمامه، مصغية، فليبداً طريقه صوبها، يعلم أنه لو أقدم على تجريدتها الآن لما قاومت، لما .. واستدارت وساعدت ، لكنه أحجم، لو أنها أمامه منذ عشر سنوات لاختلف أمره، وما نأى كثيراً عن تصرف جده الوثاق، لكنه الآن يفضل أن يصغى، وأن يرى، أن يتلمس ، أن ينفذ على مهل إلى أدق خبايا الروح.

مالك ؟

ياه ، أى شكاية صامتة؟ تماماً مثل حضورها الذى لم يعرف مثله، يبدو اللوم فى عينيها والأسى ، يلمس نقتها مداعباً .

ما بك ؟

تهز رأسها، تميل إلى الأمام مطرقة، لم يقدر على منع نظراته من التجوال، متمسكاً مشارف قوامها، لم يالف مثل ذلك من قبل، لم تكن أنثى. إنما بولة قائمة

بذاتها ، حصن لا يسفر عما بداخله، بأسقة، متعددة الثمار ، غير أنها قصية، أمامه ونائية عنه، هذا ما أدركه تلك الليلة وما انتبه إليه، إنها بعيدة بالروح أضعاف قريبها بالحس، عندما خلا إلى نفسه وانفرد ، يؤثر النوم بمفرده، يتحرر تماما فى هذا الحيز غير الفسيح ، يتمدد فوق فراش به بعض صلابة هذا ما نصح به طبيبه القبطى، البيوسة أفضل، الجدران محكمة لا تنفذ منها الأصوات ، والستائر مسدلة لا تسمح بمرور الأضواء إذا شاء وأطل على الحديقة التالية، فى لحظات ما قبل نعاسه، تراءت له فأدرك أنه يرغبها، وأنه فى تعلق متين..

خاب سعيه وحادت الجهود عن مساراتها، كل ما دبره من الدخول فى أوقات معلومة ، وبسط الأنواع النادرة من الكهرمان النادر الذى عرف تفضيلها له وإيثارها حباته حول جيدها ومعصميهها.. مما عرف عنها طول تأملها لحباته وتعريضها للضوء، خاصة إذا امتزجت بالشوائب الأزلية المتدرجة فى ألوانها لكنها محتواة فى الصفرة الخصية العذبة، أرسل إلى أخميم، أفضل ما أتمته أنوالها من نسيج الحرير الذى يربى من أجل استخلاصه بود القز فى البرابى المهجورة التى تحرسها أرصاد الجن. وخاطب ولاة الغرب، أفريقية وتلمسان وفاس، لإمداده بفيض من بلح كهرمانى الطلع، شفاف كأنه صيغ من أنقى أنواع عصم النحل الجبلى، لا تطرحه إلا شجيرات نخل نادرة فى الواحات القصية، كانت تقطر بالتمر وحليب النوق، كما جاء أهل ظفار وحضرموت بالعطور المستخلصة من الورد الجبلى والمسك البحرى وعنبر الحيتان النفثة، لكنها لم تأبه بالنذر الفارسى ، ولا بالزجاج الصقلى.

صحيح أنها كانت تبدى المنه، وتطلق آهة اعجابها، لكنها سرعان ما تعود إلى صمتها، إلى بعدها السحيق فى قربها منه، وتظل منحنية متخذة وضع التلبية، معلنة قابليتها لكل ما يريده منه، لكنه لا يقدم، يطيل النظر إليها. يتسمها، يخفض ذاته تجاهها، غير أنها بقيت مستعصية . شرع أكثر من مرة فى الفعل المباحث، الجذب والإحاطة، لكنه أحجم بانذلاً الطاقة الكبح وليس لإطلاق الخلق.

أحياناً تتألق عيناها بوسن العرفان، وانبعاثات الرققة، لكنها إشارات غير كافية، يأمن عندما يتأملها ، تتبعه خفقات قلبه إذ تتجوهر مكان من الحسن للبصر المحقق.

لم يدخل عليها إلا منبئاً بقدومه ، لم يباغتها كما كان يفعل مع بعض جواريه خاصة صغار السن ، لم يرقبها خفية كما اعتاد فترة ماضية، لم تكن صموتاً عن جهل أو قلة معرفة، استوثق حفظها أشعاراً كثيرة، وقدرتها على الغناء. لكنه لم يطلب منها الإصغاء، كان يرغب في نزوع منها إليه حتى في الأشياء الصغيرة، بل إن دقائق الأمور تلك هي المحور والمرتكز. لم يدر إلى متى استمرار هذا الحال الذي لم تلج أى بادرة تنبئ بوهنه وبدء تبدله ، غير أن الأيام التي لا تبقى على حال بدأت عملها ولكن إلى حيث لا يرغب، إذ رصد صفرة الجذب في عينيها، ونحولاً بدأ وانكسارا ممتزجا بلوم . أقضه ذلك واعشوشب فراغه الأثير فجافاه الرقاد، عند حد معين لابد من البوح، هكذا أفضى إلى طبيبه ابن أسحق، طلب منه أن يتفحصها، أن يجس نبضها، أن يصفى إلى زفيرها، إلى شهيقها، لعله يحقق أمراً، بعد خلوة دقق خلالها ابن أسحق واستطلع . أوصى بشجر النعناع الجاف المسحوق المغلى فى ماء النيل، هذا ما أعلنه أمام القينة والوصيفات ، لكنه عندما خلا إلى الأمر أفضى إليه بأمر وأخفى آخر أما ما صرح به فسوء إقامتها، كافة ما يحيط بها من وثارة لا يريحها، إنما يقضقض رقدتها. ويقلقل دخالها . أمضت عمرها كله فى البادية، تسرح الطرف فى خلاء لم يوضع له حد ، تستنشق هواء قادما من المنبع رأساً. إن الجدران قاسية عليها مهما كانت كسوتها. رخام رومى أو حرير اخميمى، أطباق الفضة المطاية بالذهب، المنقوشة، الممهورة بشعار الخلافة تبطل شهيتها، إنها فى حاجة إلى الخلاء ، أن تقيم الصلة مع السماء بدون وسيط، حجراً كان أو بشراً، أن تدرك الأفق بتخارها عند كل طلة، أن تتهودج، هذا دواء ناجع، وبيان لا يقدر أدق القوم عن إدراكه، لابد من الامتنال، ليس من أجل دواعي المرام، لكن لصون المدبوبة وإقصاء عوامل الهلاك .

للتدبير رجال، يعملون أفكارهم، يدركون المرام من كافة الجهات، تفحصوا
الأنحاء وعاد شادى المعمار المعلم بن المحسنى الرشيدى ليبسط بين يدى الخليفة
ما انتهى إليه ، ليس بالقول ، إنما بالرسم والتجسيم .

لن يخرج إلى بعيد، هناك فى جزيرة الروضة، عند طرفها الجنوبي، حيث النيل
فى أعرض حالاته ، ما بين بر الجزيرة وبر القسطنطينية، إلى الشرق قرعه وإلى الغرب
مجره السارى، يليه الشاطئ المنطلق عبر بر الجزيرة حتى بلوغ الأفق، لا يقوم فى
المواجهة إلا الأهرام وإذا دقق مليح البصر سيرى صنم أبو الهول الذى يواجهه
شبيهه الجاثم قرب المقطم، إذا مد بينهما خيطا لم تحد استقامته مقدار شعرة.

الخلاء المنجم بالأهرام القديمة، العلامة فى طرف الجزيرة سيقوم البناء ،
هودج معلق ، تكوينه يسمح بالاشراف على الخلاء، بل إن النظر منه يخضع
المساحات ويطلق البصر إلى مده. إذا استقرت فى أى جزء منه فإن اهتزازات
تعبرها، تهددها، كأنها تقيم فوق ظهر بعير، وإذا شاعت فكأنها معلقة، لا يكون
الفراغ أمامها فقط، إنما تحتها وفوقها منه وله تهب رياح تخصه، تصفر وتأتى
بذرات الرمال، وعلى امتداد الرقعة المحيطة تتوهج حرارة الشمس بما تبذله فى
خضم الصحارى التى يعبرها البدر ولا يقدر على الإقامة بها. بل إن تدبيراً تم
عمله لتوفير الروائح والنفحات التى اعتادتها وهذا غير معهود ، لم يتفق لأحد من
قبل، ولم يقدم على مثله. أمران اقتضيا جهداً، توفير كل ما ألفته من أريج وعطر،
والثانى رعاية فساتل النخيل التى أرسلوا فى إحضارها من بلاد الغرب، لرؤيتها
التمر المفضل متديلاً من سوباطاته، أعمل المحسنى تدبيره وأظهر الهمة فى
الإطلاع على ما تناقلته المخطوطات القديمة، والمرويات السائرة عن غرائب البنيان،
ألم بكافة ما قيل عن الأهرام والحدائق المعلقة وبستان الخضر ومدن الليل
وعمارات النهار. وأقسم بإضافة أعجوبة لا مثيل لها، إذا فئيت بقيت بذكرها. وإذا
بادت أو اندثرت احتوتها الأمثال المتناقلة، أطلع الأمر على كافة ما شرع فيه وما
أضممره، كان يخط رسالتين بما يجرى ويتم. الأولى فى مطلع اليوم والثانية مع

انحلال آخر ضوء، فى كل لقاء لم يكن عسيراً عليه ملاحظة الأمر المتعاضم واستغراق الخليفة فى يمها رغم قدرته الهائلة على إقصاء ما يعتمل داخله عن ملامح وجهه، لكن نبرات الصوت كاشفة، واتجاه النظرات دال، وتصاعد المطالب والسعى إلى التفرد، وبالرغم من قصده ذلك ، إلا أن ما طلبه الأمر أدهشه وحيره!

الحجارة من المكان الذى وفدت فيه إلى الكون المنظور، فى ذلك اليوم المعلوم، المقدر، كانت قبيلتها ناحية الغرب، فى موضع يمكن منه رؤية البحر، يبدو فيه الموج كالفيروز المصهور، المتدافع ، المصبود عن الشاطئ، الرمال اللازمة جاؤا بها من هذا الموضع، لم يكن ثمة محجر قريب، أقرب مصدر يقع فى جبل الطير، الطريق إليه غير ممهد، أرسلوا إليه من رتبة واقتطع ما يكفى ضعفى البنيان، حجر أيضا أملىس لا مثيل له، لم تعرفه سائر المدن المصرية والدور المبنية. وكان ذلك لا يكفى فوجىء المحسنى بالأمر يطلب منه أن يعجن الملائق اللاصق للأحجار، الواصل بينها باللين الغائر، وأن تخلط مواد الطلاء، بعسل النحل الطازج، وأن تستحضر الألوان من الفواكه النضرة ذات العلاقة، والأعشاب النادرة المتوحدة فى البرية، أراد لها أن تتابع البناء، أن تشهد ظهوره خطوة خطوة ولحظة إثر لحظة، كان معنياً برصد أى إشارة دالة، انتقل إليه سرورها، استبشر خيراً بتعاقب انفعالاتها، وسرحاتها فى الجزيرة، غير أن تحديد معالم البنيان لم يكن سهلاً أو ميسوراً، العناصر متداخلة والمواد متشابهة . الشغل عمال والقوافل وافدة، وكان العالمون بأمور الهندسة يمرون قرب الجزيرة ويتطلعون إلى ما يجرى ولا يمكن لأعتاهم خبرة أن يستنتج ما سيكون. رغم توثبها وإظهارها الدهشة الطفولية، خاصة عندما وقفت على عطر البلح الذى استخلص من التمر لتعطير الفراغ به وهذا ما لم يعهد مثله أو يسمع به أحد، غير أن اللحظة الموجودة لم تلح بعد، يعرف تماماً أنبهار الأنثى بما يصدر عن تهواه وتهيم به، وما تظهره عند تلقى علامات المحبة من هدايا ثمينة، أو أفعال غير مطروقة. أو أشعار منظومة ، أو

سطور منتشرة، كلهن يؤثرن الدلائل والعلامات حتى لو كن غير متعلقات أو خلواً من الرغبة، وهى رغم تفريدها الضاج اللاقط، إلا أنها ليست استثناء، أظهرت سروراً لكنه عابر، وأبدت دهشتها الطفولية، رآها فى أقصى درجاتها، توثبت حتى كاد يخرج عن وقار الخلافة، لكنه أرجأ هذا كله إلى الحين الذى يدرك ويوقن من إحاطته بها، وإدراكه لعميمها، حتى الشروع فى البناء، واتصال العمل فيه لم يبلغ منها ما يهدئه ما يسعى إليه، وحتى ذلك الحين تحمل بمفرده تبعات نزوعه، ولم يبيع بما يثقله لأقرب خاصة، رغم سعى بعضهم إلى التخفيف، لكنه حاد عن الإطار وأبدى الجفوة لمن أقدم على استحياء حذر، لم يبيع، لم ينطق مع علمه الأتم أن العاشق يلزم له الإسرار إلى من يثق به. فى ذلك تخفيف وتلطيف، لم يعرف طوال عمره وتقلبه عبر أحوال شتى وحدة كتلك التى أحاطته وغمرته، لم يخفف منها ذلك الجمع القريب، البعيد. وهذه الجهود المستنفرة لتلبية كافة ما يرغب ويطلب، كان يتابع تنفيذ الهودج ويبدى أقصى العناية، يومياً يركب إلى الجزيرة على الأقل مرة، وربما فاجأ العاملين ليلاً، يتفقد ويتمعن على أنوار المشاعل، يمكن القول إن شغله كله صار محوره ويؤرته، كان موقناً أنه عند لحظة معينة سوف يحيط بها، يمتزج بها تماماً، وأن شرودها هذا سينتهى عند حد معين، لن تستمر بعيدة فى قربها منه، غريب أمرها حقاً، فلماذا لم يتفق هذا لغيرها من قبل؟ ظهورها جانباً لحين موجه، أسر، يستولى عليه، ويرقق سائر الموجودات، ألف نظراتها وعد فى حد ذاته، بقدر سعيه نحوه ينأى عنه، عند لحظة محددة اختلط عليه الأمر، حتى أنه لا يجد إجابة شافية إذا واجه نفسه بالسؤال، لماذا سعى إلى تشييد الهودج؟ لماذا أقدم على استحضار مفردات عالمها بمكانه وزمانه رغم أنه غير قادر على استعادة قبس من لحظة مولية من أيامه هو؟ لم تطلب ولم تبد أى رغبة، إنما سعى إلى إرضائها، هل أراد الفرار من مستحيل يصعب بلوغه إلى مستحيل لا يمكن إدراكه؟

لا إجابة شافية مع أن البنيان على وشك.

طلب المحسنى شاد العمائر إيقاف مرور الإنسان والنواب وسائر ما يسعى ويتحرك عدا الطير فى الهواء، والأسماك فى النهر، إبطال المشى فى كافة الطرق القريبة التى يمكن منها رؤية ما يجرى ولو من بعيد، كما صدرت أوامر إلى القوارب التى تسهل عبور النيل، وأبطل صعود المؤننين إلى المنائر، وأصحاب أبراج الحمام المتابعين لحركة أسرابهم، الملوحين بأعلامهم. منع تسلق الأهرام من القادريين عليه أو الزانرين من بعيد، كذلك طلوع النخيل المشرف. أو بلوغ نرى الأشجار.

فى اللحظة المحددة بعناية المنجمين المهرة طارت أسراب الحمام بالبطائق الحاوية للرسائل إلى الشام والجزيرة وبلاد الغرب، مخبرة باكتمال الهودج، بظهور عجيبه شامنة لا يمكن تجاهل سريانها ومثولها. من مقر الإقامة خرج بصحبته يتقدمه الحرس المقرب، الملازم له فى اللحظات الحميمية، وعدد قليل من الوصيفات، والقائمين على الخدمة الضرورية، كان الصباح الحال بالكون مبشراً ومشيراً، مس من برودة، لكنها منعشة مبرزة للمطلع، للبدء الكونى، أول أمس دخل عليه الوزير المختص بالدقائق وهذا منصب لا مثيل له فى سائر الدول والممالك، حيث يقع الاختيار على رجل كبير السن، حاضر الذهن، وافر العزم، يمكنه الدخول على الخليفة فى أى وقت ليلاً أو نهاراً، وإذا كان ما لديه حرج يحق له إيقافه من السبات أو إنهاء خلوته مع من يهوى، إنه الوحيد فى الدولة الذى يمكنه إبلاغ الخليفة بأخطر الأمور وأدقها وأرهقها، ما لا يجرؤ البعض على مجرد التفوه به سراً إلى نوابهم وألهم.

جاءه طالباً الخلوة فأمر بها. مال عليه لينبئه أن العيون والأرصاد تمكنتوا من تحديد الشخص الذى تهواه البدوية.

من ؟

ابن عم لها

اسمه ؟

المياح

صفاته ؟

يمثلها عمراً، مشهور عنه قدرته على تلقيح النخيل في زمن السفاد، له إحاطة بكافة ما يتعلق بالنخيل ، يرسلون في طلبه لمداواتها إذا ظهر عطيب، أو حل داء خفى.

أين الآن ؟

طافش، هائم على وجهه ، ربما في الواحات القصية، أو لاجئ مستجير بأهل النوبة، وربما يجوس بالقرب من القصر، لا مكان يعرف له، اختفى منذ خروجها تنبية للرغبة العلوية التي لا يمكن ردها أو منعها، أدرك أنه مطلوب يوماً ما .

لم تكن مهمة المبلغ مقصورة على الافضاء بما عنده فقط، أحياناً يبدى المشورة، ولأنه أول من تحدث في الشأن أصغى الأمر إليه وباح بقليل من كثير عنه، لم يعرف الوحدة والعزلة في حياته كما كابدها منذ أن وصلت تلك البدوية الفارحة، إنه محاط بالخدم والحرس وأركان الدولة والندماء على أهبة للتبعية، لكنه بعيد، وأصعب الوحدة ما كان بين القوم، يراهم البصر والخواطر تحول وبعض الإنسان يعوق بعضه، العاشق لا بد له من الحديث، خاصة إذا لم يقع التوحد بالمحبوب، لاحت الفرصة فلم يضيعها، تطلع إلى المبلغ بوهن مستفسراً عن الممكن، خاصة أن الهودج أوشك على التمام وبعد الزيارة الأولى لاحظ فتورها واستنفاقها الرحيل غير المرئي، واستحالتها .

قال المبلغ إن ملكاً من ملوك الهند استعصت عليه جارية لتعلقها بعاشق يقيم في مدينتها، أرسل في طلبه، وأتاح لهما الخلوة، غير أنه دس السم البطيء للحبيب المتيم، المرغوب، شيئاً فشيئاً فشا المرض في ظاهره وباطنه، راح ينطفيء على مرأى منها ومسمع ، إلى أن استحال إلى عبء ثقيل بعد أن كان جسراً متيناً

وربوة زاهية، وعندما ذوى تماما كان التعلق قد تقلقل، والمحبة رغم الحزن تهن
شيتا فشيئا، وفي اللخطة المواتية نفذ الملك بلفظه وجميل عنايته فتمكن وأرسى.

قال المبلغ إن أميرا من رجال الصين ، كان متوليا على ناحية شاسعة
استعصت عليه مغنية ، ضارية للدف ، عازفة على الجناك ، ولما أدرك تعلقها بمغن
من ناحية أخرى ، أطلق الأعوان فى أثره ، رصد الجائزة المغرية للابقاع به ، وبعد
أربعة عشر شهرا أوقعوا به ، وأرسلوه اليه محبوسا فى قفص من حديد ، لكن
البنية الهيفاء ناحت عليه ولم ينفع معها جهد أو سعى .

قال المبلغ إن ملكا فارسياً قديماً، تأكد من عشق امرأته المحبوبة، المقربة
لغيره، خلا بها فى مكان قصى، وأجهز عليها وهو يرثيها ثم قال فيما تلى ذلك إن
امتلاك الشيء يكون أحيانا فى فقدّه !

ليس لها أن تبدى عذراً

تعرف الأخبار الأولى والوقائع المتينة وغرائب ما جرى فى الأزمنة القديمة، ما
شيدده الأمر من أجلها مؤثر، جليل وعجيب ، من أجلها هذا الهودج . ليس من
قماش وإن كان يبدو من بعيد كذلك، معلق فى الفراغ، هكذا يراه القصى والدانى،
ما يستند إليه خفى، أساسه بعيد، حساباته لم تطرق من قبل، كل ما فيه متعلق
بها فإذا رغبت فى خلاء امتد أمامها فسيحا، طليقا، لا يحده حتى أفق، وإذا اشتد
القيظ أو البرد تتبع الحرارة ما يريحها ويهدئ أحوالها، كذلك درجة الضوء، إن
شاعت توهج حتى يلغى الظلال وإن ضاقت خفت وبهت، وإن أرادت أعتم فى ذروة
النهار، تتعاقب الروائح طبقاً للأوقات التى عهدت والمصادر التى اعتادت ، بدءا من
خواص الرمال فى الأحوال المتعاقبة . راكدة أو سافية . ذارية أو ... إلى رائحة
الخبيز من دقيق مخلوط بماء ، وخميرة وما قبل دخول الفرن، مراحل الوقيد
وخروج الأرغفة زاهية، متفجرة بالمذاق الشهى، هبوب النسيمات قبل الغروب
وسرحات الرياح بين المضارب، وعبق المياه فى قاع البئر، أو الأريج المصاحب

لتدفقها من العيون الباردة أو الساخنة، يسرى هذا على الأصوات، كافة ما عرفته من هديل حمام أو ثغاء شاة أو حنين نوق أو عواء ذئب فى الليالى أو هسيس جراد عابر.

يهتز الهودج إذا شاعت، ويثبت عندما تريد. يستقيم إذا وجدت راحتها فى ذلك ويميل لحظة رغبتها فى الانتقال القديم. فكأنه واقع الآن .

كيف تم تدبير الأمر ؟

كيف جرى هذا كله ؟ من أين أمكنهم توفير اللبن والعسل وماء الورد للخلط بمواد البناء بدلا من المياه، كيف جهزوا تلك الأسقف التى يمكنها أن تتراجع بمجرد ورود الخاطرة. بحيث ينفذ بصرها إلى السماء مباشرة.

الألوان طوعها، كافة درجات الرمال الصفراوية فى لحظات النهار المختلفة، صيفية خلو من الغمام أو شتوية رمادية أو ربيعية جاثية تحت الخماسين، فى لحظة تختفى ألوان الأشجار والأطياف وأمواج النيل والضفاف وأطياف السعف فى الأعلى. تبدو الكثبان والتلال والأمواج المتوالية من الذرات المتجاورة، تحتوى الصحراء، تطاوعها اللانهاية التى يصارعها قومها منذ حقب لا تقدر على تحديدها هذا ما لم يجل ربما فى خاطر المصمم المبهر لهذا البنيان الأعجوبة، لم ترغب إلا فى خلاء ممتد بدلا من جدران القصور الشاهقة ، ونوافذ الغرف التى تحدد وتقيد أكثر مما تكشف وترشد. لم تتصور قط أنها ستحتوى الفراغ عينه، لكن ..

يستعد الأمر لمغادرة القصر الشرقى، ميمماً صوب الهودج القائم عند الحد الغربى، يفضى إلى مدبر القصور بأمره ، ما يرغبه ألا يوجد أى إنسان لحظة وصوله، حتى الخصيان الملازمين له. الواقفين بأبواب الغرف المخصصة لنومه.

لا يريد وجود أى إنسان، ذكر أو أنثى فى الجزيرة.

يخرج عند الأصيل، بمجرد عبوره الخليج، ينبسط الخلاء منطلقاً ، فسيحاً، يلوح الهودج للمحقق، المدقق عبر المسافة الفاصلة، معلقاً، ما يحيطه فراغ، لا صلة له بما فوقه أو تحته ، متكوكب فى ضوء الأصيل السارى.

مصطلح

أساس



لا تقوم عمارة بدون أساس .

حقيقة مدركة من قديم ، وإن غاب عن الفارقين فى التفاصيل جوهرها ومعناها .

كل بنيان ظاهر ، لكن أساسه مدفون ، غائب .

إذن شرط السفور والامتثال والقيام هو الغياب ، وإن لم يدفن الأساس جيدا لما علا البنيان ، وعلى قدر متانة الغائب يكون مقدار الظاهر .

الأمر بسيط ، ميسور ، فإذا أردنا إقامة بنيان من ستة طوابق ، يكون الخفى منه محتويا لقدرة وطاقة توازى ما ينتصب فى الفراغ ، فإذا اختل التوازن الدقيق بين ما هو هناك ، وما نراه هنا ، يخيب المسعى ويجرى الانهيار فى اللحظة غير المقدرة ، غير المتوقعة ، والتي يصعب التنبؤ بها .

إذن . كل ظهور يقتضى غيابا ، كل مثول لابد له من قرين لا يمكن الاطلاع عليه ، إنما يمكن تقديره ، أو التنبؤ به ، أو تخيله ، فإذا أقدم الإنسان على المحاولة وحاول نبش الأساس لابد من انهيار البنيان أو ازالته أو اضعافه ، هتك المخفى يعنى إذلال المائل المرتبط به وتوهينه .

كل بنيان مأوى ، إما لبشر يسعون ، أو ماضين ، أو رحلوا ، أو لمعنى مثل النصب التذكارى ، والشواهد ، والأبواب الوهمية ، ولا يأوى إلى الحيز المحدود إلا كائن ، وإنما المعنى هنا الإنسان فلا طاقة له على إدراك تفاصيل ما ظهر وما خفى من صلات الحيوان والطيور والحشرات بالموضح .

ربما يمضى الإنسان عمره فى بناء ، يرى يوميا جدرانها ، ويستظل بسقفه ، ويؤدى الطقوس أمام الأبواب الوهمية ، يقدم على أداء هذا كله ، ولا يفكر لحظة فى الأساس المخفى الذى يسند ويحمى ويبقى !

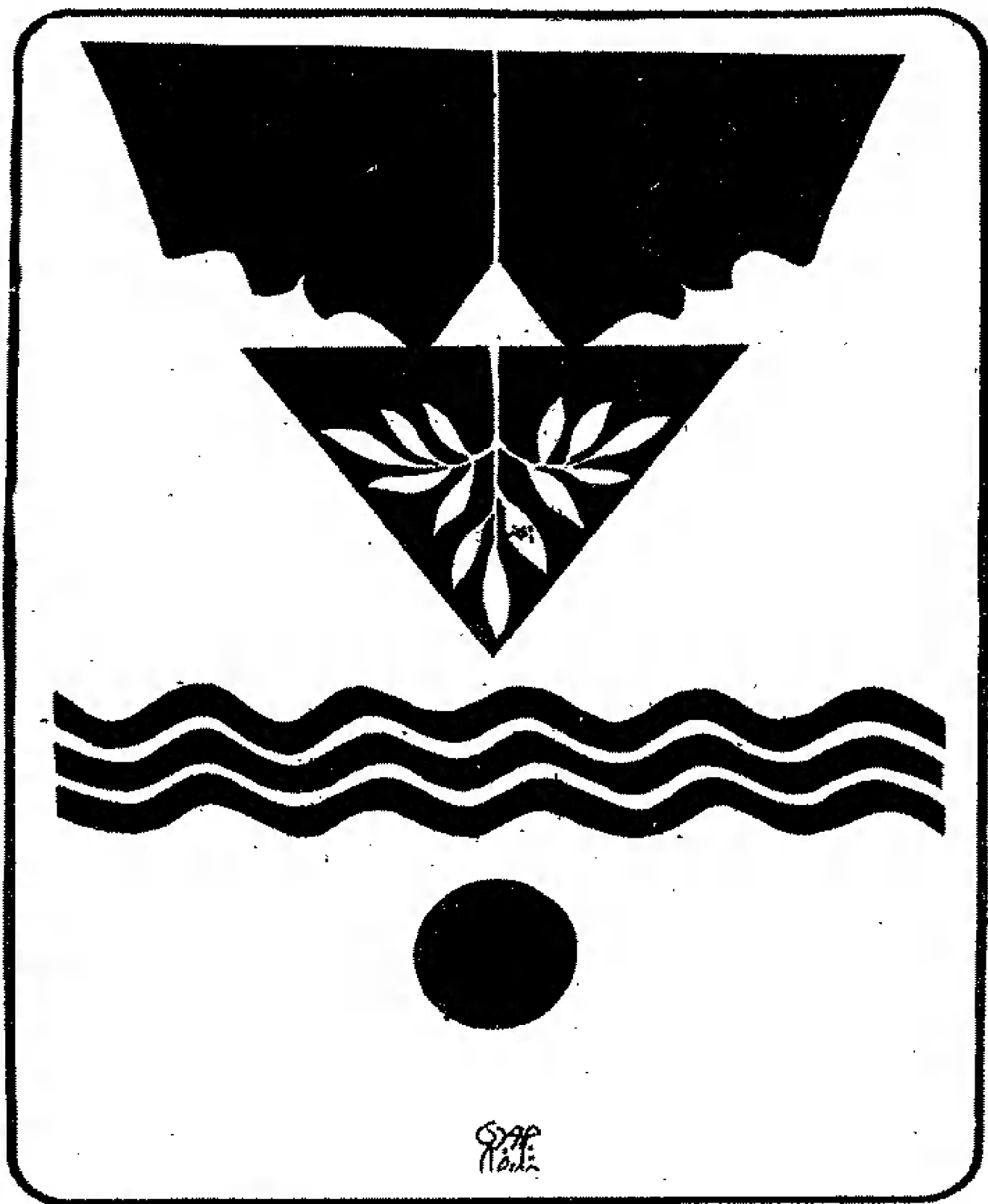
ليس الأمر مقصورا على العمارة ، إنما يشمل الأمر سائر الكائنات والإنسان منها طبعا ، ذلك أن كل عمارة تكوين ، أى تركيب ، كذلك من يسعى إلى حين ، ذكرا كان أو أنثى ، الإنسان تكوين وتركيب أيضا ، وكل عمارة لاتقوم إلا على أساس ، ولا يتم مثولها وسعيها فى الفراغ إلا بإشباع الجذر وتجهيزه للتلقى وتحمله بعد تمام غيابه ، تلك العمارات الظاهرة وطيدة ، إنما ترحل فى ثباتها ، وترى الجبال ثابتة ، لكنها تمر مر السحاب ، فكل مكون ومركب مصيره إلى انفراط

الإنسان تكوين ، هذا مفروغ منه ، اذن .. أين أساسه ؟ إنما نعنى الأساس المتين ، المبدئى ، الذى انحدرت منه الخلايا ، وسائر المكونات ، وإذا تمكن الإنسان فى مرحلة ما من مسار وجوده التوصل إلى معرفة أصله ومنبته ، إدراك أساسه ، فهل ينهار ما هو ظاهر ، هل ثمة شرط أبدي ، إجبارى ، إذا أدرك الظاهر منبته توارى وجوده كافة .

هل بالإمكان إدراك أساس الإنسان ؟ أصل العمارة الكبرى التى يسعى فيها ، وتتحرك فيها الكواكب والنيازك والشهب والنجوم والمجرات ، وكافة ما يدفع الإنسان فى مراحل عمره المختلفة ، من طفولة وصبا وكهولة إلى التطلع أو تفحص ما يدب عليه ، وترديد الاستفسارات الحائرة والأسئلة الميسرة ، فكل سؤال نطق وكل نطق باعث على الراحة وإن لم يتلق الجواب ، لذلك نكتفى بالترديد : هل تحين لحظة تجمع بين ما يخفى وما يظهر ؟

حكاية

جهات



قمرى يهدل

صوت قديم واقد من خبايا الذاكرة ، سطح البيت القديم ، أفق المدينة القسيح ،
زرقة السماء المنطلقة ، وقفة اليمامة الآمنة عند الطرف القصى ، صوتها يؤطر
المرحلة .

يفيض دهشة وسكينة مهددة بعد تمام الإفاقة ، بعد اجتيازه تلك المرات
المصاغة من ضوء يمت إلى لون لازوردى وما هو بلون ، تردد تلك الأصوات التى
لم يعرفها ، توارت كلها مفسحة الأفق لذلك الهديل المرتبط بلحظة نهائية ، قاهرية ،
مستحيلة الآن ، لكنها ممكنة بعمل الذاكرة الخفى .

مستحيل إدراك الصور والرؤى المتوالية ، المتعاقبة عليه الآن ، تتدفق عليه مع
كل لحظة تنقضى بعد تمام الوعي وامكانية التلقى ، لا يعرف أى إنسان ما يمضى
عبره ، تماما كما يجهل ما يتدفق إلى الآخرين ، المائلين له من مواقف ولحيظات ،
لكل تراثه الخاص جدا ، مستحيل اختراقه أو الوقوف على ما يحوى .

من رقدته يتطلع إلى من يمكنه رؤيته ، ثلاثة من الزنوج الأشداء يحيطون به ،
طوال القامة ، يرتدون القميص البنفسجى والبنطلون الأبيض ، الزى الخاص
بالمرضى المسئولين عن نقل المرضى .

إنهم مدربون ، متخصصون ، ثمة لحظات حرجة ، ما بين انتهاء العمليات
الجراحية والاستقرار فى غرفة الرعاية المركزة ، بدء نقل المريض من منضدة
الجراحة إلى السرير النقال .

خلال تنقله من معمل إلى آخر ، من جهاز فحص إلى جهاز ، قبل إجراء
الجراحة ، كان يرى تلك الأسرة المتحركة ، غرف عناية متنقلة على عجلات ،
خمسة أو ستة متخصصين فى النقل ، يذكر أحدهم ، كان ممسكا بقربة بيضاء
منتفخة ، يبدو أن لها صلة بالأنفاس وتردها ، لابد أنه مر بمثل ذلك ، انحنوا
عليه ، أحاطوه ، دفعوه ، مدبوه وهو حاضِر ، غائب بوعيه .

سريره الآن مغاير ، متنقل ، لكنه أبسط ، ما من خراطيم متصلة به ،
لوحة المفاتيح إلى جانبه ، بلمسات خفيفة يمكن الرفع أو الخفض ، أو نداء
المرضة ، جهاز صغير مثبت إلى صدره ، متصل بأسلاك تنبعث منها الإشارات
إلى عدة مراكز وشاشات ترسم ما يجرى داخل القلب الذى ما تزال جراحه
طرية .

مصعد فسيح بطى الصعود ، مستطيل ، حركته أقرب إلى الهددة ، يدفعونه
عبر الممر المؤدى إلى الغرف ، حجرة فسيحة ، ستارة تقسم فراغها ، مريض آخر
لا يعرف عنه شيئا يرقد خلفها ، يلمح قدميه فقط .

يتعرف إلى مفردات الوجود من جديد ، هذا تليفزيون مثبت إلى الجدار ،
مرتفع ، يمكن للراقد رؤيته ، تلك باقة ورد ، منضدة صغيرة عدادات مستديرة ،
أخرى مستطيلة ، مؤشرات ، أزرق فاتح لون الجدران ، سقف أبيض حليبي ،
ضوء النهار يتخلل النافذة العريضة يتسرب إلى الفراغ خافتا ، ناعما ، ناشرا
السكينة .

منذ ثلاثة أيام وقف أمام المبنى الذى يغلب عليه اللون البنى من الخارج ،
أشارت المرافقة إلى الطابق الأخير ، إنها غرف الإقامة خلال الأيام التالية
للجراحة ، تطول المدة أو تقصر طبقا لكل حالة بعد اجتياز ساعات الخطر والفترة
الحرجة التالية مباشرة .

إنه مغمور بالضوء النهارى المطمئن ، الباعث لرضا غامض لم يعرفه من قبل ،
ممتن لكافة ما يسعى حوله أو داخله ، للوجود كافة يود لو عانق المحسوسات
واحتوى المعانى مرحبا .

إنها وفادته الثانية للكون ، لكنه هذه المرة قادر على تمييز الأشياء من النظرة
الأولى ، لا يحتاج إلى تلقين أو إيضاح لما يفرق الأبجدية عن بعضها ، لكنه حائر

بدرجة ما ، ثمة شئ مقض لا يمكنه تحديد مصدره ، كأنه راحل بوسيلة لا يعرفها ،
مار بمحطات لم يخطر بها من قبل ، لم يتضمنها دليل .

تقبل الممرضة .

تميل عليه ، تقول إنه لن يمكث فى هذه الغرفة طويلا ، إنهم يجهزون غرفة
أخرى مجاورة ، إنها مفردة ، له فقط ..

هذا أفضل .

يجول بعينيه ، يتلقى الضوء النهارى الرائق ، الصافى ، يستوعب المرئيات
وأصوات المكان ، ملامح مبتسمة ، معنية به ، يعانق الجميع بالصمت ، يتودد
اليهم بغير نطق ، هم عنده طلات وملامح ، لا يعرف أصحابها ، غير أنه ممتن ،
راغب فى القربى والتقى .

رغم الستارة التى تقسم الغرفة ، إلا أنه ألم بمساحة من النافذة ، ليست نافذة
بالضبط ، إنما جدار زجاجى ، يبدأ بعد حوالى متر من الأرضية ، يستمر إلى
السقف ، زجاج شفاف ، يعبر بالبصر إلى الفضاءات البادية .

أشجار كثيفة ، خضرة كاسية ، مرتفعات متوالية ، أزهار فى مستطيلات
محددة ومربعات ودوائر ، بيوت خشبية ، سقوف القرميد المحدبة ، تغد إلى ذاكرته
ناحية عتيقة من مدينته القصية ، النائية ، أحجارها رمادية ، معتقة ، مثقلة
بالحنين ، إنها الضلع الجنوبى من مسجد وضريح سيدى مرزوق الاحمدى ، تحدد
بداية شارع قصر الشوق ومدخل الطيالوى ، لا يمكنه تعيين الوقت المؤطر لها ،
الذى يتخللها ، إنه الصباح ، إنه العصر ، إنه الضحى والأصيل معا ، نهار بأكمله
مختزل هذا أول توق يلى الافاقة وإنه لنا فذ !

ممرضة تمشى على حواف قدميها ، تمسك أوراقا ، تتطلع مبتسمة ، يتقدم
اثنان ، لكنهما ليسا من جاء به ، لا يرتديان قمصانا بنفسجية اللون ، إنما

خضراء ، أحدهما أصهب الشعر ، الآخر سمرة داكنة ، ربما من الكاريبي ، أو أحد بلدان أمريكا اللاتينية .

يسحبان السرير برفق ودربة ، طقطقة العجلات ، يلمح قدمي المريض الراقد خلف الستارة ، لم ير وجهه ، لم يعرف شيئاً عنه ، باقة زهور في المواجهة ، ممر عريض ، أبواب الغرف مفتوحة ، سقف أبيض متأثر بالأزرق .

هل ثمة صلة بين الممرات الزجاجية اللازوردية وهذا الضوء الناعم الوثير الخالي تماماً من الظلال ؟

كيف يمكنه القطع ؟

كيف وهو يتعرف إلى أبجدية الوجود ومفرداته من جديد ، إنه في حاجة إلى استعادة متمهلة لما علق بذهنه عند عبوره من الغياب إلى الحضور ، تفحص ما عاينه ، ما وقف عليه ، ما أصغى إليه ، أصوات أقرب إلى صلصلة المعادن ، أصدااء أجراس بعيدة .

يستديرون بالسرير ، يعبر باب الحجرة المفتوح ، مجاورة ، لكنها أقل حجماً ، لا يوجد بها إلا سريره ، يتأكدون من وضعه ، يصل الأصهب أسلاكاً بأخرى ، إلى الخلف شاشة معلقة ، مثبتة ، عليها خطوط متعرجة ، تتقدم لتتراجع وتبدأ من جديد ، سطور بادية ، أرقام ، علامات ، لابد أنها ذات صلة بالجهاز الصغير مربع الشكل المثبت إلى صدره ، موضع الجرح يغطيه شريط أبيض لاصق ، عريض ، خفيف ، لا يشي قط بحجم ما جرى .

يقول الأسمر إنه يمكن الضغط على الزر لاستدعاء الممرضة المسئولة ، ابتسم ، قال إن اسمه «ليتل» ، يتمنى إقامة طيبة وشفاء سريعاً ، يومئ مسروراً ، موجهها امتنانه الشامل إلى هذا الإنسان الذي أبدى ودا واهتماماً في تلك اللحظة ، ربما لن يراه مرة أخرى !

الجدار النافذة ..

لكن .

هل ينزل الليل بهذه السرعة هنا ؟

كم استغرق انتقاله من حجرة إلى أخرى ، لم تنقش سوى دقائق ، هناك نهار مكتمل ، هنا ليل أتم ، يغمض عينيه ، يفتحهما ، أضواء متناثرة، المؤكد أن الغرفة على نفس الجانب ، إنه يرى ترقق أضواء ، بحيرة ممتدة ، هل فقد الاحساس بالوقت أثناء دورانهم بالسريير ؟ ربما .

ليل ساج ، كأنه ممتد ، لا يسبقه نهار وإن يعقب صباح ، يلمع ضوء أحمر يعبر الأفق ،

طائرة ؟

ربما

أنفاسه موجزة ، متسارعة ، أحيانا تقفز دقة معينة كأنها تحاول اجتياز الاخرى ، كيف يبدو قلبه الآن داخل صدره ؟ كيف تبدو الجروح والخيوط الماسكة؟

يلتفت إلى النافذة ، لا ، إلى الجدار الزجاجي ، إلى الليل المحير ، يقابله مستلقيا ، متسقا مع وهنه ، راضيا تماما بما جرى ، مطلقا على ندرة لحظات تلك ، محاولا وصل ما كان ، لكن ..

نهار هناك ، ليل هنا ..

إنها الحيرة الأولى ، فليلقاها هادئا ، منبسطة ، مؤكدا أن الحجرة محاذية للأخرى ، نفس الجانب ، هل فقد الاحساس بالاتجاه والوقت خلال دورانهم بالسريير ؟

ربما .

يستسلم إلى الرقاد ، لكم احتياج إلى هذا الخلاء الممتد ، إنه واهن ، لكنه هادئ ، متوحد لكافة ما يراه ، ما يقع عليه بصره ، البشر ، الأشياء المتموضعة والمتحركة ، النبات ، الفراغات ، أما الألوان فكأنها تخرج مكتملة من عنده .

أزيز خافت لا يدري مصدره ، يغمض عينيه ، يفتحهما ..

بالتأكيد غفا .

ضوء خافت يغمر الخارج ، ليل مقبل أو مدبر ، لا يمكنه القطع، في يوليو يتأخر الغروب في تلك المناطق الشمالية إلى الحادية عشرة ليلا ، سحببات خفيفة في السماء ، متفرقة ، متباعدة ، لا تنبئ ، خلال لحظات يبدأ توافد النجوم ، تكاثفها في وقت وجيز ، يرى ما قرأ عنه ، عندما أراد الإلمام بأحوال المكان ، تعاقب الفصول الأربعة في يوم واحد لاضطراب الطقس .

تتكاثف الغيوم ، تدنو من الأرض ، رماديتها غامقة ، تطوى ما وهن من ضوء ، لم يفكر في تحريك الستائر الخفيفة أو الثقيلة ، يمكنه بضغطه يسيرة ، خفيفة على مفتاح ملون باللوحة المثبتة في كلا الجانبين ، إنه تواق إلى احتضان الكون ، بهدوئه وعواصفه ، يكفيه الآن .. النظر ، المبني متين ، مقاوم للصواعق ، معزول عن كافة المؤثرات الخارجية ، غالب عليه اللون البني . قبل دخوله لإجراء الجراحة تأمله مرارا ، حفظ اتساعه ، الطابقان الاول والثاني للفحص ، الثالث والرابع متدمجان ، يضممان غرف الجراحة المعدة ، المرتفعة ، تنظييمها يقتضى هذا ، الخامس للفحص النهائى ، السادس والسابع للرعاية المركزة ، الثامن والتاسع والعاشر ، لايواء المرضى ، مرحلة تلقى العلاج والتأهيل للخروج إلى الحياة اليومية ، الطوابق العشرة مخصصة كلها للقلب ، ثمة مبان ملحقة يتم الوصول إليها من خلال ممرات وجسور صغيرة مغطاة ، مراكز بحث ، معامل ، مكاتب .

لا يعرف محتوياتها، كان يرقب ما يمتد إلى المكان برهبة وحذر خلال تنقله من قسم إلى آخر ومن موضع إلى موضع ، كافة ما يطلع عليه له علاقة ما به ، صلة .. المبنى يومئذ ألوانه بالعتاقة رغم حدائته البادية ، لا يوحى من الخارج بما يضمه من ممرات طويلة وصالات متعاقبة وأقسام ومعامل تحليل ومطاعم عديدة ، يبدو لمن يراه من الطرق المحيطة صغيرا ، مجرد بناية لاتفصح عن ضخامة أو تعقيد .

هنا فى الطابق العاشر ، الأخير يشعر بارتفاع سماق ، كأنه تجاوز المائة طابق ، أحيانا يخيّل إليه أنه مجاور للأرض ، إنه يستعيد واجهاته التى توقف ليتأملها مرارا قبل ولوجه للجراحة ، لكم توقف ، وتطلع ، وتأمل .

« فى غرفة ما سيشق صدرى ، ويمسك الجراح قلبى ، يخرسه وينطقه .. فى غرفة أخرى سأغيب عن الوعى فترة لا يمكننى تعيينها .

فى حيز لا أعرفه سأولد من جديد ، كم ستمتد إقامتى .

لا أعرف »

ها هو يستعيد ما كان منه فى مواجهة العاصفة التى تتكون بمحاذاته ، على رأى منه ، لينعم بالرقاد مهما بلغ الوهن ، ليمتد راضيا ، مرضيا ، مهما قصرت الأنفاس أو تعثرت أو اشتدت تلك النفرة المفاجئة والتى تجيئه حيث لا يتوقع ، مباغتة ، مبرقة ، غامضة .

الغمام القاتم يتجاوز الزجاج ، عتمة ، يندلع البرق ، كرة نار مدغومة ، صفرتها كونية ، أبدية ، أين كمونها ؟ ما مصدرها فى الفراغ ؟ من فوق الأرض يراه الماشى برقاً ، لكن فى الخضم يبدو الانفجار متجاوزا كل قدرة وأى طاقة ، انه مواجه مباشرة بما يجرى فى رحم الكون ، تكون العاصفة وانفجاراتها ، تتدافع الغيوم ، إلى أين بعد تجاوز الغرفة ؟ غير أن الفراغ الداخلى هادئ ، درجة ثابتة من ضوء غير مباشر ، سيالة تفيض بلا انقطاع ، مجهولة المنبع والمصب ،

تتصادم كرات اللهب ، يندمج بعضها ، تتفجر على بعد يسير من حافة النافذة حتى ليستراجع إلى الخلف ، لكن .. لا شئ يميل أو يهتز ، ترى .. أين قرأ تلك الجملة ؟

«تكون العاصفة جميلة ورائعة إذا كان البيت متينا ..»

المبنى ليس متينا فحسب ، انما يبدو صنوا للطبيعة ونقيضا لها ، كينونة أخرى فى مواجهتها ، بثباته ، برسوخه ، بما يحوى ، الزجاج عريض ، متين ، يتلاشى البرق عند سطحه وتتناثر الصواعق ، يرشح كافة الأصوات حتى لو كان ميلاد الرعد عند حافته .

يهدأ تعاقب السحب ، وتوالجها وأنتحار بعضها فى بعض ، تصفو السماء ، تنجلي الرمادية ، لكنه الليل باد ، ليل تتشابه فيه الجهات والأشياء تفسح المكونات المسالك للذكريات وأستدعاء كل ما هو بعيد أضواء قريبة

أخرى عند الأفق ، متناثرة ، متباعدة ، إشارات وأهنة دالة على حيوات يجهل وجودها أو مساراتها ، إنه يمت إليها بدرجة ما ، الآن يقترب النهار من الطلوع فى القاهرة ، ثمان ساعات فارق التوقيت ، أحتفظ بزمان مدينته ، لم يحرك مؤشرات ساعته ، ينقص الفارق بذهته ، تجئ الممرضة حانية ، باسمه ، تحملها إليه ، تساعد فى إحكام أغلاق قفلها ، بيتسم راضيا ، شاكرا .

العاشرة إلا خمس دقائق

يصل الطبيب ايرانى الأصل ، المتابع لأحواله بعد الجراحة .

السلام عليكم ..

ينطقها تماما مثل تجار العجم الذين أقاموا على مقربة من مسجد سيدنا الحسين ، كانوا متخصصين فى تجارة التنباك والمكسرات من عين جمل ، ويندق

ولوز وفستق ، كان لهم موكب صاخب حزين فى عاشوراء، يقول الطبيب أصفهاني
المولد ، أمريكى الإقامة .

لايد أن تمشى من القد .

يلوح بأصبعه

الفراش باستمرار ... لا ..

يكرد

مفهوم

يوميء مبتسما ، بمغادرة الطبيب للغرفة ، يبدأ ليله الحقيقى ، يغمض عينيه ،
ظلال خضراء لحركة الخطوط المتعرجة كموج البحر ، الثانية صباحا يطل عم مايك
الزنجى ، الثانية والنصف تدخل ممرضة ممثلة ، توقظه برفق ، تقدم إليه قرصا
صغيرا ضئيلا مثل حبة العدس ، لا يخشى إلا مثل هذا الدواء المدغم ، المعد
بعناية ، يستأنف نومه ، فى السادسة تدخل ممرضة شابة ، ترتدى كنزة خضراء ،
وينظرون أبيض ، صدرها محرض وردفاها منعمان ، يحرضانه على الخطو مرة
أخرى ، يومئان إلى روعة الوجود وجلال الاعتلاء وثراء الفروق وشدة سرعان
الحياة فى الموجودات كافة .

يتהלل ممثنا لأنه يرى مثلهما مرة أخرى ، تقابله بمثل ما قابلها من بشر
ورحابة، نظارتها الطبية تبرز بضاضة وجنتيها وارتوائهما ، تلاقحت نظراتهما ،
عندما أدارت ظهرها تعلق ورفرف ، أيقن من سلامة الخطه وقرب اكتمالها ، تكتب
اسمها على اللوحة الصغيرة المواجهة .

كاترين ؟

نعم

تستدير ممسكة بالطباشير الأزرق الفاتح ، تقول إنها تعيش مع ابويها فى منزل متوسط ، أقل حجما من تلك البادية عبر النافذة ، تحيط به أشجار مثمرة ، احداها تحاذى نافذتها فى الطابق العلوى ، لو مدت يدها تقطف الكمثرى ، نعم .. لديها صديق ، سافرا معا إلى جامايكا الشهر الماضى ، يقول مبتسما .

صاحبك محظوظ

تقول إنه لطيف جدا ، لم يتشاجرا مرة واحدة ، يعمل فى مطعم للوجبات السريعة ، تقول فجأة .

لا بد أن تمشى

يقف .

هل تتغير المشاهد بعد وقوفه ؟

هل يختلف الأفق ؟

يلاحظ المستويات المتوالية للأرض ، أين البحيرة الآن ؟ ألم ير ترقرق سطحها المائى الساكن المستسلم للظلمة ، يلمح محطة للقطارات ، عربات واقفة ، يستدير متجها إلى المر الذى تطل عليه الحجرات المتجاورة ، المتواجة تقول كاترين .

رائع .. يمكنك أن تمشى حول الطابق ..

تتابع بسرعة .

« فى أى لحظة يبدأ التعب قف فورا .. »

يتقدم ببطيئا ، أنفاسه قصيرة ، متوالية ، الخطى الأولى لا يمكن نسيانها ، خاصة إذا بدأت مع اكتمال الوعي ، إنه واهن غير أن طاقة متصاعدة من نقطة ما داخله ، لكنه منضبط فى تقدمه ، المر أعرض مما رآه عصر أمس ، على مسافات متساوية صالات فسيحة تنتظم فيها المكاتب ، حواسب آلية عديدة ، ماكينات قهوة

مفرغة من الكافيين مثبتة إلى الجدران ، مباحة للكافة ، أجهزة اليكترونية ، ممرضات يسعين برشاقة ، إنه يرى اللحظة التى يفارق فيها المبنى ، يتأمله من الخارج عند مضيه إلى الفندق ، بعد عودته إلى الوطن يستعيده كذكرى.

الوقت يمضى . هاهو يخطو منفردا رغم أن الرباط اللاصق مازال مثبتا إلى صدره ، كافة الأبواب مفتوحة ، حجرة خالية من الأسرة ، تجهز لاستقبال مريض ، ربما يجيئون به الآن من الرعاية المركزة ، يمر بلحظات الإفاقة الأولى .

يتطلع إلى النافذة التى يبدو منها جزء كبير ، مساحة كافية

بحر ؟

مرج وشاطئ ورمال محانية ، زيد أبيض .. صخور ، أمواج تتقدم ، تصطدم ، تتراجع ، تتقدم .

انها عين الجهة التى تطل عليها غرفته ، لم يبتعد الا خطوات ، الباب قريب ، الغرفة التى صعد اليها أمس فى نفس الجهة ، لم يكن يبدو منها هذا الموج المتلاطم ، هذا اليم الخضم ، قوافل الحركة المستمرة. الزيد الأبيض الزاهب ، المرتد فى عين اللحظة .

بحر يبدو هنا وبحيرة هناك ، نهار وليل يتجاوران ، غابات تطالعه من غرفته ، مساحات الغرفة متقاربة ، كافة الأبواب تطل على الممر المستقيم ، يصل إلى الفسحة التالية . لافتة صغيرة تعلن عن قسم العلاج الطبيعى ، لم يحن الوقت بعد للالتحاق به ، يتم ذلك بعد مغادرة المبنى والعودة إلى الفندق ، إنها المرحلة الثانية باتجاه الحياة اليومية ، ثم ... الرجوع إلى الوطن ، عندما يأذن الطبيب ويسمح بعبور المسافات الفاصلة .

يتوقف ، تتوالى عليه لحظات منقضية ، مقترنة بأماكن نائية الآن ، لكنه يستدعيها ويحتويها بعد أن ضمته حقباً ، نواصى ومداخل وشرفات ونوافذ ،

وأجبهات سوامق وممرات مؤدية وأركان مظلة ، التماعات الضوء على النبات
والأهرام البادية عند الأفق الغربى، الرمال والتلال ، حدود الوادى ، تقترب
اللحظات بالمواضع التى يثير استرجاعها الحنين الممض.

يلتفت مقطبا ، متعجبا ، نافذة صالة العلاج الطبيعى عريضة ، مكشوفة ،
مامن ستائر ، آلات مشى ، مران ، قياس الضغط والنبض وما لا يدريه ، إنها فى
نفس الجهة ، لكنه من حجرته لا يرى تلك الناطحات الشاهقة ، إنه فى مواجهة
مشهد امريكى تماما ، مبان نحيلة، سامقة ، أعمارها متفاوتة ، أحدثها هرمى
القمة ، مدبب ، معدنى الطلاء ، أربع أو خمس ناطحات سحب ، هل رأى صورة
مماثلة من قبل؟

مؤكد

هذا مشهد غير طارئ عليه ، إنه مألوف بدرجة ما ، ربما لتشابه تلك البنايات،
لكن ، كيف لا يمكنه رؤيتها من غرفته ؟

هل من المعقول أن تطل كل حجرة على جهة مغايرة تماما ؟

خطواته حذرة ، قصيرة ، لكنه يتقدم ، كاترين تتحدث إلى شخص ما عبر
هاتف مثبت إلى الجدار ، فى وقفاتها يبدو تكوينها الانثنوى ، يفاعتها، يستسم
متسائلا :

«صديقك» ؟

تومى ، يكرر

« إنه محظوظ »

يصل إلى نهاية الممر ، انها المرة الأولى التى يقطع فيها المسافة كلها ، يتوقف
حتى تهدأ أنفاسه المتلاحقة ، يتوسط صالة مستطيلة ، مقاعد وثيرة مصفوفة ،
جهاز تليفزيون مغلق ، نافذتان متقابلتان ، الأولى ناحية الجهة التى تصطف

بحذاتها الغرف ، الثانية متعامدة عليها ، نهاية الممر ، ما يراه من خلالهما متشابه ، لكن لا علاقة له بالمشاهد الأخرى .

طريق عريض ، مقسم بخطوط بيضاء ، تتدفق عبره السيارات ، نقل ، ملاكى ، مقطورات ، كلها فى اتجاه واحد ، مماثل لمشييه فى الممر ، أشجار كثيفة على الجانبين ، غابة مشطورة ، كثيفة الحضور ، من خلالها يبدو مبنى سامق عند الأفق ، كأنه يرى قبة ومئذنة ، تكوينان منفصلان ، متصلان ، كل منهما يتم حضور الآخر .

معقول هذا ؟

أن يكون فى مواجهة المسجد الذى بناه الزوج المسلمون قرب المستشفى ، لا يذكر من وصفه له ، لكن تبدو هذه المئذنة مألوفة عنده ، كأنه احتواها من قبل بالنظر ، ألا تشبه منارة قايتباى ، خاصة التناسق والتفاهم مع القبة ؟

يميل إلى الامام

ولماذا مسجد ؟

ألا يشبه البرج ؟

لكنه لا يرى صليبا يعلوه ، إما لبعده المسافة أو لتصاعد ضباب خفيف عن القابة ، ربما يؤدى غرضاً رياضياً أو علمياً ، يضيق عينيه ، لكن الرؤية تظل محدودة .

العربات مساتزال تتدفق ، تمضى متجاورة ، تفصل بينها تلك الخطوط المرسومة ، سرعاتها مختلفة ، طرز شتى ، ألوانها متعددة ، تتكرر طرز وألوان ، أحمر ، أبيض ، بنى ، أحمر مرة أخرى ، درجة من اللون القانى يفضلها ، تقترب من الياقوتية ، يتوالى مرور السيارات ، كم عدد الحارات الوهمية . يخطئ العدد لبعده المسافة ، ثمانى ، تسع ، ينبغى التركيز ، غير أن إجهاداً يتصاعد ، ونفرة

قوية ترغمه على الاصفاء إلى قلبه ، يتراجع عن النافذة ، يستأنف المشى ، يعبر الزاوية القائمة ، يبدأ ممر جديد واستئناف أيضا للسابق .

المرضات شابات ، أعمارهن متقاربة ، يقضن حيوية ، يبدن مودة بلا تكلف ، أحيانا يفاجأ بحنو ، بعضهن يرتدين ملابس بيضاء بما فى ذلك الأحذية ، أخريات مثل كاترين ، قمصان خضراء ، بنطلونات بيضاء ، إتهن أقل مرتبة ، لكن ما من شبه يقربهن منها ، يدرك أن النسر بدأ ، وأول القطر حل ، إذا قدر له استعادة تلك الأيام بعد إيباه إلى دياره فسيمثل منها كاترين ، لابد من أنثى للتعلق بموضع أو لحظة ، وإلا .. فإنه العدم ، لكم يود أن يرى دخولها الهادئ عليه ليستفسر منها عما يراه ، ليسألها عن الجهات ، تغير ما يطالعه من نافذة إلى أخرى ، يتوقف ..

قرب نهاية الممر يلمح امتدادا صحراويا وكثبانا بادية وتجمعات متفرقة من التخيل .

إلى هذا الحد ؟

نعم .. ليس عنده شك الآن ، كل نافذة لاتشرف على جهة ، إنما تطل على عالم ، حضور مغاير تماما لما يجاوره ، يتوقف ، هل يرى حقا ما يوجد ؟

أم يوجد ما يراه ؟

لو عبر النافذة ، أى نافذة ، لو نجح فى فتحها ، ماذا سيرى ؟

هل سيرصد أسباب الاختلاف ؟

يتحمس الحواف ، كلها مصمتة ، جدار زجاجى مثبت ، لايمكن فتحه ، لابداية ولاحد مؤطر ، مثبت ، طائرة مروحية تعبر الأفق ، سماء فيروزية صافية ، نقية من كل غيم ، كأنها لم تعرف السحب منذ قليل ، يستعيد انفجار البرق قرب النافذة ، توالى العاصفة ، هل مارآه حقيقى؟ ، هل يخص نافذة غرفته فقط أم رآه بقية

الراقدين؟! لكن الوهج بدا كونيًا ، لا يمكن محاكاته ، ترى .. أين مصدره ؟ هل يمكن أسر البرق ؟ هل بالإمكان إجبار العاصفة على التوجه إلى مكان بون الآخر . أين قرأ مثل ذلك ؟ أين ؟

ربما فى نص فرعونى عتيق ، أى كتاب ؟ لا يدري ، لا يمكنه القطع! خشية مفاجأة تبدأ عنده .

هل يطل على نفس الجهة التى رآها أول مرة من غرفته ، فى الداخل لم يتغير شئ ، السرير ، الأسلاك ، الكتب التى طلب الإذن باحضارها اليه ، الشاشة ، العلامات ، لكن .. ثمة شئ تغير ، لا يقدر على تحديده ، لا يمكنه تصنيفه .

يلتفت حوله .

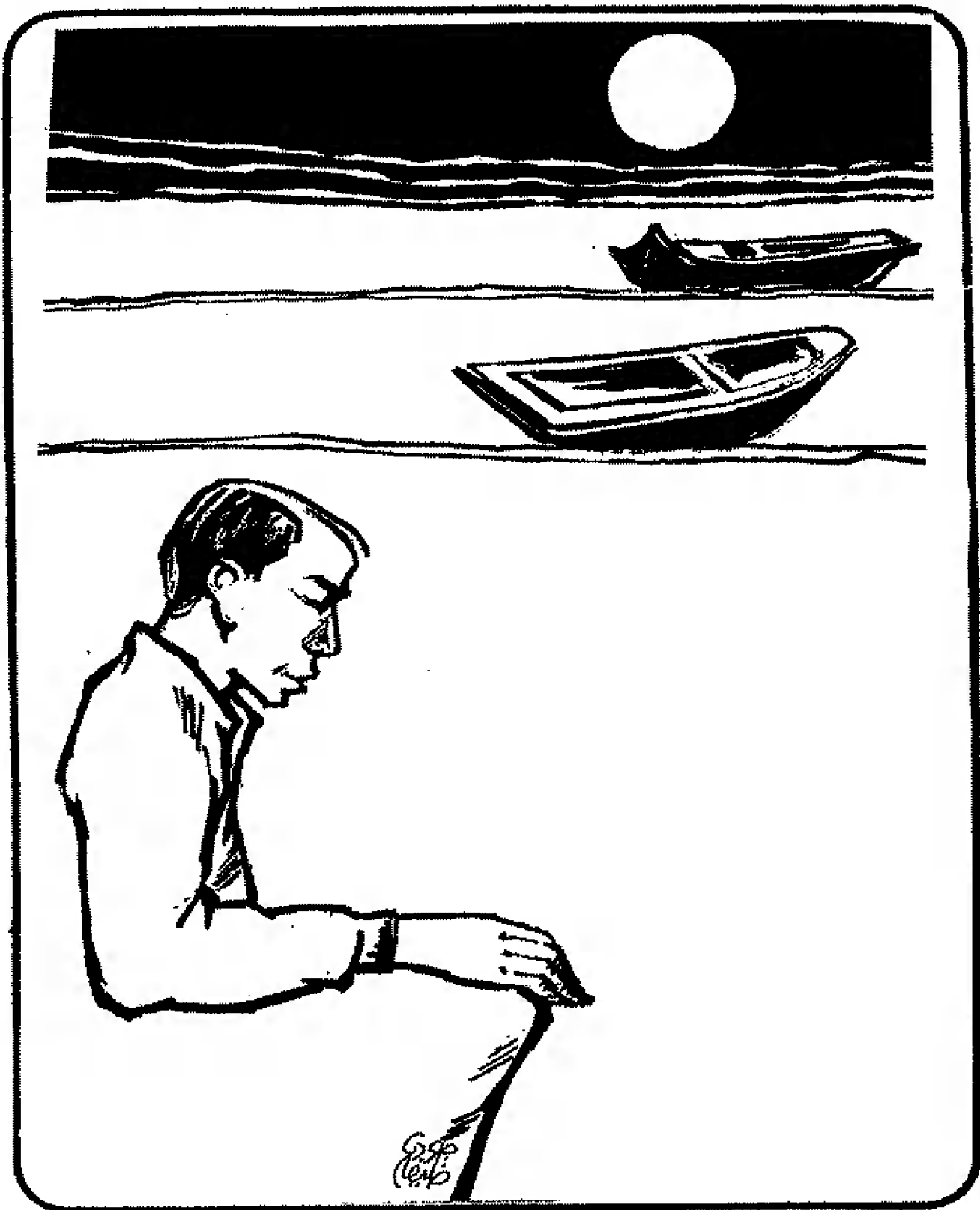
غرفته ؟

يلفظ التساؤل بصوت مرتفع ، هذا سريرى ، الأجهزة المتصلة بمسارات الدم داخله ، بنبضات قلبه ، اللوحة فى المواجهة ، أسماء الممرضة ومساعدتها والمسئولة عن النظافة ، لكن .. ثمة شئ ما يباعد ما بينه وبين الحيز الذى أوشك على اثتلافه .

يستعيد المكونات كافة ، الضوء مغاير ، درجة لم يألّفها ، باردة تلغى الظلال ، لم يعرفها حتى عند تراوحه بين الإفاقة والغياب ، تتقارب الجهات ، تتضام ، تتداخل التفاصيل التى رآها عبر كل نافذة ، بحر ممتد ، موج متوال ، صحراء متموجة الرمال ، عاصفة عابرة ، عربات تتدفق ، تختفى لتكر من جديد ، الطرز عينيها ، الألوان ذاتها ، السرعات المختلفة ، المتماثلة ، دخول كاترين الهادئ ، المتفرق ، مرسلات الإثارة منها اليه ، أو .. منه صوبها ، لا يدري .. هل عبرت الباب صوب مرقدته أم خرجت من عنده إليه ؟

حكاية

ممرات



صباح اليوم الثالث لاسترداده الوعي واكتمال إفاقته ، الرابع على إجراء الجراحة جاعوا إلى الغرفة ، ثلاثة أشداء ، طوال القامة عراض الصدور ، وكان مقاييس متقاربة روعيت عند اختيارهم ، إنهم المكفون بنقل المرضى ، مدربون ، مؤهلون لمواجهة أى طارئ خلال المرحلة الحرجة التى تلى انتهاء الجراحة وتسبق انتقاله إلى غرفة الرعاية المركزة ، إنها الفترة الصعبة حيث تخطو خفقات القلب العائدة قاطعة أول المسافة بعد التوقف وتلقى الصعقات المحركة ، الجراح فى بداية طراوتها ، وأى اهتزازة زائدة عن الحد ربما تؤدى إلى وقوع ما يتجنبه الجميع ، الأنابيب المتصلة بأجهزة القياسات والمحاليل والأنوية العاجلة اللازمة تعلق إلى أعمدة متصلة بالسرير المتحرك ، هذا مشهد رآه قبل إجرائه الجراحة خلال أيام الفحص السابقة ، كانت الحركة بطيئة جداً ، عددهم يتجاوز الخمسة ، أحدهم ينحنى على المريض ممسكاً ما يشبه القربة المستديرة البيضاء ، فى هيتهم عناية وحنو وحرص زائد ، يتطلع إليهم مبتسماً ، ساعياً إلى المودة ، انتهى من تناول طعامه منذ نصف ساعة ، الأطباق مظهرها شهى لكنها مفرغة من مضامينها ، شكل لاغير ، الجبن مفرغ من الملح واللبن ، البيض بدون دسم على الإطلاق ، حتى اللحم يخيل إليه أنه من مادة محايدة ، يقول الأوسط ، بشرته غميقة ، أفريقيته صميمة ، يمسك بمقعد متحرك ، يشير إليه ، يتساعل بالنظر ، لكنه لايتلقى إجابة محددة ، يقول إن بوسعه المشى ، يمكنه أن يصحبهم ، لكنه يهز رأسه مومناً إلى المقعد ، لامفر .

تبدأ الحركة ، يمسك بحاقتيه ، يدفعون به إلى المصعد ، ثلاثة متجاورة ، ستة متواجة ، إثنان مخصصان للمرضى ، للطوارئ ، يدخلون بها إلى أحدهما ، يتطلع إلى عامل المصعد ، ملامحه شرقية ، ربما من أمريكا اللاتينية ، الجميع صامتون ، لا يتبادلون الحديث ، ولا يستجيبون لأى مداعبة أو إيماءة ، يرتدى حلة بنية ، لماذا ثلاثة إذا كان واحد فقط قادر بالتاكيد على دفع المقعد ؟

كم طابقاً نزل المصعد ؟

يخيل إليه أنه استغرق وقتاً أكثر من المعتاد ، مرقده في العاشر ، الطابق الأخير ، فوق السطح مباشرة ، مهده لاستقبال طائرات الهليكوبتر التي تنقل الحالات الحرجة ، ثمة شئ يتحرك من السطح متصل بغرفة الطوارئ مباشرة لكنه لا يعرف موقعه تماماً ، مازال المصعد يهبط ، صوت خافت ، ناعم ، رائحة غامضة، جديدة على حواسه ، لا يمكن نسبتها إلى مرجعية محددة ، لكنها ليست مزعجة ، إن مرحاً خفياً متزجاً بإعياء يعبره ، لا يقلق ، لا يتساعل ، لم يخبره أحد بقومهم المفاجيء ، ربما لاحظ الأطباء أمراً عبر الأجهزة العديدة المتصلة بجسده عبر أسلاك ومعدات مساحية مثبتة إلى السرير ، لابد أنهم رصدوا شيئاً ما خلال نومه أو صحوه ، إلى صدره مثبت جهاز صغير متصل بقلبه مباشرة ، هذان السلطان المتجاوران ، النحيلان ، المبرومان ، قطنة بيضاء تغطيهما ، إنه جهاز إرسال تقريباً أو هكذا خمن ، لمن يرسل ؟ لا يدري ، يصغى إلى مايقضى إليه بفضول بكر ، كأنه يقف على الحقائق الأولى بذهن لائق فيه ولا أثر لشيء سابق، بقدر رغبته في الاطلاع على ماجرى له ، بقدر صمته عن السؤال أو الاستفسار ، إنه متلق لاغير ، يؤدي بدقة مايطلب منه .

المصعد بدون لوحة علامات ، لاشئ يدل على الطوابق ، الوجوه محايدة تماماً ، لم يعرف بتوقف المصعد إلا مع فتح الباب ، يكتشف أنه كان يتوهم حركة ما ، لا اهتزازات على الإطلاق ، لا صوت ، إلى أى أزيز ناعم أصغى إذن ؟

أى مثير للدهشة بعد وقوفه على تنوع الجهات بتعدد النوافذ وحيرته فيما يرى ، ماذا يمكن أن يستفزه بعد عبوره الخط الفاصل بين الكينونة والأبدية وعودته مرة أخرى .

درجة الحرارة أقل ، برد يدركه ، ربما لرطوبة الممر الطويل الذى بدأوا دفعه عبره ، وربما للتكييف الضرورى ، اللزم لصيانة بعض الأجهزة المستخدمة ، لايدرى من قال على مسمع منه أن مثلها يحتاج إلى درجة حرارة منخفضة لذلك يستحسن التزود بملابس ثقيلة إلى حد ما ، لكنه لم يصحب أى رداء اضافى ، على أى حال البرد محتمل .

إنه يمضى بسرعة ، خطواتهم أفسح مما كانت عليه فى المسافة الواقعة بين حجرته والمصعد فوق ، ربما لأن الممر هنا مشجع بخلوه وطول مسافته لكم يبدو الممر طويلا بالقياس إلى حجم المبنى كما يذكره من الخارج ، لا أبواب على الجانبين ، جدران مصمتة ، لون الطلاء ينتمى إلى تدرجات البنى الفاتح ، مستو ، لاظلال ، لا صوت لخطواتهم أو تقدم العجلات ، اهتزازات خفيفة لا تلاحظ ، لا يدري هل يمر بالمكان أم أن المكان يمر به ؟ ، ينتهى الممر إلى آخر متعامد عليه لكنه أضيق قليلاً ، جدرانه مرتفعة أكثر ، رغم أنه يبدو طويلا للناظر أول الخطو لكنه ينتهى بسرعة إلى صالة مربعة يتفرع منها ثلاثة ممرات ، كل إلى جهة مغايرة .

يلمس الأوسط كتفه ، ينطق لأول مرة .

«حظ سعيد» .

يومئ ، يستدير مع الآخرين ، اختفاء عند المنحنى ، إلى أين؟ لماذا تركوه وحيداً هنا؟ لا بد أن شيئاً سيحدث فجأة ، لا بد أن أمراً سيبدأ أو إجراء سيتخذ ، لأول مرة منذ بدء ترده على هذا المبنى المخصص بأكمله لمرضى القلب وجراحاته يجد نفسه وحيداً تماماً ، باستمرار كان بصحبته مرافق أو ممرضة ، عناية بادية خاصة بعد تمام العملية وصعوده إلى العاشر ، يستعيد وجنات تلك الشابة ، وعينيها الطفوليتين ، الأصوليتين فينتشى ، مادام القلب قادراً على

الرصد وإبداء المجاوبة فتلك نبوءة بالشفاء ، بدء اكتماله ، أى برد هذا ؟ صمت
ثلجى ثقيل ، معرات معقمة من الضوضاء وسائر مايمت إلى مزعجات أو منبهات
الحواس .

كم انقضى ؟

ليس لديه ساعة حتى يقيس الزمن ، سلمها إلى الأمانات مع مفاتيحه
وحافظة أوراقه ونقوده وبطاقة الطائرة وخطاب إلى زوجته فى القاهرة ، وآخر إلى
ولديه .

أى جزء هذا من البناية ؟

يذكر أنه طالع خريطة تدل المترددين فى المدخل الرئيسى ، لكنه لم يلمح فيها
أى تفاصيل حول تلك الممرات الطويلة ، أهو الآن فوق مستوى الأرض أو تحتها ،
لايمكنه القطع ، ينتبه إلى سكينته ، إنه هادئ ، منبسط لذاته ، راض بكل حال
يمر عليه ، هذا اللون الخالى من أى تموج ، الممتد ، غير المستقل للظلال ، وغير
المرسل لها ، كأنه يبدأ من نقطة ماعنده ، عناصره داخله ، لايفكر فى الانتظار ،
لا بد أن لكل شيء مقدارا ، هم بدأوا الأمر ، وهم سيتولون نهايته ، ماذا يمكن أن
يطراً أو يجرى ؟

يظهر اثنان ، حجمهما أقل لكنهما فارهان بالنسبة له ، الأبيض حليق الرأس
تماماً صلعة يول برينر ، وبعض أولئك الشباب الذى رآه أثناء أسفاره وأضممر
ناحياتهم الحذر والخشية ، الأسود بارز العضلات ، غليظ الساعدين ، لم يسأله ،
إنما أمسك يده وتأمل السوارين المحيطين برسغه ، كلاهما من البلاستيك ، الأول
أبيض خط عليه اسمه بحروف الحاسب الآلى ، الثانى أحمر كتب عليه بحروف
لاتينية : السلفا ومشتقاتها « يعنى ذلك تحذيراً حتى لا يتم اعطاؤه أى أدوية
تتضمن السلفا لحساسية ضدها ، هذا ما دونوه فى اللحظات السابقة على حلاقة

شعر صدره ، أثناء تجهيزه للجراحة ، ترى :.. أين الحلاقة المثلثة ، القادمة من الكاريبي ؟ أين ؟ هل شيراهما مرة أخرى ؟

يقف الأبيض الأصلع خلفه ، ينحنى ممسكاً بالمقعد ، كأنه ينتظر شيئاً ما ، إشارة خفية ، لابد أنهم متصلون بمركز ، بجهة ما فى هذا المبنى ، يثق أن أشخاصا لايعرفهم وإن يلتقى بهم يرصدون أحواله ، يتفحصون دقات قلبه وما يصدر عنه من إشارات ، كذا ضغط الدم وأمور أخرى لن يقف على تفاضيلها .

يدفع المقعد ، الزنجى يمشى إلى جواره ، كان الثلاثة خلفه وعلى خط واحد تقريباً . إنهما مختلفان ، الإيقاع مغاير ، خطوات أقصر لكنها أسرع ، يلجان المر المحاذى لذراعه اليسرى ، لاينبئ مدخله بمدى طوله . إنه ممتد ، ممعن حتى ليبدو أضيق الطرق التى تنبسط إلى ما لا نهاية .

باب

مستطيل ، كأنه مرسوم ، مجرد خطوط .

باب آخر

مصراعان متضامان ، أبواب حقيقية تؤدي إلى فراغات تالية محددة أم وهمية تفضى إلى معان مجردة ؟

لايمكنه الإجابة . الخطوات أسرع ، يركضان ، تتوالى لفات العجلات ، فى لحظة معينة تبادلا دفع المقعد ، يمسك بالمسافة الضئيلة التى مضى فيها بقوة الدفع الذاتى ، يمتد المر مسافة تتجاوز ما رآه منه فى بدايته ، كأنه يتمدد ، أو تولد منه مرحلة إثر الأخرى ، تهدأ الحركة تدريجياً ، صالة مستديرة ، يوقفون المقعد فى المنتصف تماما بعيداً عن أى جدار ، ضوء أغمق ، تكتمل الظلال مندمجة ببعضها فى المواجهة ، لايمكنه اختراقها بالنظر ، لايعنيه مفارقتهم له ،

يثق أن ثمة من يتتبع أحواله ، من يراقبه من مكان ما فى البناية ، موضعه معروف، حيزه محدد فى الممر ، لايعنيه الزمن المنقضى هنا ، وإن تمنى العودة إلى غرفته ، كل البناية غريبة عنه ، وأيامه فيها محددة ، مؤقتة ، أيام دقيقة ، بعضها حرج ، فى موضع ما شقوا صدره ، وأمسك الجراح بقلبه ، أعاد وصل شرايينه ، لايعرف شيئاً عن الغرفة التى احتوته طوال الساعات الست والثلاثين التالية ، لم يرها ، ما يذكره ألوان تتوزع داخله وليست حوله، كلها تنتمى إلى اللون الفيروزى ، يستعيده بدهشة ، بخوف ما ، إنه لون الأبدية ، الزرقة المصهورة ، المتساوية ، المؤدية ، يوقن بوجود ما لا يمكن تعيينه أو تحديده ، فى الأمر شيء ، فى الأمر شيء !

متى يعود إلى غرفته ؟ إلى نقطة ارتكازه التى أفاق عندها ، يجثم عليه ثقل ، يضطر إلى إغماض عينيه ، لا يذكر من قال إنه سيمضى زمن يغفو فيه فجأة ، يدركه الحذر بغتة ، تأثير المخدر طويل المدى ، إن توالى الساعات مع فقدان الوعي أمر وعر .

يفتح عينيه على تحركه مدفوعاً ببسر ، بلطف إلى الأمام . يلتفت يقابل بابتسامة حانية . مترفقة ، أنثوية ، شابة ، طويلة ، نحيلة ، لاتشبه كاترين اليرابا ، طفولية الوجنتين ، له مرجعية أنثوية هنا أيضاً ، أليست أول من تعلق بها بصره بعد افاقته ؟ حقاً .. ما أجمل حضور المؤنث فى سائر الأحوال ، داخله مفاير الآن لمجرد أن مراقبته امرأة ، لايعرفها ، ربما لن يلتقى بها أبداً ، لن يحتفظ بعلامتها ، لكن يلفحه أريجها ، ينعمه ويدله ، إنه فى حبور وتأهب .

الممر أضيق ، حوافه أميل إلى الشكل الدائرى ، مع تقدمه تتضح أسطوانيته ، لم يلحظ تحوله من مربع إلى أنبوى ، لكن .. كيف تتزن العجلات ؟ كيف تحافظ على توازنها ؟ لابد أنهم أعادوا لكل شيء عدته ، مايلائمه ، لكن عنده حيرة ، تلك

المسافات المتوالية . فى أى حيز تقع ؟ ، هل يتحرك فى إطار البناية أم خارجها ؟ ما رآه منها قبل إقامته بها لا يتسق مع طول الممرات ، وتعاقبها ، هل يمضى فى خطوط متوازية ؟ لكنه لم يشعر بذلك ، إنه مدرك للاستقامة الطولية ، المسافة خلت من الانحناءات ، يتوقف المقعد فجأة عند مساحة مستطيلة ، ضيقة لكنها محددة ، مرتفعة السقف ، ينتهى عندها الممر ويبدأ آخر من الجهة الأخرى ، تستدير الحكيمة أو المريضة ، تواجهه ملامسة خصرها بيديها ، تشير إلى باب فى مواجهته ، عند إقترابها منه يفتح على مهل ، تدخل ، يتبعها ، ترتدى معطفاً خفيفاً لكنه من مادة تشبه الجلد .

جهاز للتصوير لم ير مثله ، تتحرك أطباق معدنية متصلة به مع ضغط أصابعها على أزرار صغيرة ، لوحة مضيئة ، أرقام صغيرة ، إشارات لامعة موجية .

تشير إليه أن يتجرد من الرداء الأزرق المنقوش بوحدات هندسية بيضاء ، بعضها مستدير والآخر مثلث ، ما من ملابس داخلية ، مجرد قميص خفيف أبيض ، بحركة سريعة يفك الرباط الملامس لعنقه .

إنه تماماً فى مواجهتها ، لا يداخله أى خجل ، ولا يغطى عورته بيديه ، ولا يسرى بينهما ما يمكن أن يتصل بين الرجل والمرأة ، جرحه مازال طرياً وقدرته واهنة ، مسرور بحضورها ممثلة لجنسها أكثر منها حالة خاصة كتلك التى اتصلت بينه وبين كاترين لومضات مغلقة ، فلتطلب منه العرى ، الالتصاق بالجهاز ، الانحناء قليلا ، نفس عميق التوقف ، إطلاقه ، التطلع إلى الأمام ، تلامس كتفه ، تبدى حزماً ، إنه موضوع للفحص ، يجري التأكد من شئ ، ما لا يعرف كنهه بالضبط . يتزايد البرد ، ثمة مصدر خفى يبت القشعريرة ، تكتكات متعاقبة ، صمت ، تشير إلى الخارج ، يتناول الرداعين ، يلتحف بهما ، لابد أنها ستلحق به ، يقعد فوق الكرسي ، الضوء أخفت ، يتحرك مدفوعاً ، يتجاوز الصالة المستطيلة ،

يلج النفق الأسطواني ، الفراغ مكتمل الاستدارة ، لابد أنها مضطرة إلى الانحناء .

يلتفت

لا أحد

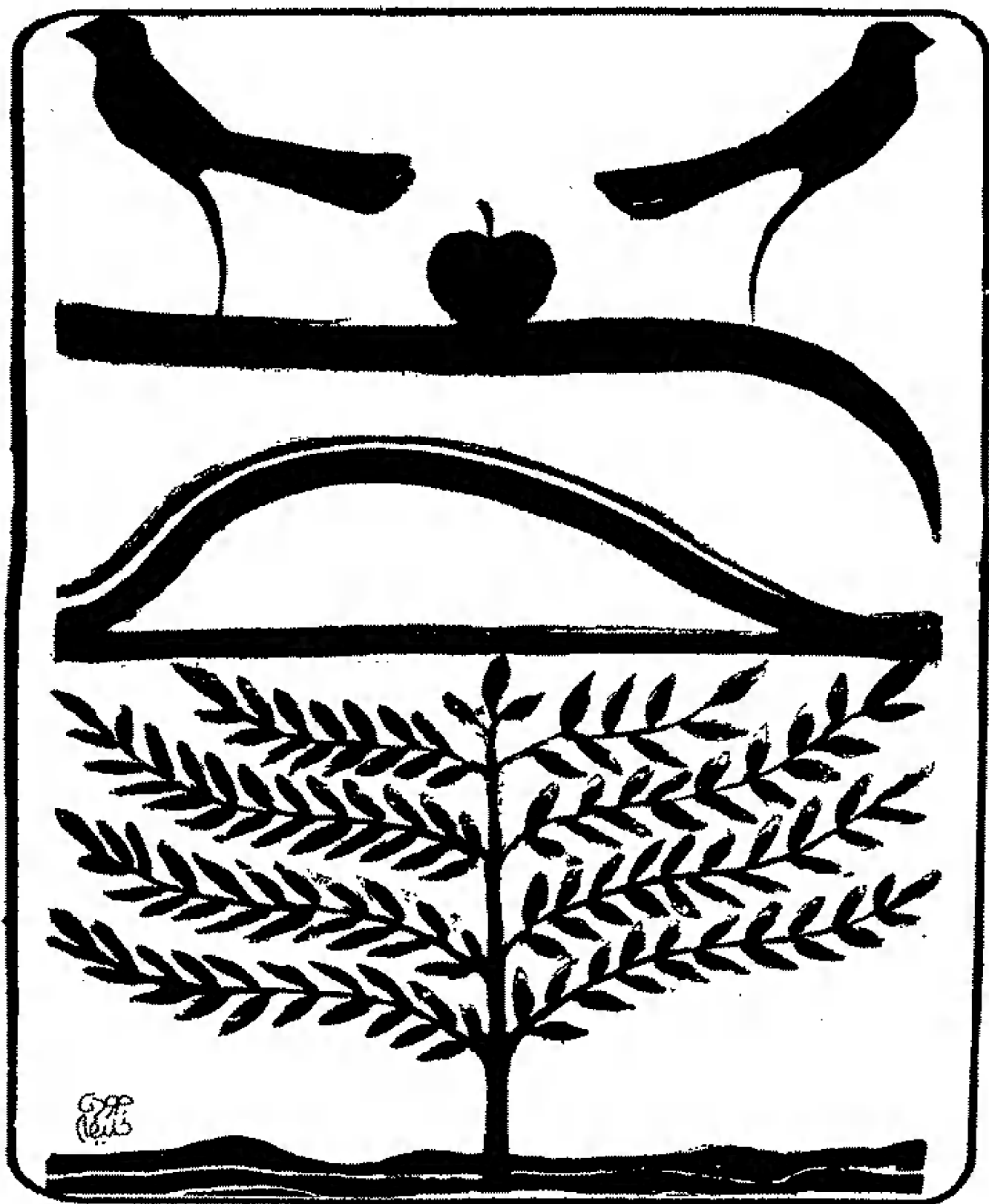
من يدفعه إذن ؟

إلى أين ؟

يتداخل في بعضه ، سكونية سارية وخشية مستعدة وقناعة بضرورة عبوره هذه الوحدات المتعاقبة ، الممرات المتوالية ، الضيقة ، أصدااء بعيدة ، تعمق الصمت أكثر مما تبدده ، يضيق الممر ، يكاد يلامسه ، لا يمكن مرور شخص آخر ، واحد .. لا غير .

مصطلح

قبو



القبو صون وسستر وخباء . لذلك فيه الحفظ ، الرحم قبو ، تستقر فيه بذرة الحياة ومصدر نموها بعد تمام وفادة العنصر الملقح ، من ينجح في قطع المسافة وسبق الملايين من أقرانه ، حتى إذا امتزج بالبويضة الكامنة ، المتوقعة ، فنى فيها ، تتغير أحوالهما ليبدأ فصل جديد ، لا يمكن تصامه إلا بداخل حيث محل التكوين ، به تتميز الأنثى وتزهو قلها الحق .

للإنسان بنوعيه أقبية شتى ، منها ما نعرفه ولا نقدر على رؤيته ، مجرد مشاهدته هلاك له . مثل المخ والقلب والمعدة والرئتان وما بين الصلب والترائب عند الذكر ، والبويضة التائقة ، المنتظرة المنتصرة بخروجها إذا طال انتظارها . كذلك مسارات الدم وما لا نعرفه من سائل حافظة ، حيوية . ومثل ذلك كثير .

أما ما لا نعرفه ، ما لم نقف على محله وعناصر تكوينه ودعائم كينونته فتلك الأقبية الخفية القابعة في الروح ، حيث بواعث الذكرى وعوامل الانتقاء المؤدية إلى استعادة لحظة دون غيرها ، أو راحة معينة دون مثيلاتها ، وهبات الحنين المؤدية إلى بث الحيوية في الصبوات العتيقة ، بواعث الآلام المجهولة أو المألوفة وتلك أسهل على المرء إذ إنه يتوقعها ، لكن المخيف كل جديد ، طارئ .

ما لم نقف عليه من قريب أو بعيد فإنها أقبية الكون ، حيث تتوالد النجوم وتفنئ المجرات وتلتهم الثقوب السوداء كافة ما يقترب منها ، ما تطاله ، أو ما يصدر عنها ، حتى الضوء وكل خافت نمنام ، هماس ، من يدري ؟

ربما كان هذا الكون الظاهر للحواس مجرد قبو يخفى ويحفظ سائر ما يضمنه لغرض ما . كل ما يتعلق بالوجود جائز ، طالما أننا لم نقف بعد

على بدايات المسار وغاياته ، وأسباب سموه ، وخفقه ، أى بداية تعنى نهاية مهما امتد الأمر فى الزمان والمكان .

الأقبية أمرها قديم منذ أن حفرتها الرياح وتوالى قطرات المطر ، ومسارات التسمات والهزات الخفية ، وإدراك الإنسان ما يطرأ على جسد مثيله بعد التمام وضرورة إخفائه ، مواراته .

الأقبية أمرها قديم ، سواء لإقامة الحى أو دفن الميت ، ومنذ أن بدأ المهندسون الفراعنة الأوائل ، خططوا أوضاعهم وحددوا مسارات الأشياء ، قبل مجئ أمحبب (توت فيما تلى ذلك من قرون) وإليه ينسب تركيز الأمور وأقرارها ، واطهار قبس منها فى هرم زوسر المدرج .

هو القائل لكل بنساء قبو ، وفيه يكون السر ، وهو الذى قرن بين جسد الإنسان وأبعاد العالم ، ومنه استلهم البداية والنهاية ، والخطوط الفاصلة ، وما خفى وما ظهر ، فثمة أمور معينة ، مبثوثة ، متساحة داخل البناء ، مغرية ، جاذبة بما تحوى ، لكنها ليست إلا وسائل تمويه على أخرى أهم .

ليست الأقبية إلا إشارات على الحضور والغياب ، المصير والذهاب ، الحقائق الجلية والأخرى التى لم تدرك بعد ، لذلك عد توصلهم إلى الباب الوهمى ذروة ولحظة فاصلة ، دالة ، تماماً كذروة الهرم ، الأمر فيه مائل أمام البشر كافة حتى وإن لم يدركوا مغزاه ، يتخذ أشكالاً شتى من مستطيل أو مقبب أو محراب لكن الدلالة واحدة .

القبو ضد للباب ، لكنهما وجهان لأمر واحد ، الأصل فى كل منهما الخفاء ، لو ظهر لانتفت صفتة ، لذلك كان التخمين أيسر الطرق لإدراكه ، عند تمام بلوغه ينتفى كل شيء .

القبو سند الباب ومستودع أسرار العمارة . ليس ضرورياً أن يكون تحت سطح الأرض . ربما كان معلقاً كتلك الأقبية

الداخلية الموزعة على مستويات متعددة داخل الأهرام ، أو على جوانب الممرات المحفورة فى الصخور ، المؤدية .

كافة ما خفى يعد قبواً حتى وإن ظهر ، كل خفى غائب ، القبو مستتر طالما أنه قائم بمهمته التى صمم من أجلها ، أن يحفظ ، أن يصون .

ما يطول احتجابه يسزداد قيمة رغم غيابيه ، وأثمن الموجودات ما انقضى عليه الوقت ، كل بناء يحتاج إلى قبو ، لكن كل قبو لا يحتاج إلى عمارة ، إنه ملموم ، مضموم ، وفى معظم الأحيان يتبدد سره إذا خدش أمره .

الأمر دقيق . لكننى سارد واقعة ذكرها واحد ممن تخصصوا فى علوم الأقدمين ، وكشف عن أقبية لم تفتح منذ آلاف السنين ، وخطا داخل ممرات آخر بشر تنفسوا هواءها مضى عليهم أكثر من عشرين قرناً ، أعنى العالم العلامة سامى جبره ، وهو مكتشف مقار عبادة الهة المعرفة توت فى الأشمونين بمصر الوسطى . وليس الاله توت إلا نسخة من المهندس أمنحتب بعد ألفى عام . أمنحتب هندس وخطط وجمع فأرشد وصاغ ، ولغزازه فيوضاته المعرفية وجمعه ما يتعلق بعمارة الإنسان وأسرار البنيان ومعنى مزوجة الحجر بالحجر ، والتمييز بين العلو والسفل ، هنا لابد من توضيح انطلاقا من قول الشيخ الأكبر فى كتابه التدبيرات الالهية فى إصلاح المملكة الإنسائية ، أن الإنسان نسختان ، نسخة ظاهرة ونسخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الالهية ، فالإنسان هو الكلى على الإطلاق والحقيقة .

هذا ما أدركه أمنحتب ، فليست النسخة الباطنة إلا قبو المعارف والإدراك ، غير أن ما ظهر لنا وقت هذا التدوين ان الإنسان ليس نسختين فقط ، إنما نسخ ، فإلى جانب ما خفى وما ظهر تتجسد أحواله

منذ الميلاد وحتى الفناء ، كل انتقال من لحظة إلى أخرى يتجدد النسخ ، ومن نعرفهم وندركهم ثم نسلقاهم بعد غيبة ، يختلف أمرهم ويتفق ، فهم هم من الظاهر ، ولكنهم ليسوا كذلك في الجوهر . كذلك المكان ، وبالأخص البناء ، نمضي إلى المواضع التي ارتبطت بها أيامنا الآمنة ، الحميمة . فلا نجدنا رغم مثلها ، وتغرب عنا رغم أنها قائمة ، جليلة ، متصلة الجدران ، لكل امرئ قبوه . داخله أو مصاحب له من خارج ، وأوضح الأمور ما جرى تلخيصها في الحروف والأرقام ، والخلاصة منها ما قسام به البنيان ، مثل الأساس ، والحامل والمحمول ، والفناء والدرج ، والباب ما سمح بالاجتياز أو اكتفى بالإيماء إلى الخبايا الكامنة في أقبية الآفات غير المرصودة ، التي غشاها ما يغشى ، فاستعصت .

الأمر كما ألمحت دقيق ، والوصل يبدو قائماً بين الأعمدة وظلالها ، لكن الهو الفاصل سحيق وعبوره مستحيل بما نعرف من وسائل ، لا يتوقف توالد النسخ البشرية بعد الغياب الأبدى ، فمذ القدم أدرك الفراعنة أن الإنسان ذكرى ، ولذلك توصلوا إلى الأسماء فحددوا النغمات والمقامات ، وتغننوا في حفر الأسماء على الجدران وأخفائها عن المتطفلين ، اللصوص ، الساعين إلى انتهاك المقدس ، طالما أن الاسم يتردد فصاحبه لم يرحل ، يكون ماثلاً بشئ ما . لكن التغير يلحق الاسم أيضاً ، من هنا لا علاقة للحكيم ، العلامة المنحسب الذي كان جوهر وقته بالنسبة لما نذكره الآن ، أو ما اعتقده القوم بعد أكثر من ألفى عام على تمامه ، حتى ملامحه تبدلت ، وشمل ذلك اسمه أيضاً ، عبده القوم باسم الإله توت ونسبوا إليه كل معرفة ، وأصل العلوم كافة ، في لحظة ما تتبدل النسخ المتداولة بأخرى وربما يلحق التغيير الاسم أيضاً فتتقطع كل صلة في الظاهر ولاكتشاف الأمر لأبد من إمام وفحص وطول درية ودراية .

يطول الحديث إذا فتحنا الكلام فى التسخ الخفية ومنها ما يدرك بعضا منه فى الأحلام ، وكل حلم إنما يجرى فى قبو ، واليقظة تعنى تبدده وتذريته ، وقبل أن أذكر ما عاينه الأثرى المنقب أنثنى إلى الحجرة المغلقة فى قصص ألف ليلة وليلة ، إنها الحادية عشرة أو الثالثة عشرة ، عندما ينزل حسن البصرى فى قصر بديع ، ويكون من شروط الإقامة التمتع بكافة ما يحويه عدد الغرفة المغلقة ، قبو الأسرار ، ويستجيب فى البداية ، إذ يكون بلوغ القصر بعد عناء شديد وصعاب جمة . لكن بعد مضى بعض وقت يبدأ الفضول عمله ، ويقاوم النزول ، المقيم ، غير أنه بعد تردد يقدم ، فتكون النهاية مع هناك السر ، بعد فتح الباب ، أما أن يقوده القبو إلى مهالك شتى ، أو يلقي حصانا مجنحا فى انتظاره يعود به إلى نقطة البداية . حيث الشقاء والهم وسريان المشقة .

غير أن ما جرى للعالم المنقب سامى جبره يفوق هذا كله ، إذ جرى الاستنفار يوما وبلغ الاستعداد أقصاه ، ذلك أنه كان مقبلاً على لحظة يتمناها كل عامل فى البحث عن آثار القدامى ، أن يقدم على رؤية ما طال حفظه فى قبو مغلق ، محكم ، وهو من سيفضه ، هكذا مشى ونيدا فى العمر المنحدر المؤدى ، يتنسم الهواء المعتق المعطر ببقايا زيوت مندثرة ، وهبوب مجهول المصادر ، إنها الأسرار التى لن تفكها لفسة ولا تكشف عنها رموز .

لا بد لكل قبو من مسافة مؤدية . مر أو درج ، القبو مؤجل حتى اللحيظات التى يقع فيها الفض .

كل المعلومات والإشارات السابقة تدل على مرقد لانات من علية القوم ، لكن بعد انتهاء المغاليق ، الإصغاء إلى صرير الباب الذى لم يفتح منذ ألفى عام على الأقل .

سرى شعاع الضوء فمس الرقدة الأبدية ، انتهت رحلة الأشعة الشمسية ، المنبعثة من الأوار الملتهب إلى الحيز المكنون ، وكانت مفاجأة .

فقط تابوت واحد من حجر جبرى أبيض مائل إلى الوردى ، مفتوح بدون غطاء ، تتمدد داخله ، كأنها أغفت منذ لحظات لا غير ، مكملة البهاء ، إغماضة عينيها تحديق وظلة إلى الماوراء ، إلى ما يصعب رصده بالبصر ، سلام ملامحها مطمئن . مهدئ . أما فتنتها الصابرة فضارية ، ثدياها مقببان ، لهما استدارة الكون وبزيزة الحلمتين ، المدرتين ، كأنهما سيتفجران بالغذاء السخى . يطنها مخمض ، مؤد بانحداره إلى قبوها المتين ، المصون ، ومبرز لنهوض وانبساط فحذيها ، يغطى هذا كله رداء رقيق من نسيج طيفى شفيف ، للأزهار المصطفة على حافتى التابوت زهوة ، أما رائحتها الأنثوية الخاصة ، فلكل امرأة عبير يخصها ولا يتكرر أبداً فكانت تعيق الموضع كله .

كل ما ينبعث منها حاض ، محرض مستفز للكوامن ، بدت متأهبة ، متطلعة إلى القدوم . حتى أن الرجل بدأ يدنو منها حذراً . منتشياً بتلك البواعث الغامضة ، ومضت إليه قشعريرة لا يمكنه القياس على مثل لها .

لم يخطر بباله قط أن يلمسها رغم الأحاسيس الغامضة التى أمضى عمره يخشى مجرد استعادتها مع طوافه دائماً بذلك الوقت القائم بذاته ، بدأت أصوات العمال فى الظهور . قدر أنهم عند بداية العمر . مد يده للإمساك بالفاقة البردى البادية فوق اكليل شعرها المصفف لكنه كف ، بل تراجع ، كأنها توشك على الحركة ، لكنها نبضات ذاهية . آفلة .

مع اعتياده على الرؤية ، مع تدفق الضوء إلى القبو الضام
الحاوى ، يتغير لونها ، بدأ تدريجياً على مهل لونها يتحول إلى
قَتامة ، بقدر مجئ النور من الخارج تتحول إلى كائن معتم ،
تتداخل معالمها ، يذوى شعرها ، جبهتها ، عيناها ، عنقها السباسبى ،
صدرها ، خصرها عمارتها اللدنية .

يكتمل الضوء

لا يبقى منها إلا رماد هش ، لا يمكن جمعه أو الإمساك به . هنا
أنقل عن سامى جبره نص ما دونسه بالانجليزية ، وترجم فى
كتابه المطبوع بالعربية .

«حاولت أن أبرئ نفسى . فلم أجِد هناك من سبيل سوى أن
أعاهدها على ترديد ذكرها ، وذكر قصتها على سمع كل زائر متمنياً
أن يحقق الله ما كانت تتمنى ويتمنى أهل زمانها من وراء المسوت ،
ولقد ظل خيال تلك المسكينة يطاردنى دهرأ ، خاصة حين يقبل
الليل ، ولسوف أذكرها وأعتذر لها ما حييت ..»

رغم علمه ودرايته وندمه الذى لن ينفعه أو يفيدده ، إنه هو
نفسه بدأ تلاشيه مع تمام اختفائها ، وأن الضوء الذى فض عزلة
القبو وصيانتته دفع به أيضاً إلى حيث لا يمكن الوقوف عليه
الآن ، لم يحط علما بأن لكل سر ، سرا !

حكاية

قصير



GPP
1970



بعد ذبوع ما جرى فى القصر وتناقله عبر الأفلاك ، وانتشاره بلغات شتى ، شغل كثيرون بأمر البارون والقصر ، معلومات بلا حصر وأحاديث واهتمام واسع ، لكن ما من صورة واحدة نشرت للبارون ، وما من معلومات موثقة ، لها صفة المرجعية ، أما الخفير فلم ينطق !

الشائع من أمره أنه جساء من بلد أوربى ، اختلف فى أمره ، قال البعض إنه فرنسى ، وقال آخرون إنه بلجيكا ، ودللسوا على ذلك بتسييره أول خطوط للمترو عرفتھا مصر قبل بداية تشغيلھا فى أقطار أوربية ، كل عرباته بلجيكية الصنع ، أطلق عليها الناس صفة الأبيض بسبب غلبة اللون على جسوانبه ومقدماته ، كانت العربيات تقوم من مصر الجديدة كما أطلق البارون على الضاحية فارغة ، وتقطع المسافة حتى العباسية آخر حدود القاهرة العامرة وقتئذ . ويؤكد كمسارى معمر أنه أمضى ثلاثة شهور كاملة بدون أن يقطع تذكرة واحدة ، كانت العربات تقوم فارغة وتعود كذلك ، أما المباني الفسيحة ، المشيدة على الطراز العربى ، ذات الأبراج والممرات الفسيحة التى تظلل المسارة من حر الصيف ورياح الشتاء الباردة ، فبقيت سنوات عدة لا يقربها أحد ، ولا يقدر على تأجيرها إنسان ، حتى اضطر البارون لإنجاح مشروعه ، وإغراء الناس بالتردد على الضاحية الجديدة أن يستقدم فرقاً للألعاب من أقطار مختلفة لتقديم عروضها فى أول مدينة ملاحى تقام فى الشرق كله ، وكان اسمها «لونا بارك» ، المعمرون يذكرونها جيداً ، أثناء تقديم العروض المبهرة يتم توزيع الإعلانات الداعية ، موضحة بالصورة المباني وأقسامها ومساحاتها ونظم تسديد أسعارها على سنوات بسبل ميسرة ، شقق فسيحة ، قصور بانخة ، يحيط كل منها حديقة فسيحة متعددة الطرز ، زخارف قوطية ، عناصر أندلسية ، واجهات عربية ، أعمدة فرعونية ، قباب قبطية ، فضاءات منطلقة ، حدائق سندسية ، أطلق عليها البارون هليوبوليس ،

ولكن المصريين اعتبروها مصر الجديدة ، هكذا سارت التسمية وشاعت وتجاوزت ما عداها .

لسنوات عدة بقيت الضاحية شاغرة تقريبا ، أقام البسارون عدة مآدب كبرى حضر إحداها الأمير محمد على ولى العهد ، لكن تلك الحفلات الناعمة لم يقيمها فى القصر الشهير ، ذلك أنه لم يكن قد استقر به بعد ، إنما تمت كلها فى الفندق الفسيح ، متعدد الطوابق ، فاخر التآثيث ، ثبتت فى ممراته وحجراته التحف النادرة والمرايا المؤطرة ، والسجاد اليسوى شيرازى المنشأ .

كان الفندق من المعالم ، تقلبت أحواله ، وتبدلت معالمه مرات ، قصده أثرياء الدنيا مباشرة خلال العهد الملكى ، وأقاموا به فى الشتاء سعيا لاستنشاق هواء الصحراء الخالى من التلوث . كانت الأجهزة المعنية فى أوروبا تعتبر الضاحية من أنقى مناطق العالم وأبعدوها عن التلوث ، إضافة إلى قرية كرواتية تقع على الطريق المؤدى إلى مدينة موستار ، وبحيرة جبلية فى مرتفعات كردستان العراقية .

فى الستينات بعد تأميم الشركة الأجنبية التى أدارت الضاحية لمدة ستين سنة منذ أن أشهرها البارون ، أهمل أمر الفندق ، ثم تحول إلى مكاتب ومقر للحكومة الاتحادية ، بعد وقوع الانفصال بين مصر وسوريا أصبح مقراً للحكومة المركزية ، تحولت الحجرات ، التى شهدت ما شهدت ، إلى مكاتب للموظفين ، ثم جرى تجهيز قاعة الرقص الدائرية وعقد فيها أول مؤتمر للقمة الإفريقية ، أهمل أمره مدة ، ثم جرى اهتمام به ، وأعيدت صياغة أجنحته وممراته وقاعاته ، وأصبح مقراً رئاسياً وقت هذا التدوين ، فيه تدبر الأمور ، وتخرج التصريحات المؤثرة .

كل ما خطط له البارون جرى ، ازدحمت الضاحية ، اتصل العمران بينها وبين العباسية ، وتجاوزها من الجهة الشرقية حيث مدينة نصر ، ومن

الشمالية حيث المطار ، كل شيء تحقق أمره كما تتبأ البارون عدا القصر .

لغز قائم ، موضوع محير ، بناء غامض ، مرهوب الجانب ، غير محرض على المغامرة رغم كل ما يقال عن كنوز خبيثة وأموال دفيئة مضمرة من الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين .

يقع القصر شرق الضاحية ، في البداية كان منفرداً ، غير محاط بشيء عدا السور الذي مازال قائماً وتتخلله بسوابة واحدة تؤدي إلى الممر الذي لابد من عبوره للوصول إلى أول الدرج الفسيح المؤدى إلى المدخل ، هذه المسافة الفاصلة تهيء الإنسان بشكل ما . هل يتعرض لمؤثرات مصدرها تلك النقوش الغامضة فوق الواجهات الأسامية والأبراج الجانبية أم توجد أمور أخرى لا يمكن تحديدها ؟

اختلف القوم من عقد إلى آخر ، بل من موضع إلى موضع ، لكن من الثابت أن العمران لم يسر إلى الضاحية إلا بعد اكتمال القصر ، إذن متى بدأ البارون في تشييده ؟

ما من إجابة قاطعة ، لكن المهتمين بتاريخ الضاحية يؤكدون أن التخطيط الأصلي لم يحسب على أي موقع لهذا القصر ، وأن البارون لم يقض فيه ليلة واحدة ، بل لا توجد وثائق تثبت ملكيته إلى شخص بعينه ، حتى ولا البارون الذي خطط لإقامة الضاحية وبذل من أجلها الجهد وصفوة الابتكار .

حفلاته أقيمت في الفندق ، جميع الشخصيات التي استضافها نزلت فيه ، أما هو فكان ينتقل بين ثلاثة أو أربعة أماكن للإقامة ، بل كان يمكنه فتح أي بيت ودخوله وقضاء ما يريد من وقت ، بسنوات عديدة كان مقيماً بمفرده في الضاحية ، غير أن الإقبال تزايد فجأة ، قبل مد خط الترام الأبيض ،

السريع ، وقبل أن تثمر أشجار الحدائق الفسيحة التى خطط لها بعناية ، وكان يسقيها بيده صباح كل يوم ، وبمجرد اكتمال القصر بدأ توافد الناس .

ما من إجابة محددة ، ما من وثيقة مؤكدة ، تؤكد أو تؤرخ أو تلمح للتاريخ الذى بدأ فيه بناء القصر ، هنا يقول عمدة النوبيين الذى تخطى التسعين ، وحاز ثقة البارون ، حتى أنه أمضى سنواته الأخيرة لا يتناول طعامه إلا من يديه ، ولا يشرب إلا ما يقدمه إليه . يقول النوبى العجوز الذى اتخذ من مقهى قديم مطل على الجامع مقراً له بعد تقاعده ومغادرته الخدمة ، واحترافه أعمال سمسرة صغيرة تكفل له رزقاً يحفظه من مد يده إلى قريب أو غريب ، يؤكد أن القصر بنى فى ليلة واحدة . نام القوم ولم يكن موضعه إلا خلاء لا يجروا أحد على الدنو منه لوحشة الناحية وبعدها عن الضاحية المهجورة أصلاً .

استيقظ الناس ليجدوا هذا البناء الفريد فى هيئته ، الغريب فى قسماته ، لا يماثله بناء آخر فى القاهرة ، أو أى مدينة أخرى ، بمجرد ظهوره ومثوله فى الفراغ بدأ النحس يفك عن الضاحية الجديدة ، حتى أن المساكن والبيوت المستقلة شغلت خلال سنة شهور فقط بعد أن ظلت ما يقرب من عشر سنوات فارغة ، مهجورة ، رغم كل الإغراءات المعتادة والمستحدثة .

ما العلاقة بين اكتمال القصر وعمارة مصر الجديدة وإقبال الناس عليها ؟

ما من تفسير عند النوبى أو غيره ، لكن لم يتوقف أحد من المهتمين أو نوى الصلة ليحاول بحث الغرض من إنشاء القصر ، الطبيعى أن الإجابة الفورية التى ستخطر على الذهن تدور حول اتخاذ مقرأ للبارون ، لكن المؤكد أنه لم يقض فيه ليلة واحدة ، ربما شهود يتجول بالحديقة التى حفلت بكل نادر من النبات والأشجار قبل أن تجف وتخرب فى الخمسينات بعد انقطاع المياه تماماً عن

تلك الجهة لمدة عام . لم يتبق إلا بعض أنواع نادرة من الصيبار، قيل إن مصدرها المكسيك .

النوافذ مغلقة ، لم تفتح ، الأبواب الرئيسية والجانبية كأنها مصمتة ، ثبت من التدقيق الذي تم بعد الأحداث أن بعضها وهمى لا يؤدي إلى شيء معروف ، دائماً مغلق ، مشرف ، باعث على الرهبة ، جالب للصد ، مرجف لكل من يخطر بباله أن يجتاز السور وأن يقتحم بحثاً عن مغنم سهل أو صعب ، لذلك لم تسجل محاضر الشرطة واقعة واحدة طوال ما يقرب من تسعين عاماً تتعلق بمحاولة سرقة أو تسلل أحد الغرباء . ربما لعدم وجود من يبلغ أو يشكو ، ولكن بعد ذبوع أمر الأحداث الأخيرة ، تردد أن خفياً من الصعيد يقيم بشكل دائم لحراسة القصر . يتخذ من غرفة صغيرة إلى يمين الداخل مقراً ومأوى ، غرفة تبدو جزءاً من الجدار وردى اللون ، نفس لون القصر ، تلك الدرجة من اللون التي تبدو متربة ، غابرة .

« من جاء بك إلى هنا ؟ »

« أبى .. »

« وأين أبوك ؟ » .

« توفاه الله منذ زمن .. » .

« ومن أتى به ليكون حارساً للقصر؟ » .

« البارون » .

قال فى المحضر الرسمى إنه من أسرة خدمت البارون منذ مجيئه إلى القاهرة واختياره موقع الضاحية ، لم يكن ثمة شيء إلا الخلاء والرمال ، وكم من ليال أمضاها البارون فى خيمة صغيرة ، لم يصحبه وقتئذ إلا والده الصعيدي المولود فى قفط ، والمدفون فى حديقة القصر .

« أين ؟ » .

« لا أعرف .. لكنه هنا .. » .

« مع البارون ؟ » .

« والله يا بك لا أدري ، أنا جئت من البلد لأتسلم ما تركه لنا الوالد . وعندما قيل لى إننى يجب أن أشغل مكانه كما أوصى لم أتاخر » .

« من سلمك متعلقات الوالد ؟ » .

« البارون .. رحمه الله » .

« أين هو ؟ »

* تطلع الخفير الجنوبي إلى القصر ، ولم ينطق ، إنه ذلك الصمت الرادع ، الجرائيتى ، لا يشجع المستجوب على الاستمرار ، وبمثله أخفى أهل الوادى الكثير من أسرارهم الحميمة وما يتعلق بخباياهم عن ممثلى السلطة ، ورجال الدرك .

تحرّيات مكثفة حول الخفير وأقاربه ، وفى أحد الاجتماعات الأمنية رفيعة المستوى طرحت فكرة اعتقاله طبقاً لقانون الطوارئ ، أو إقصائه ، غير أن قيادة أمنية مهمة أكدت استغلال الخفير للقصر فى أغراض مشينة غامضة ، وأنه سمح لبعض الرجال والنساء بدخول الحديقة ليلاً ، الحديقة وليس مبنى القصر نفسه ، وأنه تقاضى أموالاً طائلة من هؤلاء الشبان المضللين ، المخدوعين ، الذين لم يلقوا من نويهم رعاية ، وأجرى أبائهم الغائبون المال عليهم ظناً منهم أن فى ذلك تعويضاً وتسديداً للذنوب الكامنة . لم تهتم القوى السياسية باستيعابهم وغابوا عن حسابات القيادة المركزية فوجدوا من يملأ عقولهم بالتضليل والإفك ، استجابوا إلى الدعوة وصدقوا إفك المريبين من الوافدين والمقيمين المضللين واتجهوا إلى

عبادة البارون ، بدأ ترددهم على القصر سعياً وفضولاً ثم تيركاً ، أدوا شعائرهم فيه . وأصفوا إلى من يتلو عليهم مقاطع من سيرته ، كيف قدم عبر البحر إلى الصحراء القاحلة ، لم يمض ساعة واحدة في المدينة الساحرة، التي كانت مقصداً للرحالة والمغامرين والقادمين من الغرب والشرق، بحثاً عن الكسب والإثارة وللفحص والمعاينة ، جاء مع النوبى وضرب خيمته ، وبدأ يصيغ المكان على هدى من إلهام يتلقاه مباشرة عبر أشعة النجوم ، لكن قبل الخوض في تفصيل هذا كله يجب التوقف عند خصائص هذا القصر . ما ظهر منها وما بطن .

أما الظاهر فغرابية بنيانه ، إذ لا يمكن إرجاعه إلى طراز معين ، لكن أساتذة العمارة يقولون بغلبة العناصر الهندية ، ربما شجعهم على ذلك الأبراج المنقوشة بالأقواس المتدرجة ، الصاعدة إلى تلاش مكين ، غير أن أحد أساتذة العمارة بكلية الفنون معنى بتطور النواحي العمرانية للقاهرة والتأريخ لها . رصد ما لم يصدقه الأقربون منه ، الوثائقسون به ، عدا بعض تلاميذه ، منهم ثلاثة رصدوا بين المترددين على القصر فيما بعد ، لاحظ الاستاذ أن الصور الملتقطة عبر مسافات زمنية غير متشابهة ، كئن البناء مغاير تماماً في كل منها ، الأبراج مثلاً في الصورة الثانية الملتقطة خلال الثلاثينات كانت تبدو منفصلة عن المبنى الرئيسى ، المسافة واضحة ، يمكن لرجلين بالغير متجاورين أن يمرا من خلالها ، هذه المسافة لا وجود لها في الصور الملتقطة خلال الخمسينات ، في تلك المرحلة تبدو الأبراج جزءاً من المبنى ، تنطلق منه ، أما عددها فازداد واحداً لم يكن موجوداً في الأصل ، كذلك تختلف الزخارف والمنمنمات والنقوش وفي كل لقطة عدد مختلف لدرجات السلم الأمامى ، سجل أيضاً اختلافاً للمسافة الفاصلة بين المبنى والمدخل الخارجى الذى يتخلل السور .

أعد دراسة تفصيلية ركز فيها على النقطة الأخيرة ، خاصة أن بعض من تردىوا على القصر لأسباب مختلفة أكدوا ذلك ، إذ تفاوت إحساس كل منهم بتلك المسافة ، بعضهم قال إنها لم تستغرق أكثر من ثوان ، آخرون قالوا وأكدوا أن تغيرات جسدت عندهم خلال تلك المسافة القصيرة ، حتى ليكن القول إن أعمارهم تقدمت خلال هذه الخطوات سنوات بأكملها .

وهن ، شرود ، حيادية مفاجئة ، أقوال عديدة تتعلق بهذه المسافة لذلك تجنبها كثيرون وخلال الحقبة الثورية لم يسع أحد إلى تأميمه أو وضع يده عليه ، وخلال المرحلة الانفتاحية لم يجل بخاطر أحد المغامرين أو المتخصصين فى قنص العقارات التى اندثر ملاكها بالموت أو الهجرة أو الغياب الغامض ، ثمة مبان تسقط من ذاكرة المدينة ، قصر قديم ، مدرسة استخدمت زمناً ثم أغلقت لخلل أو خلاف ، يمر القوم بالأبسواب والنوافذ المهملة يومياً ويتطلع البعض ، وربما استخدمه البعض منهم فى أغراض عابرة ، اختفاء من مطاردة ، أو قضاء حاجة ، أو خلوة دفعت إليها الرغبة المحمومة ، وربما ينتبه بعض من لهم قدرة على النبش والتحرى فيضعون لافتة تعلن عن ملكية غامضة وتحذر الآخرين من الاقتراب . جرى ذلك لبان عديدة بعضها فى مناطق مختلفة ، منها المزدحم ، على مقربة من منشآت مهمة مؤسنة ويقف عليها حراس أشداء ، رغم كل التطورات ، لم يقترب أحد من قصر البارون ، التفسيرات بعيدة ودانية معاً ، ينحدر بعضها مما تردد حول الآثار الفرعونية فى الصعيد عن وجود حارس خفى ، رصد ، يلحق الأذى بكل مقترب ، باذل للمحاولة . غير أن عدم المساس بقصر البارون له أسباب أخرى ، عديدة ، ليس من بينها الخشية ، الأمر ما زال يحتساج إلى فحص وإسليم ، المبنى ليس مهجوراً تماماً أحيسافاً يتردد عليه خبراء العمارة من المصريين والأجانب ، أو زوار أو هواة آثار ،

يصحبهم الخفير ، أو يدعهم يتساملون النقشوش والأقواس والأبراج ، لكن إذا رغب أحد في الدخول يسرع إليه ليصحبه . لا يسمح إلا بإلقاء نظرة من المدخل ، خطوة أخرى يحتد ويغضب أيا كان الواقف إلى جواره، لكنه هو نفسه سمح بتردد أولئك الشبان ، ليس نهائياً ، لكن .. ليلاً أيضاً ، هذا ما تردد عبر الصحف وأجهزة الإعلام المختلفة ، عندما نشاع الأمر وأصبح على كل لسان ومحور اهتمام لمسة ليست بالقصيرة ، بل إن تحقيقات عدة أجريت معه قامت بها جهات متعددة ، وأبدى خلالها تحملاً وجسداً وقدرة على المداورة ، كما انتبه إلى فضول محققيه ورغبة بعضهم ، أحدهم سألته خفية :

« أحقا ما زال البارون مقيماً داخل القصر ؟ » .

طبعاً لم يجب بنعم أولاً ، إنما تطلع صامتاً ، بارداً ، حتى يخشى من يواجهه ، فكف ، اضطر إلى توجيه سؤال آخر سمعه الخفير أكثر من مرة بصيغ مختلفة .

« إذن .. أين ذهب أولئك الشبان »

ليس المحققين فقط ، إنما المحامين المتتبعين من أهالي الشباب المرصود ، الغائب ، الأمر محير الجميع ، والخفير هو الشخص الوحيد المائل أمام الكل ، بدأ ذلك عندما وردت معلومات إلى مديرية الأمن الخاص بظهور دعوة غامضة بين عدد من الشباب لـ البارون ، تدعو إلى تأمل خصاله ، وما انفرد به ، وتروى سيرته ، ومجيئه إلى الصحراء ، وخطوات عمارته لها ، وظهور هذا القصر في ليلة ، وحيرة الخلق فيه وعدم ظهوره منذ دخوله آخر مرة إليه في العشرينات . وقيل إن الشبان المغر بهم يسجدون أمام باب مصمت لا يؤدي إلى شيء ، مرصع بالفسيفساء الملونة ، وتلك علامة الامتثال للبارون !

تفسيرات شتى أبديت ، ومقالات ظهرت وكتب طبعت وراجت ، وارتفع توزيع بعض الصحف والمجلات ، كما أعدت برامج إذاعية ودارت أسئلة حول الأسباب الدافعة ، ماذا جرى للشباب ؟ ، ما سبب الفراغ الذى يعانون منه ؟ كيف عرفوا الطريق إلى البارون وأفكاره ؟ ما دور شبكة الاتصالات النواية ؟ كيف يمكن تحصين الشباب ضد هذه الأفكار ؟ ، كما جرى كلام كثير حول الفراغ الروحي ، وهزال الأحزاب ، وطالب مسئول أمنى كبير رفض الإفصاح عن اسمه بهدم القصر ، لكن أسبائنة الآثار حذروا من ذلك ، وهدنوا بطلب التدخل من منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ، وتردد بالفعل أن ثمة بحثاً بدأ لاعتبار القصر أثراً يجب حمايته لكونه متفرداً ، لا مثيل له ، ومن تجليات البناء الإنسانى .

كثير من الأمور المتعلقة بالقصر مسكوت عنها ، بدءاً من تصميمه ومدة تشييده ، وحقيقة زخارفه وما يقع لعماراته من متغيرات ، وما يوجد بداخله ، إذ اختلفت الروايات بين قائل يتعجب من الفراغ الهائل الذى لا يسنده عمود واحد ، وبين من يضع رسوماً للدرجات الصاعدة والأخرى الهابطة والمستويات المختلفة والغرف المؤدية إلى بعضها ، والتي يمكن من خلال كل منها رؤية المساحات الفاصلة . جرى الصمت أيضاً حول حشد قوات من خلاصة الحراسات المدربة . وبعد أن تم التأكد من دخول عدد يتجاوز الأربعين بدءاً من العاشرة ليلاً ، جرت عملية الاقتحام بدون ضجيج حتى أن نزلاء الفندق القريب لم يشعروا بأى شيء ، كذلك المسارة فى الطريق المؤدى إلى المطار . عند الفجر تم إحصاء القوة عدة مرات . والتأكد من خروج جميع أفرادها . عند انصرافهم اصطحبوا معهم الخفير . أسئلة عديدة وجهوها إليه ، سمعها من أخسرين توالى عرضه عليهم فى الأيام التالية ، اختلفت الصيغ لكن المطلب واحد . ورغم كل ما تحمله لم ينطق ، ولم يحد عن مز رأسه نقياً ..

مصطلح

درج



الدرج مرقاة ، فهو توق ، وهذا لا يكون إلا لصعود أو انتقال من
سفل إلى علو، ومن هنا تكون المحاولة ، فالانتقال من موضع إلى
موضع مساو له في الأفقية يقتضى بذل الجهد ، فما البال إذا كان
مضادا للقوة الحافظة ، الماسكة لكل ما هو حي أو نبات ينمو أو طير يحوم
أن يفلت ويتوه في فراغات الكون . وتلك القوة القابضة لانراها ، ولا
نلمسها ، ولا يمكن تعيينها ، أو وصفها ، أو إرجاعها إلى عناصرها
الأولى ، تماما شأن كل ما يؤثر في مصائرنا ، الزمن مثلا ، نرى
أعراضه ولا ننفذ إلى جوهره ولا نقف على ما يجري في مساره ،
ولا يمكننا تحديد أوله . وبالتالي آخره ، فكل ماتدرك بدايته يمكن تحديد
نهايته ، وليس الأمر إلا بحث وتقص وازدياد .

للسعود زهوة ، وجلوة ، وما الدرج إلا مساعد ، فالمسافة إلى أعلى
تقطع بميل . كل درج مائل مع أنه مؤد إلى أعلى ، لا بد من ميل حتى
وإن بدا للناظر المتعجل مستقيما كحرف الألف . وأول أرقام العدد ، ذلك
أن الوصول يقتضى الميل ، والطريق الذى يبدو للناظر الجاهل مستقيما ،
مفرودا ، مبسوطا كل البسط ، إنما يتضمن في حقيقته ميلا ، ذلك ان
كوكبنا كروى ، وأفقنا دائرى ، ولو أن الطرق كلها مستقيمة لما أدت
إلى بعضها . هكذا ألمح وبهذا صرح الشيخ الأكبر رحمه الله .

كل درج مائل ، هذه حقيقة وسمة ، كل درج من أجزاء ومن كل ،
فالدرجة الواحدة يسيرة ، هينة ، تؤدى إلى غيرها ، وبذلك يتم تجزئ
الصعود ، وتقسيم المجهود ، وتيسير المطلوب ، والبناء الماهر ، من يتقن
زاوية الميل ، فيأتى بها بحيث تخفف عن الطالع ، وتيسر للنازل ،
ولا يجعلها دفعة واحدة ، فيدخل على التقسيم تقسيم ، فكل سبع درجات
تليها بسطة ، أو مساحة ، أو لوح معلق إلى الجدار ، يبذل المفتن جهدا
في إخراجيه وإتقانه ، وتسهيل الأمر على الصغير والكبير ، ذلك ان

الطفل يرتقى الدرج بصعوبة ، ويقطعه الصبى والفتى بسهولة ، غير ان ديببا خفيا يسرى ، ويلوح وهن يصعب رصده ، ينتبه المرء اليه عند لواح علاماته ، وظهور اشارته ، وليس هذا كله الا نتيجة وبداية أيضا لنهاية مع الفتوة لا يتوقف المرء للنظر والتمعن ، يتخيل أنه بالغ للمهيمنية ، لكنه عند أول عارض يصير مجبورا على مراعاة الحركات والسكنات ، وإسناد الخطو إلى بدايات الدرج بحذر وخشية من انقطاع الأنفاس وعدم القدرة على تحصيل المراد وهو جد يسير ، ورغم اختلاف المصادر وتباين الأحوال ، فثمة شبه لا تخطئه عين حصيف بين صعود الصبى الصغير ، طرى العظام غرض المفاصل ، وبين محاولة الواهن ، إما بتأثير التقدم في العمر أو سريان العلة .

يكون الدرج أحيانا ظاهرا إذا تعلق بالبناء من خارجه . وقديما كان هذا شأننا ، رانجا . لكن الانسان جبل على طي سرائره وإخفاء كوامنه . لذلك أثر إخفاء الدرج في الداخل ، إذ أن الصعود رغبة ، والنزول رغبة ، وما يتصل بالسرائر يستحسن أن يظل بعيدا عن الأبصار ، غير متاح للعابرين والقضوليين والأغراب عن البناء . فالعمارة إقامة ، والطريق عبور .

العاقل ، الحصيف من يعرف أول الدرج وآخره ، ومقداره ، وتعينه ، وما يقتضيه من جهد وما يستلزمه من بذل ، ولهذا كله تدبير فإذا شط وخرج عن الخطة ربما يلقي ما لم يعد له الأهبة ، الذي حلت به طاقة وثابة ، ربما مصدرها فلكه الشاسع ، وقوته الحامية وقدرته المطوعة ، ومهابته الرادعة . لكن هذا كله ليس مصدرا لجموحه ، فكم قبله وبعده امتلكوا اسبابا للجهاء والسطوة وفرض القدرة ، لكنهم لم يقدموا ولم يشرعوا إلا بقدر ، رغبة تجاوزت حتى حدود الحلم ، وشسوع الخيالات الراكضة ، لم يكتف بالتأمل ، بالحلم ، إنما شرع لعله يبلغ الاسباب ،

رغم غموض النتيجة وضعف الإمكانية ، لكن قدرته على المحاولة لم يعرف أحد مثلها حتى عصره. دعا مهندسيه والمعلمين الكبار الذين رافقوه في حملاته وشيدوا له المنازل المؤقتة ، والجسور الواسلة ، وأنصوا ما بدأت الرياح وتعاقب الحرارة والبرودة واتخاذ الأمطار والسيول مصارات نافذة أدت إلى تلك الطرق الطبيعية الصاعدة ، النازلة ، أرسل ليستدعي مصممي الأبراج المتنقلة ، ومنازل الطيور الساعية ، المهاجرة ، والتي بقي بعضها لما لقيه داخلها ، وهذا عجيب ، وهؤلاء مدوا له أيضا القنوات التي تكفل السقايات والمدد .

أطلعهم على ما يريه ، أن يقيم برجاً يتجاوز به السحاب ليلبغ النجوم الأقاليم ، أن يأسر الشهب المارقة ، التي تزدوي بمجرد أن تبدو ، أن يوقفها من مصادرها

قال إنه يهملهم مقدار دورة من دورات الفلك . لم يعترض أحدهم ، ولم ينطق سؤالاً أو استفساراً ، فمثل تلك الجلسة ليست إلا للإبلاغ أما الجدل فيحين فيما بعد . غير أن مثل هذه الأمور مما تحدث أصداء شتى ، لعل أشدها وضوحاً خروج الحكيم من خلوته ، ومضيه إلى التواق الأعظم . يختلف القوم في تقدير عمره . لكنه معروف للصغير قبل الكبير . انه بمثابة العتبة للدرج ، فلكل درج عتبة مؤدية ، وأخرى تنهيه ، حتى وإن لم تمثل في البناء ، انه الوحيد صاحب الحق في المملكة كلها الذي يحق له الاعتراض الجمهوري ، ورفع الصوت عند الحديث اليه ، ودفعه في صدره تنبيهها أو زجراً لكل أوان حكيم مثله ضماناً للردع عند الخرق ، وحجاً للتجاوز . عندما ولج الخلوة الملكية ، أدرك التواق الأعظم سبب قدومه ، فبادره بالسؤال .

كيف يمكنني رؤية الكواكب والنجوم ولا أقدر على بلوغها ؟

قال المقيم ، القديم :

ليس كل ما يراه الانسان ببالغه ..

قال إن ماتحيط به الحواس الفاعلة لا يدرك كله ، ولا يمكن فهم الكثير منه ، أو إدراك أصله ومساره ، كل درج مصنوع أو حفرته العوامل الطبيعية محدود بمدى ، موهون بقدرة وطاقة ومايتاح الآن لا يكفي تحقيق الغرض .

مال التواقي الأعظم ، ذرف دمع الحيرة والرغبة ، دموع لا يمكن ظهورها الا على مرأى من الرائي ، المدرك ، الحنون ، المتفهم له . ريت كتفه ، وملس رأسه ، وأصغى إلى دمدمة تطلعه وشوقه إلى مغادرة كل مألوف، ارتقاء درج غير عاды، لم يعرفه القوم من قبل لم يبد الكهل المتكلم ، الناطق بالخلاصة غضباً أو أسفا ، بل وسع فهمه لما أصغى اليه ، ضمه إلى صدره ، علامة الرضا والمباركة وتضمنى السؤدد الجوال، قال ماتناقله القوم فيما تلى ذلك من جيل إلى آخر، تماماً كصعود الدرج .

مباركة إرادتك ..

ثم قال :

لولا الحلم الخارق لما وقع التحقق المائل ..

ثم قال :

أبدأ درجك لعلك تبلغ به الأسباب ..

ثم أتبع قوله بإشارة تفيض مودة ومحبة حريصة ..

وتذكر دائما أن الدرج للصعود .. وللنزول أيضا ..

حكاية

بريا



كل عمارة تقييد ، تحديد لحيز وحركة ، والكلام هواء ، تمسك به الحروف ، إنها سكنه ومستقره ، فهل أدرك المتعاملون مع الأقلام والقراطيس أنهم يقيمون أثناء عملهم عمارة للفراغات، الهواء ، وسكننا للأنفاس والرؤى ؟

هذا ما خطط له القدامى الذين عاشوا على ضفتى النهر، ورصنوا مرات فيضانه ، وارتباطها بمواضع النجوم وسريان الرياح الهبوب ، وتوقيتات قدوم أو ذهاب أنواع الطيور ، طال تحديقهم إلى الأعالي حيث الثوابت والموارق من شهب ونيلذك .

الأمر ميسور الآن ، فما أكثر تنوع العمارة ، ولكم تعددت الصروف ، ولعل كثيرون يظنون أنه أغرب البنيان ، لكن .. هذا ليس صحيحا ، فثمة ما يعد أغرب وأعجب .. وهذا يقتضى صبورا قليلا حتى يمكن التوضيح ، مايتصل بالمعنى ، وبصاحبنا هذا الذى جاء إلى مدينة سوهاج يسعى ، قاصدا بالتحديد رؤية شيئين طال انشغاله بهما ، وهما ، جلالة الملكة ميريت آمون مطربة الغروب ، وماتيسر من بقايا البريا .

صلته بالأميرين عتيقة ، وشرحها يقتضى تفصيل لكن التوضيح ضرورى والإيجاز واجب فنقول إنه من مواليد الناحية ، صحيح أنه أمضى طفولته غرب النهر آخر حدود العمار وأول الصحراء ، حيث مسقط رأسه جهينة ، لكنه متعلق بكل مايمت إلى تلك النواحي ، حتى الظلال ، والنخيل الكثيف الأزلى ، وطلّة الجبل على النهر الماضى من جنوب إلى شمال على سجيته ، لم تحده بعد طرق مصنوعة، ولم تطل عليه عمائر القادرين ، الطرق الضيقة التى مهدتها السنين وأقدام البشر ، وأشجار التوت والتين ورائحة الجوافة والمياه فى الآبار العميقة ، ولهجة القوم . تذكره بصوت أبيه وإيقاعات أمه عند الحديث ، لم يحتفظ بتسجيل لصوت والده ، وعنده رسالة بصوت المرحومة سجلتها الى شقيقه زمن سفره للدراسة ، لكنه لايجرؤ على الإصغاء اليها حتى الآن ، ثمة يقين

خفى ، لايسدرى مصدره ، أنه لو استمع إليها لاكتمل نسيانها وبدأ محوه هو أيضا .

اعتاد قبل مفارقة الفندق الصغيرة النطل على النيل أن يطيل النظر الى الجانب الآخر، البيوت المتضامة ، المتساندة ، لاشيء متميز فى مواجهته إلا النهر .

أشار موظف الاستقبال الى شاب أنيق يقف قرب مدخل الفندق يقول إنه ينتظر منذ عشر دقائق ، لم يره من قبل ، وتبدو هيئته غريبة ، غير متسقة مع من تعرف إليهم فى قصر الثقافة ، ملابسه أنيقة ، حضوره وسيم ، يقف إلى جوار سيارة حديثة الطراز، يقول إنه جاهز ، متأهب لمصاحبة سيادته .

قاهرى اللهجة والمنشأ كما توقع ، المقعد وثير ، الأجهزة عديدة معقدة ، هاتف نقال ، لايمكن أن يمتلك القصر عربة كهذه ، معظم مايتبعه من سيارات قديمة الطراز، انتهى عمرها الافتراضى ، لم يعبأ بنطق الاستفسار ، يؤجل ذلك الى لحظة تالية ، وربما خلا من الدافع تماما ، منذ إفاقته من أزمته الصحية والتزامه بنصائح الأطباء يتطلع إلى تفاصيل الحياة اليومية العادية وكأنها تقع وراء جدار زجاجى شفاف ، مايتصل به داخله أكثر وأعم مما يتصل به خارجه ، يتذكر الآن بعد تحرك العربة أنه لم يخطر موظف الاستقبال بموعد عودته .

وهل يثق ؟

ثمة ابتسامة إلى الداخل ، من اختل بنيانه يمكنه توقع أى أمر، مايشغله الآن يحيد به عن أى ارتباط أو خطة لاتتعلق بما يسعى إليه ، ذلك الحنين !

يرغب الصمت ، الاستغراق ، استعادة ماقرأه ، لكن هذا الشاب المعتد بنفسه، أنيق المظهر ، مثير للفضول ، يعرف تلك اللحظات عندما يستقر الى جوار من لا يعرفه ، يحاول إشاعة مناخ حميمى فى زمن يسير ، فى البداية أجاب باختصار مستخدما مصطلحات انجليزية عديدة ، لكنه تحدث باستفاضة عندما راح يجيب عن استفساراته حول السيارة الحديثة ، المكيفة ، إمكاناتها الاستثنائية ، خاصة فى الصحراء والأراضى السبخة ، تجمع بين الخبرة الأمريكية والتكنولوجيا

اليابانية والأناقة الأوروبية ، إنها معدة للعمل فى الثلوج أيضا ، لكن .. ثمة تعديلات أجريت لتناسب المناخ الحار لمصر والمناطق الوعرة .

طريق محاذ للنهر ، يتجه صوب الشرق ، ناحية المرتفعات الصخرية البادية ، مقاه صغيرة ، رجل يرتدى جلبابا وعمامة ، يمسك مدفعا رشاشا ، يقف مستنفرا ، مؤديا التحية شبه العسكرية لمن بداخل العربة ، لابد أنه يحتاط لنفسه ، من يدرى.. ربما كان راكبها ضابطا برتبة كبيرة ، أو موظفا بالمحافظة ، أو شخصا ما له نفوذ .

سلاحه غير خفى ، مشرع ، عربات الحراسة أفرادها عند النواصى ، آخرون يكمنون عند المداخل المؤدية الى حقول القصب أو الذرة أو مغارات الشرق والغرب . توتر غير مستتر ، كثير من الاشتباكات لا يعلن عنها ، فى أى لحظة ربما ينطلق الرصاص .

يقول الشاب فجأة : إن مسألة الارهاب طالت أكثر مما ينبغي .

يجيبه بطله صامته فضولية ، كأنه أدرك مايفكر فيه ، مايشغله ، ما جال بخاطره خلال تلك اللحظة .

يستأنف الشاب مؤكدا أن الأزمة لن تنتهى قريبا .

يجيبه مبتسما ، إن هذا كله لن يشغله عن زيارة جلالة الملكة ، والبريا .

يتسأل الشاب :

«أى ملكة؟»

«أحقا لا تعرفها؟»

إذن صدق حدسه ، لالعلاقة له بقصر الثقافة ، لابد أنهم استعاروا العربة من ديوان المحافظة ، أو إحدى الهيئات الأخرى ذات النفوذ ، سيؤجل الاستفسار الآن، غير أن مايتعلق بالملكة لايمكن إرجاؤه .

«ألم تسمع بمطربة الشمس عند غروبها؟»

نظرته جانبية ، دهشة :

«أى مطربة ؟ أى غروب» .

«اسمها ميريت آمون ...»

«ميريت .. أنه الفندق الذى تنزل فيه .. أظنه نوع من السجائر أيضا» .

«لكنك تتجه إلى الطريق الصحيح .. كأنك تعرفها ؟» .

«هذه السكة مؤدية إلى الطريق الشرقى الصحراوى ...»

ثم قال :

«إنه مفض الى القاهرة ، إنه انجاز ...»

ثم قال:

«لكننى لم أدخل المدينة .. لا أعرفها .. ماذا قلت عن المكان الآخر ؟»

«البربا»

«ماذا يعنى ذلك؟»

«أثر قديم .. قديم جدا ..»

«لم أسمع به ..»

«به مالا يحصى من المباني والبوابات الوهمية؟»

«أى وهمية .. ماذا يعنى ذلك؟»

«بوابات لا تؤدى إلى شىء محدد ، لكنها ...»

«لم أعرف شيئا كهذا ..»

يتمهل لحظة قبل أن يقول موضحا :

«مثل المحراب ...»

لايجيب ، نظرتة الجانبيه استغزازية ، عدوانية ، يفضل الصمت ، يحاول استعادة بعضا من ملامح الطريق ، أن يستنفر خبايا ذاكرته ، غير أن حضور النخيل الكثيف يطغى على ماعذاه ، تتداخل النواصى التى يراها الآن بأخرى قديمة ، من مواضع شتى متباعدة ، خاصة الطرق العامرة برائحة التين والطين المستقرة فى أعماق القنوات المائية السارية إلى جذور النباتات والأشجار الموغلة .

يلح عليه طابق أول من بيت قديم ، متين ، شاهق البنيان ، وقته ما بين اكتمال المغيب وأول إيغال الليل ، يقترب منه صغير بصحبة والده ، مقبل على الدنيا .

يفتح الباب الخشبي ثقيل المصراعين ، تاجر أقمشة اسمه محمد عمرو ، كيف احتفظ بالاسم واللامح ، لماذا تلك اللحظة بالذات ؟ بل إنه ليذكر لون الجلاب ، ربما أزرق ، طربوش أحمر ، هذا مؤكد .. عدا ذلك يصعب اليقين .

يشير إلى لافتة زرقاء ، عليها كتابة بيضاء .

«أخميم» .

يتبع السهم ، مئذنة مرتفعة وسط بيوت بعضها مشرف والآخر تابع ، أرض غير مستوية ، مشارف مدينة ، بوابات خفية لكنها ماثلة للاحساس .

كيف يمكن الاستدلال على الساحة المقدسة حيث تتطلع الملكة بلا نهاية محددة صوب الغروب ، تلك النظرة التى تتجاوز كل ما هو قائم الى ما يخفى ولا يبين ، نظرات ساجية ، راضية ، مرضية ، مطمئنة ، داعية للذهاب فى إثرها .

هنا يبدأ ما لا يمكن إدراكه ، ما يؤدى إلى فقدانه الاحساس بوجود مرافقه ، ضوء مغاير أو تغير ما طرأ على عينيه ، أم أنه زجاج العربية يتغير بشكل ما ؟

ربما ...

إنه معنى بلامح المدينة أكثر من الاستفسار عن تفاصيل تتعلق بالعربة المريحة والمكيفة ، تعزل ركابها عن أى واقع خارجى تمر به ، تعبده .

عندما جاء الى أخميم أول مرة أدركه حضورها رغم أنه لم يرها ، يثق الآن
من قرب البريا ، يلتفت الشاب اليه ، يقول ساخرا :

«تذكرنى بعبدة البارون...»

يتطلع اليه صامتا ، من الأفضل أن يتجاهل هذه الملاحظة العدوانية ،
الساخرة ، الصفيقة ، إن فارق العمر بينهما لا يسمح بهذه التبسط ، الغريب أن
الملاحم الجانبية للشاب تشبه مجايلا له تقريبا ، ظهر فى التليفزيون ، كان المصور
يقدم ملامحه الجانبية فقط ، وكان مدير الأمن العام يتحدث عن الخطوات التى
اتبعت والمراقبة الدقيقة التى تمت للمتريدين على قصر البارون المهجور ، هذا
الشاب بالتحديد أمضى ليلة كاملة متمددا بمفرده داخل المقبرة المستقرة فى
الطابق الأرضى ، والتى تدور حولها أقاويل عديدة ، منها خلوها من البارون إذ أنه
مازال حيا يسعى ، ومنها وجود بقايا أقاربه ، أما الدافع لمكوث ذلك الشاب تلك
الليلة وحيدا ، متمددا داخل القبر ، فرغبته فى الوقوف على مايجرى هناك .

قال مدير الأمن العام إن القوات الخاصة المكلفة بالمتابعة رصدت كل خطواته ،
وسجلت ماقام به من طقوس ، هذا وجه المحاور الشهير استفسارا ظاهره إحراج
الضيف ، وحقيقته مجاملته .

«هل تم تسجيل ما قام به فعلا؟»

بهدهوء واثق قال اللواء :

«طبعاً .. طبعاً»

ثم انتقل بيسر وسلاسة ليوضح خطورة مثل هذا التصرف على المجتمع
يستعيد المشهد ، يتعاطف مع الشاب الذى بدا مهموما ، مغموما ، مجبرا على
الظهور .

«إنه يستحق تحية ..

يلتفت السائق الشاب :

«أى تحية ...»

يواصل منفعلا :

«بل جائزة لقضائه تلك الليلة ...»

يبتعد الشاب قليلا ، يبدو معنيا بإنهاء ، تلك الصحبة الغامضة ، خاصة أن السيارة بدأت تدخل شوارع المدينة العتيقة ، الضيقة ، عندما جاء الى هنا لأول مرة لم يعرف عنها الا الاسم الموحى بالعنقا ، وشهرة بصناعة الحرير الطبيعي بنفس الطريقة التى نسج بها الفراعنة الأقمشة لألهتهم ، كانت مهمته عابرة ، وكان يمكن ألا يطأها مرة ثانية شأن المدن العديدة التى عبرها ولم يعد اليها ، لكن ... الأمر اختلف هنا ، رسخ عنده تعلق مكين صار يغار منه على صلته بمسقط رأسه ، جهينة على الضفة الغربية للنهر ، النهر هنا لا يحدد الأماكن فقط إنما يعين الأوقات كافة ، وكلمة النهر تختزل الأمور والأوصاف لا تدل ولا تشي ، وربما كان مايتناقله القوم أقرب رغم بعده أيضا عن الواقع ، يقولون «شرق البحر» أو «غرب البحر» .

الذيل عندهم بحر ودعامات وأسقف غير مرئية ، وقيعان مخيفة غاطسة ، عمارة كونية ، لا يمكن تحديدها أو وصفها بدقة ، لا يذكر أمام أى مصطبة أصغى الى تلك الجملة التى نطق بها واحد من رجال المدينة الراسخين ، المقيمين ، قال :

«الشرح كله فى البريا ...»

لكن ... أين البريا ؟ أين؟

ثمة أوصاف مدونة فى كتب الأقدمين ، قرأ مشاهداتهم ومذوناتهم ، ما كتبه سترابون ، هيروديت ، ابن جبير ، ابن بطوطة ، ما ذكره المقرئى ، ابن دقماق ، ابن اياس ، الرحالة الذين صعدوا الى مصر العليا حتى القرن السادس عشر ، هذا قرن فاصل ، جرى فيه أمر غامض بحيث لم يرد ذكر لها فيما تم تدوينه بعد ذلك .

صحيح أنه ما من وصف يشبه الآخر ، كأن كل منهم رأى موقعاً ، مغايراً وعمارة مختلفة ونزل بلدة غير أخميم .. فى البدء أرجع ذلك إلى اختلاف الأزمنة الذى يستتبعه تغير المعالم والأماكن ، ألا يعود أحياناً الى مدينة ارتبط بها زمان ، يمشى فى الشوارع التى يعرفها ، والمقاهى التى يحفظ معالمها ، ويتمهل عند النواصى التى يتقنها ، لكنه لا يجد شيئاً من هذا كله ، مما عرفه ، لذلك يبدو عبثاً محاولته لللمة معالم البريا من أوصاف مدونة يفصل بين بعضها مئات السنين ، السؤال الذى لم يقرأه .

أين موضع البريا الآن ؟

أين معالمها ؟

إلى من يتوجه بالسؤال ؟

هذا الشاب لا يعرف المدينة ، لا يحفظ معالمها ، بعد صمته يبدو عدوانياً ، ساعياً الى المناوشة ، نظراته الاستفزازية ، إبداء الضيق ، يدركه الحرج ، لا يريد أن يثقل على أحد ، ما ذنبه ؟ ، هم الذين أرسلوا هذه العربية الفاخرة التى لم يكن بحاجة اليها ، لكنه إذا استمر فى التبرم وإبداء الضيق ربما أظهر رد فعل يحرص على كتمانته ، يقهره الحياء من الآخرين ، لكنه عند نقطة معينة لا يطيق صبراً فينفجر ، يحيد بنظراته ، حقاً .. لكم كلفه هذا الحياء ، لا يرغب فى استعادة أموره الخاصة وشجونه المفردة ، إنه مفض بكليته الى البريا ، إلى تلك العمارة الأنثوية الشاهقة ، المشرفة ، المتمركزة فى فضاء المدينة ، لا تزال الشوارع قادرة على استيعاب حركة السيارة ، لكن التقدم بطيء جداً للزحام وضيق المسافة معاً ، تنبت البيوت من الأراضى المترية المشبعة بالرطوبة والجفاف ، والجذور الغائرة ، والأنفاس المتبقية ممن سعوا يوماً ، عيدان البوص ، ذرات التبن العالقة ، رائحة دخان ، تتعدد سماته وفقاً لمصادره ، المنبعث من أفران الخبيز الموقدة بقوالح الذرة وعيدان الحطب ، مغاير للمتصاعد من النيران الناتجة عن اشتعال البترول والسولار ، وللخبيز عنده مراحل شتى ومنازل .

لا يسعى الى ما تحويه المدينة الآن ، إنما إلى ما كان وسيكون ، كل ما تضمه تلك الفراغات يخصه ، ينتمى اليه ، بل صيغ منه وتشكل ، يود الانفراد ، أن يترجل ويمشى ، يقصد ما يعرفه ، وما يجهله ، عساه بالغ ما يبحث عنه ، ما يتوقعه ، ليس لديه مخطط ، أو مراحل محددة بما يجب اتباعه أو ما سيدرج عليه ، إنما يتبع حدسا ومكونات يصعب تحديدها ، إنما اليقين مدركها ومحوم حولها ، فى بحثه عن البربا يتبع نداءات لم تنطق ، وسطور لم تدون ، وإيماءات لم تفسر ، يوقن أنه عند لحظة ما ، موضع ما ، سيواجه بما يبحث عنه ، بما يكد من أجله .

تهتز العربية يابانية الصنع ، المتقنة ، مطبات عميقة ، منحنيات ، لا بد من التزام الحذر عندها ، نساء يغطين وجوههن يجلسن أمام فتحات البيوت الضيقة ، يهفو ويحن ، قاعدة هذه المرأة المتقدمة فى العمر تحوى بشكل ما قاعدة أمه ، اطراقة خاصة ، حضور طيب السمت ، كثيرا ما لا بد بمثله عند بدء القلقة واستحكام الضيق ، وتمام الخنقة ، زار بلدانا شتى ، ورأى أقواما مغايرين ، لكنه لم يعرف مثل تلك القاعدة الأمومية .

توغل المدينة عندهما ، أو يلجان فيها ، ما من علامة دالة ، يوقن أن ما يراه يتساوى مع ما خفى ، غير أنه يفضل التعامل مع الظاهر ، فلا يستدير إلا عند ناصية بادية لهما ، وإن كان يثق بوجود بوابات وشرفات وحجرات تؤدي الى أخرى وممرات وأقنية مؤدية ، موقن أن العربية فى تقدمها السريع أو البطيء المضطرب اجتازت عدة بوابات خفية ، ليست وهمية ، فالوهمية حضورها قائم لكنها موصدة ، لا يليها فراغات ، ليست بوابات ضخمة ، هائلة من تلك المنصوية فى الطرق العامة ليمر عبرها الزعماء ، وأصحاب الشأن وكذلك أبناء السبيل المجهولين ، إنها بوابات مغايرة ، بالتأكيد يؤدي بعضها إلى البربا ، لا يعنيه وصف ابن جبير لتلك الشواهد السوامق ، المحفوفة ، بالأعمدة على الجانبين ، إنها بوابات خفية ، تستعصى على الرؤية لكنها مؤدية ، مفضية الى ما لا يدريه ومالم يصفه أحد الرحالة أو الحجاج العابرين من قبله ، هكذا يقينه ، إنها الخطوات الأولى التى يليها بلوغ البربا .

تضطر السيارة إلى التوقف ، أوزة بيضاء ، نبيلة المظهر ، تعبر الطريق متمهلة، كآنها خارجة من رسم على جدار فرعونى ، قديم لم تبل ألوانه ولم تبهت ، يقترب شاب يرتدى جلبابا بلديا، ولبدة بنية اللون ، وشالا يلتف حول عنقه يتساعل ، يبدو أن هيئتهما تشى بهما ، بجهلهما القصد ، كذلك العربة ، يشى الجمارد بما يجرى الكائن المتصل به .

«أنا مخبر سرى .. أركب معكما وأدلكما ...»

يبرز بطاقة ، لم يعن أحدهما بالتطلع اليها ، أفسح له مكانا ، إنه من أبناء البلدة أولا وأخيرا ، يتقن دروبها و مواضع مخارجها ومسالكها ، من ناحية أخرى ربما يخفف وجوده ذلك التوتر المتزايد ، كان على وشك مفارقة العربة واتمام مشواره سعيا على قدميه .

«إلى أين بالصلاة على النبى ..؟»

يقول الشاب بلهجة محايدة :

«إلى جلالة الملكة ...»

يلتفت اليه ، بالتأكيد كان نطقه محترما ، يخلو من أى تهكم ، بل كيف أدرك مقصده، هل أطلعه ونسى الأمر ؟

يشير المخبر الى الامام .

«الطريق صحيح .. لكنه صعب .. ثمة سلك أسهل ..»

يتلفت حوله ، يقول بحزم :

«على طول .. ثم .. إلى اليمين ..»

من الضيق الى السعة ، لم يكن الطريق فسيحا كذلك المؤدى الى المدينة ، لكن عرضه يكفى لتحرك العربة بيسر واندفاعها الى الامام بدون هزات عنيفة .

البيوت مختلفة ، منتظمة ، يفضلها عن بعضها مسافات ضئيلة أو فسيحة لكنها كافية ، معظمها بنى من الحجر القديم ، شرفاتها ذات أعمدة ، غير أن بيوتا

أخرى ظهرت ، متلاصقة ، جدرانها من طوب أحمر ، عشوائية ، غير متساوية ،
يتقدم بعضها على بعض ، الخرسانة بادية ، يرتفع صوت المخبر ..

«كل من سافر إلى السعودية أو الخليج رجع بقرشين وبنى بهم ..»

كأنه أدرك ما جال بخاطره ، أو استنتج ما لاحظته من اتجاه البصر والتعبير ..

«هدموا بيوتهم الواسعة وسكنوا الشقق الضيقة» .

كل واحد يقول .. بيت فلان بنى .. اشمعنى !

يلوح مشيرا :

«أما بناء الجوامع .. المساجد الآن أكثر من البيوت ، أصحابها يقفون الآن

أمامها يناهون على الناس ليدخلوا ..»

لم يعلق أحدهما عليه ، يقول كأنه يحدث نفسه ..

«عجائب .. والله عجائب .. يمين يا أسطى»

يبنو الضيق على ملامح الشاب .. لم تعجبه كلمة أسطى .. تتناقض مع أناقته

وبشرفته الناعمة ، وشعره المصفف ، يمت الى فئة معينة من العاصمة ، لكن

جلوسه خلف المقود ، وربما هيئة ما جعلت الشرطى السرى يصير على تكرار «يا

أسطى» .

تضييق الطرق ، دكان خياط بلدى ، يجلس صاحبه فوق مصطبة من الطين ،

يختفى أمثاله الآن ، الجلابيب البلدى تجيء جاهزة من الصين .

«شمال»

لهجته أقرب الى الأمر ، كف عن تبسطه ، منذ دقائق لزم الصمت تماما بل بدا

مقطبا ، متجهما ، يفسح الأماالى الطريق بتراجعهم الى الجدران ، يضطر بعض

الجالسين الى الوقوف ، العربية مقلقة ، أنيقة المظهر ، قوية الحضور ، يبدو أنه من

النادر مرور مثلها ، يتزايد الزحام ، باعة للخضر والفاكهة ، أوان صغيرة من

البلاستيك ، ملابس قديمة وعربات يد فوقها سكر أحمر على هيئة أقماع ، منذ سنوات الطفولة لم يره ، لكنه يتذكر مذاقه ، كاد يتوارى تماما من ذاكرته ، هاهو ماثل أمامه .

السكر الأبيض كان معروضا على هيئة بلاطات مستطيلة وأقماع أكبر حجما .. ياه .. مجرد قطع من السكر تستدعى حقبا بأكملها .

رجل يقف رافعا يده بالتحية ، يظن أن مسئولا كبيرا داخل العربة ، واجهة متجر تحمل إعلانا عن سجائر انقرضت منذ الثلاثينات ، رأى نفس الاعلان فى صحف قديمة أثناء ترده على دار الكتب .

يتزايد الزحام ، التقدم أصعب ، البيوت متلاصقة ، أقل خطأ يمكن أن يؤدي إلى دهس طفل أو دجاجة أو ماعز عابرة ، يختلط النشرب بالطيور بالحيوانات بحبات الخضر ، الزحام كثيف ، إنه قلب السوق .

يضطر الشاب الى التوقف تماما ، ينكفىء على عجلة القيادة، يغمض عينيه ، يردد :

«مستحيل .. مستحيل»

يفتح المخبر الباب ، يشير الى الامام ..

«الطريق على طول .. لا يمين ولا شمال»

يبتعد ، يختفى تماما ، التعبير الأخير من وجهه يحتوى على ملامح ساخرة ، أو أسيانة ، ربما .. لايدرى .

«هل رأيت ؟ .. خدعنا .. كأن يريد أن يصل بنا إلى هنا .. لا أعرف هدفه كيف أتحرك الآن؟»

يضطر الى الترحل ليبحث الناس على افساح الطريق للعربة ، يكتشف استحالة ذلك ، أقفاص الدجاج والأوعية المليئة بالمياه الساخنة ريش الطيور

المذبوحة ، الأحشاء المستخرجة ، أطباق عريضة مرصوص فوقها البيض الطازج ،
بدو العربية غريبة هنا ، يقول الشاب :

«يمكنك أن تقطع المسافة مشيا .. أما أنا فسأبقى حتى ينتهى السوق» .

هكذا يعفيه من الحرج ، يمكنه أن يسعى بمفرده بعد أن صارت الرفقة ثقيلة ،
محرجة ، يومئذ شاكرا ، يخطو مبتعدا ، لا يلتفت خلفه الا قرب المنحنى .

السيارة غير موجودة ، ليست ماثلة ، هل شق طريقه بهذه السرعة ؟

يستعيد ملامح الشاب ، والطريقة التى نطق بها جملة «جلالة الملكة» يجب ألا
يشغل نفسه به ، أمامه عدة مراحل يجب أن يقطعها ، الخروج من هذه الشوارع
والأزقة الضيقة ، كل منها يؤدي الى الآخر ، الجديد اختلاف المستويات ، طريق
نازل ، آخر صاعد ، وكل هابط طالع ، فلا يمكن أن يتم النزول إلا من مرتفع ،
يتوقف ، يتنفس براحته ، إنه متعب ، لكنه بانفراده ، أخيرا يسترد حرية غابت عنه
خلال وجوده فى العربية ، كذلك ثقل هذا المخبر الغامض .

هل يراقبه من مكان ما ؟

ربما ..

إنه غريب عن المدينة ، لكنه من الناحية ، وهو غير مطلوب ، ولا يبادر الآخرين
بعداوة أو حتى لفظ جارح ، إنما يسعى لرؤية العمارة الانثوية التى انتصب
مؤخرا بعد رقاد دام قرونا عديدة ، إذا وصل إليها يكون على مشارف البريا ،
وإذا ولج البريا فإنه يتمكن من الصرح الانثوى لميريت آمون .

تلح عليه ملامح الشاب ، لماذا نطق لقبها بهذه اللهجة الغريبة؟ يثق أنه رآها
فى التليفزيون . إنه واحد من المتهمين بالتردد على قصر البارون ، بل إنه هو الذى
امضى الليل كله راقدا فى المقبرة ليعرف السر ، هل ثمة صلة بين قيادته للعربة
وركوب الشرطى السرى ، لكن المخبر أسفر عن هويته ، أعلنها ، ومثله اذا كان
فى مهمة يخفى ما هو عليه ، إلا اذا كان ذلك جزءا من الترتيب .

لماذا يهتم بهذا كله ؟

إن وقته ضيق ، وعلته مانعة ، مقيدة لحركته ، وغرضه جليل ، فلماذا يتوقف عند التوافق من الأمور ، ليفرغ الى المدينة ، أن لتعلقه بها أن يظهر ويتجسد ، كان المفروض أن يجرى ذلك منذ ثلاثين عاما ، لكنه كان مقيدا بضرورات الوظيفة ومهامها ، منها ما يقتضى تنقله فى البلاد ولولا ذلك ماجاء هنا .

عندما نزلها لأول مرة لم يكن يعرف عن أخميم إلا أنها مدينة قديمة ، مشهورة بصناعة الحرير الطبيعى على أنوال يدوية من خشب ، إنها ذات القباطى الشهيرة ، العتيقة ، التى التحف بها الفراعنة ، واهداها المقوقس الى النبی المرسل فى صحراء العرب ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

كانت مهمة عابرة ، وكان ممكنا ألا يتردد عليها مرة أخرى ، لكن حصل تعلق لا يمكنه شرحه ، أو تفسيره أو تبرير دوافعه ، قرأ مشاهدات الأقدمين ، سترابون ، هيروديت ، ابن جبیر ، ابن بطوطة ، وماذكره المقرئى ، وابن دقماق ، توقف عند أوصافهم للبريا ، تفحص كل قول منسوب لسيدنا أبى الفيض ذى النون ، لأن الجميع أجمعوا على ملازمته البريا ، وقدرته على قراءة الكتابة المرسومة على جدرانها ، وفى لفائف البردى المقدسة بدورها ، منها استلهم الكثير مما قاله وصار أساسا لعلم القوم وبيانا للطريقة التى تفرعت الى طرق شتى .

كلهم اتفقوا على ضخامتها وغرابتها ، لكن تفاصيلها اختلفوا عليها ، قال واحد من أصحابه له اهتمام بعلم الآثار القديمة إن المدينة حاوية لها ، وإنها تضم المدينة ، كلاهما واحد .

قال له نساخ قديم انحنى ظهره خلال السنوات التى أمضاها جالسا إلى النول ، منحنيا عليه ، يرص الخيط النحيل ، الواهن ، يضغطه بالمشط بعد تشييعه بالموك ، يؤكد ، يؤلف ما بين السداة واللحمة ، يقول :

« البريا عندك .. كل منا داخله بريا أو حوله .. ابحث عنها وتجوّل فيها »

غير أن القمص جرجس وهو ممن اعتادوا التردد على الفندق ليلاً والقعاد إلى صاحبه في الحديقة الخلفية ، أكد وجودها ومثولها إلى الآن واستمراريتها ، لكن دخولها يحتاج إلى حالة خاصة تقتضى مرانا ودربة ، وقبل هذا كله خلوص الكنورات المعركة للنفس قبل غيرها ، هذا ما يقتضيه بنيانها ، لا يمكن للانسان التنبؤ بطول هذا الحال ، أو التخطيط لبلوغه ، وربما يعرفه في وقت فتتجلى له البريا ، ويتجول في غرفها التي تولد منها غرف جديدة لم يعرفها مخلوق قط ، وممرات ، وساحات ، وطوابق مزروعة وأفاق يصعب إدراكها ، لذلك يقولون إن أكثر الدركين لها من الاطفال ، وإذا رجع أحدهم الى أهله وقص عليهم ما رآه ، يجب أن يصدقوه فوراً ، وألا يكذبوه .

يتوقف لحظات ، هدوء عميق يحيط به ، ينبعث من داخله ، من نقطة قصية كأن ضجة السوق لم تكن إلا مقدمة لهذا الصمت ، الطريق أمامه عريض وضيق ، نازل وطالع في الوقت نفسه ، تتباطأ أنفاسه ، ترى .. ماذا يفعل ابنه الوحيد الآن في هذه اللحظة ؟

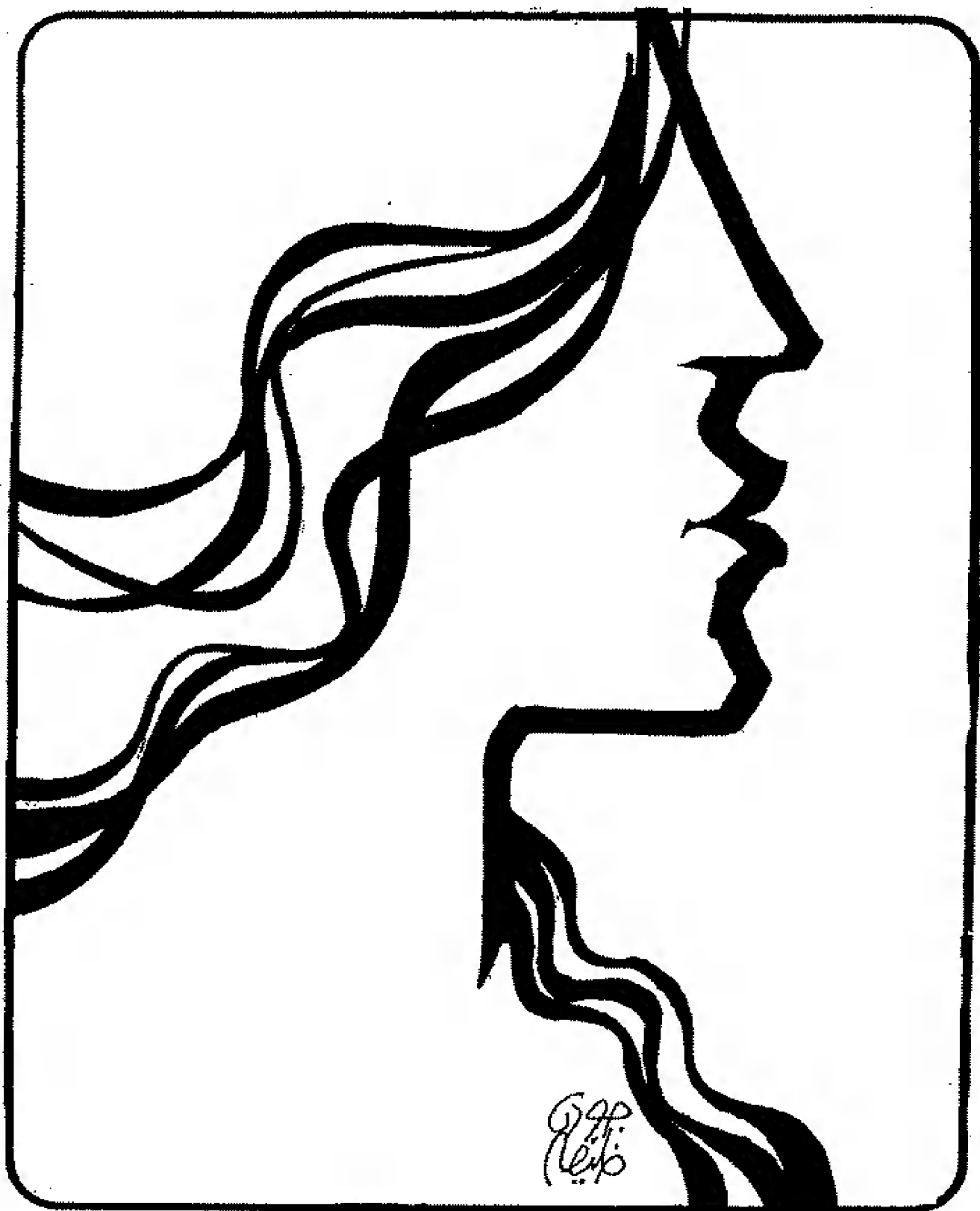
إنه بعيد ، جد بعيد .

يستعيد نصيحة القمص : إذا بلغت الباب الوهمي فحذق ، وركز ، وتمعن ، عندئذ ستلج مشارفها ويبدأ طوافك بها . إنه واهن ، هين ، يتطلع حوله ، المباني من طابق أو طابقين ، هادئة الواجهاً ، ألوانها لم يعرفها من قبل ، يستعيد إصغاء صباغ الخيوط الحريرية ، أشهر من يستخدم المواد الطبيعية ، يقدر عمره بتسعين ، أو مائة ، وربما فوق ذلك ، قال مضيفاً إلى ماقاله القمص :

« لا يدخل البريا ولا يدركها إلا مفرد .. »

مصطلح

موقد



الموقد علامة .

إنه بيت النار ومنطلقها وموضع تأججها ، والوسيلة الحاصرة لها أيضا ، فاللهب طلوق ، جموح ، ينشب بسرعة ، ولا يكون التحكم فيه إلا بجهد إنسانى ، لذلك كان الموقد علامة دالة حتى وإن درست المعالم ، وخبت الفوارق .

وجوده فى بنیان معنى تردد الأنفاس ، وتوالى الأشواق ، وتواتر الرغبات ، وتوافر المدد ، والسعى لإتقان الإعداد ، والتوقى إلى لحظات تجمع المتألفين ، المتقاربين .

ما الفرق بين بنیان للحياة ، وآخر للأبدية ؟ .

إنه الموقد ، ما من منزل إلا واحتوى واحدا منه أو أكثر ، لكن يستحيل العثور عليه فى المثلوى المتقنة للعبور إلى الأبدية التى أقامها الفراعنة المتسانلين أو الناطقين بقبس من إجابات شتى ، كل ما وصلنا من مقابرهم يمكننا أن نجد به كل ما نتخيله من طعام ، وأثاث ، وملابس ، وحلى ومجوهرات وأسلحة ومركبات ، كل ما كان له اتصال بالراحل إلى الأبدية ، يؤكد هذا الأثاث الجنائزى الذى وصلنا كاملاً ، تاماً ، مجتمعاً فى مقبرة توت عنخ آمون ، كل ما يخطر على البال نجده فيه ، حتى باقات الزهور المحنطة ، عدا الموقد ، غيابه من البناء يعنى الفناء ، والعثور على آثاره أيا كانت مستوياته ، حفرة بسيطة أو قرن مغطى أو مقبب ، محاط بالخزف ومقسم من الداخل لتوزيع اللهب والتحكم فى درجاته ، أيا كان الوقود المستخدم ، بدءاً من أوراق الأشجار الجافة والحطب أو الفحم النباتى والحجرى وصولاً إلى الطاقة التى تبدو أعراضها للناظر ولكن تختلف بذاتها ، نعى بذلك الكهرباء وما يتصل بها ، أيا كان الوقود ، فإنه دال على الحضور الإنسانى الدائم ، فالنار يحتاج إشعالها إلى فعل ، ومتابعتها إلى يقظة . ولا يكون ذلك فى إطار عدم .

والبقايا الدالة التي يتوقف أمامها الرحالة والباحثون والمتعقبون لما تخلف عن الأزمنة المولية دالة على مرور الإنسان أو إقامته في هذا الموضع أو تلك البريا ، ومن شكله ومن تركيبه يمكن الاستدلال ، والوقوف على الحقائق .

وإذا بدا الدخان متصاعداً من الأوجقة والمداخن ، فهذا يعنى حضور قوم الآن ، في هذه اللحظة يسعى الغريب ، المسافر ، المنتقل من مكان إلى آخر ، لعله يحظى بالأنس .

لذلك يكون الموقد دالاً عند الحضور وعند الغياب ، عند الاكتمال وبعد الاندثار ، ويقدر ما يضم من فوضى النيران وقوة الاضطرام بقدر ما ينظم ويؤطر .

الموقد إذن حياة ، فعلام تدل المواقد الكونية ؟

هذا تساؤل وجد محفوراً على حجر قديم من الدولة القديمة ، هل طرحه الفرعون المتسائل - حور محب - والذي مازال بعض أحفاده في قرى ومدن الصعيد النائية ، مثل أخميم وطيبة ودندرة والأشمونين واللاهون ورشيد ، يبحثون عن إمكانية لتعميم عمارة تقيم بها الريح ، وتستقر النسيمات الحائرة ، يختلف القوم في مقدار السنوات التي تفصلهم عنه ، أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أكثر من هذا وذاك ، لكن لا ينسى كل من له صلة برغبته التي أبداهها ذات ليلة بهدوء ، من خلال تساؤل طرحه برغبة حقيقية في الوصول ، وانتقل من عصر إلى عصر ، ومن لغة إلى لغة ، ومن معتقد إلى آخر ، وأضيفت إليه تفاصيل ، لكن الجوهر القديم باق ، راسخ ، يقوم عليه الخلق ، الأقاليم ، كل ما تلاه تفاصيل ، ولا يهم المسافة الفاصلة ، فكل لحظة انقضت بعيدة لأنها لن ترجع ، وكل بناء مهما بدا راسخاً فإلى زوال ، وكل جدران محيطة ،

معيدة مؤدية الى فراغ بعده فراغ مهما سمكت ومهما امتدت ، وكل
نيران مشتعلة الى انطفاء .

لم تقم العمارة إلا لتجسد الفناء ، وليست المواقف إلا خطوات ، تمضى
خطوة وتحل أخرى سرعان ما تولى ، لكنها تثير التساؤلات ، قال
الفرعون المتسائل - حور محب - مادام الإنسان قادراً على التساؤل
فأمره بخير .

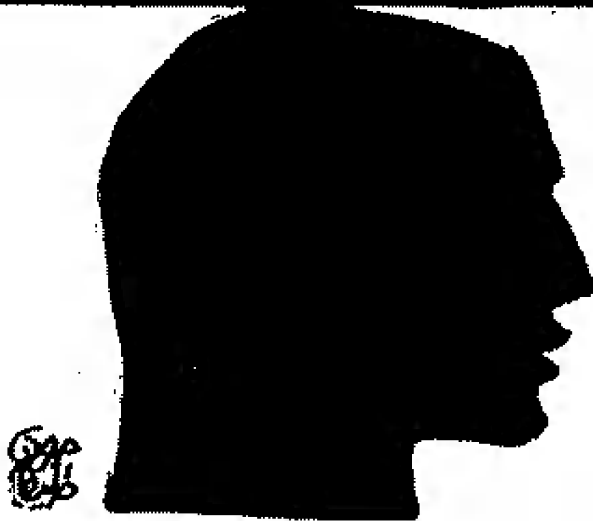
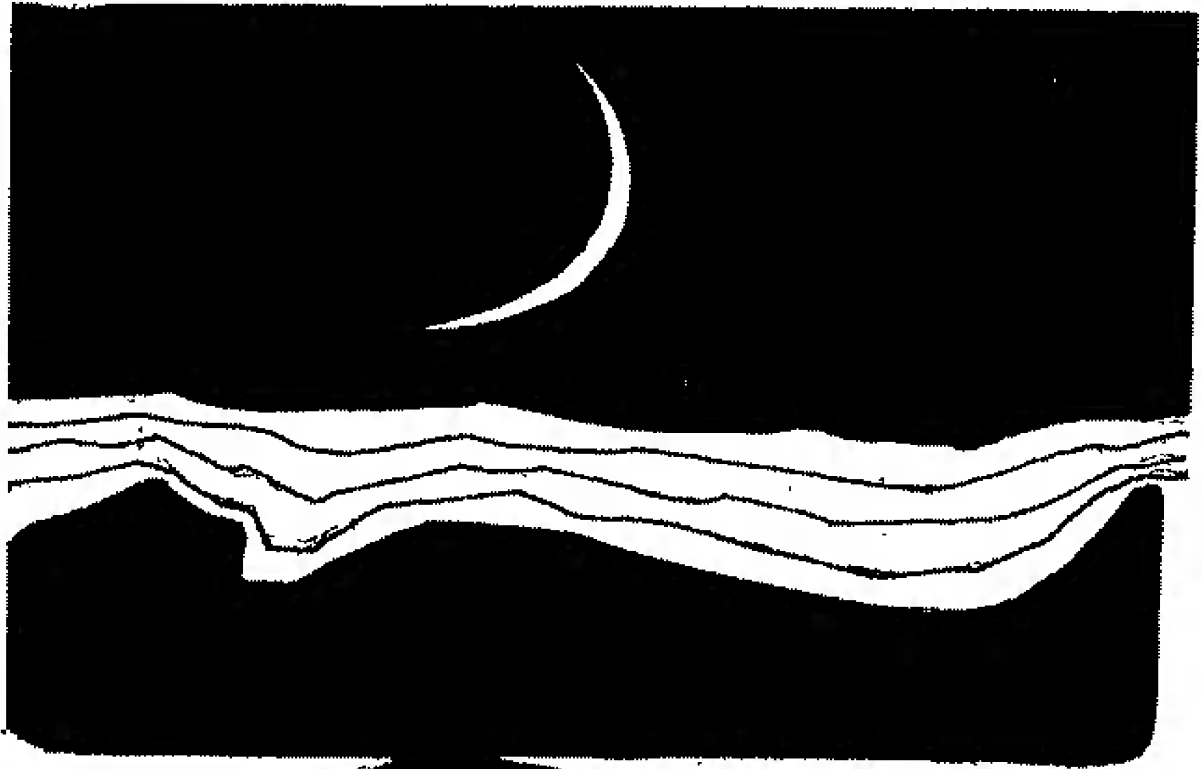
لكن .. هل ينتسب هذا الاستفسار اليه ؟

لا يمكن القطع أو الجزم .

واضح أن الناطق به أدرك أن النيران منطلقة والموقد مقيد لها
ومنظم ، وأن معارفه ألفت بهذا الحريق الهائل الكونى فى الشمس ، لكنه
مؤطر ، محدد ومنتظم فى دورانه حول نفسه أو حول الأجرام الأخرى ،
وليست النجوم النائية إلا نيرانا هائلة ، متفاعلة ، متوالجة ، يؤدى لهبها
الى بعضه البعض ، ورغم الأبعاد السحيقة إلا أن الأسباب متصلة ، وتلك
الأضواء التى يسطع بعضها أو يخبو آخر منها ليست إلا إشارات الى تلك
الحرائق الكونية المتفجرة ، الهائلة ، ولأنها ذات حيز ، ومدار ، ولا
تتجاوز إلا بقدر مهما بلغت الأحجام ، فهذا بالضبط ما يقوم به الموقد ،
ولأن إدراكه أو الوقوف عليه أو رؤيته يعنى حياة فاعلة ، متصلة ، فأى
حياة تلك هناك ؟ وأى محرك للقوانين المنظمة ؟

قال الخضر القديم ، الجوال عبر الأزمنة ، بعد حضوره مجلس
الفرعون المتسائل إن من يدرك أسرار وحكمة البنيان الإنسانى ، يمشى
بمفاتيح الفهم والإحاطة ، والأمرجله كامن ما بين الظهور والغياب
المتلازمين ، تماماً كما يدل الدخان الواهن على النيران الكامنة حتى
وإن لم تدركها الأبصار .

نُزُل



يقع النُزل قرب القنطرة، من شرفة المبنى الرئيسى يمكن رؤية مدخلها المؤدى الى امتدادها المنحنى، المائل إلى الجهة الاخرى، لايقع فى مجال الرأى أو الواقف عند الحافة أو حتى فوق السطح، غير مسموح بالاقتراب منها إلا لأصحاب الاسماء المطنة والتي يتم النداء عليها من الطرف الأخر، خطوة واحدة تعرض الوافد للمساءلة وخطر الإقصاء النهائى من دار الإقامة المؤقتة، يعنى ذلك محاولة للتسلل، نادراً ما يحدث ذلك..

يعرف الجميع متانة الخطوط الفاصلة والتدابير المتينة التى تمنع مثل تلك المحاولات، وتعدد مراكز التفتيش المتوالية قبل بلوغ أطراف المدينة المحمية بالأسوار التى تتخللها الابراج وتحفها خنادق المياه وحفر الجمر المتقد وما لا يحصى من موانع يتناقل المنتظرون تفاصيل شتى عنها ، يختلط الحقيقى بالوهم، تدور الحكايات ، تتوالد، تتضافر عناصرها مختلفة مصادرها خلال مراحل الانتظار التى تمر بطيئة، ثقيلة أو راكضة طبقاً لأحوال القوم، بعضهم امضى سنوات طويلة يتعسرون عند احصائها، لكنهم يتطلعون تلك اللحظات الحاسمة.. التى يصغون خلالها إلى نداءات السماح التى يعقبها عبور القنطرة والمرور بالإجراءات المؤدية الى منح التصاريح بالإقامة الدائمة فى المدينة المؤدية الى مدن أخرى، حيث يجرب كل انسان ويسعى.

لا يمكن لانسان القطع بزمان معين جرى فيه تشييد النُزل.. لكن ثمة قناعة بقدمه، بانتفاء القدرة على تحديد تاريخ معين لتأسيسه أو نشوئه.

وبالتالى فإن من وضع اللبنة الأولى فيه مجهول والاقوال فى ذلك كثيرة متعددة فى حاجة الى من يجمعها ويرتبها ويدرسها لكن هذا جهد يقتضى أعماراً متتالية فالامر فسيح، متشعب، متنوع، والبعض منه شاطح، جامع، إذ يقول البعض إن وجود النزل سابق على تأسيس المدينة، ورغم السخرية التى تبدو على ملامح بعض المستمعين لمثل هذا الرأى فإنه لاقى قبولا عند البعض

رغم وعيهم الأتم أن مجرد الاقتناع به أو حتى السكوت عن مجادلته يعرض
النزول لخطر الإقصاء وتحريم دخول المدينة عليه، ومثل هذا الموقف مثير للخوف
والاضطراب، أن يجد الإنسان الساعى نفسه مبعداً، مقصياً، ليس عن المدينة
فحسب إنما عن النزول أيضاً، رغم المجهول والغموض المحدث بالمصائر فتمة من
يؤمنون بأقدمية النزول ولا يكتفون بقناعاتهم إنما يعملون على نقلها إلى الآخرين،
مرة بالإيحاء ومرة بالإشارات. وفى مرحلة متقدمة بالتصريح، وهنا قد يقع
الإقناع، يعرف القائلون المدبرون للأحوال أن مثل هذه الأفكار لا يمكن منعها أو
إيقافها، لكن محتمل محاصرتها وإقصاء أصحابها أو إقناعهم بالعدول عنها وهذا
أفضل بالطبع. معروف أن القناعة العامة لها قوتها وتأثيرها وتمكنها، وما يعرفه
الجميع هنا أسبقية المدينة، ظهرت أولاً فى السهل الفسيح المعتد، كانت البداية
محدودة، تماماً مثل بداية الحياة فى الرحم، هل يراها أحد؟ هل يطلع مخلوق على
بذرة الرجل الساعية إلى كون المرأة المتلقى، الحاضن؟ قامت وتشعبت انحازها
وتعددت جهاتها.

ولدت منها مدن أخرى، ذاع صيتها وتناقل الناس أمرها وتطلع إليها الكل
وسعوا إليها، توافدوا من أنحاء شتى صوبها، وعندما زاد الأمر عن الحد، وضاق
المقيمون بها، الحريصون على طابعها وما تحويه من سبل مريحة ومشاهد لم
يسمع أحد بمثيلها وأنهار وعيون وثروات بلا حصر مما سيجرى تفصيله فى
موضعه، لما كاد الأمر أن يتجاوز الحد، ظهرت الأسوار. ثم الخنادق القتالية،
والقنطرة الوحيدة التى لا يعرف أحد وسيلة عداها للعبور إلى هناك، وفشلت كل
الجهود لمد قناطر أخرى فى أماكن بعيدة أو قريبة، عند هذا الحد أقيم النزول،
بداية متواضعة أيضاً، لكن النمو جرى والتشعب استمر مع توالى الأيام والليالى،
كيف يمكن القول إن المدينة أحدث؟ النزول تابع، أمره لاحق، وضعه مؤقت،
مهمته ستنتهى إذا توقف الساعين القادمين، عندهم الأمل فى العبور إلى الإقامة،

الهيئة المريحة، حيث يلقي كل إنسان ما يريده، ويمكنه تحقيق ما يجول عنده أو يراه في أحلامه، امكانيات لا تتفد هناك..

أراض جديدة، مياه وفيرة.. انهار سارية، مراعى، خضرة كثيفة، علوم متقنة، تحصيلها سهل، إذا كف الناس عن القنوم تنتفى وظيفة النزل، عندئذ يزول أمره ومع الزمن يختفى أثره، لكن هذا لم تبدأ بوادره بعد ولم تلج اشاراته، فمنذ القدم يتوافد الخلق، ويسمح لبعضهم بعبور القنطرة الحجرية، القائمة على فراغ هائل، ويمكن البعض هنا أو هناك منتظرين مصيرهم المحتوم.. ورغم انقطاع الاتصال بين المدينة والنزل باستثناء النداءات المفضية المباشرة بعبور البعض.

والقنطرة المائلة التى يمضى المرور فوقها فى اتجاه واحد فقط، إذ لم يلمح أى إنسان مجيء أحد الذين ذهبوا، أو واحد من الاهالى المقيمين هناك، غير أن المدينة فى حاجة دائمة إلى القادمين الجدد. لهذا لم ينقطع الامل يوما عند أى ذكر أو أنثى من العبور.. من الحصول على الإذن بالاقامة وبدء حياة جديدة مغايرة، أفضل. ثمة يقين أن ما يجرى فى النزل ليس بعيدا عن الناحية الأخرى، انه مرصود، متابع، كيف..؟ هذا ما يختلف الناس حوله، وللخوض فيه تفصيلات.. غير أن الاتفاق حول قدم المدينة وأسبقيتها ترسخ عند الكافة، باستثناء من أشرنا إليهم وهؤلاء لا يمكن تعيينهم أو تحديدهم بدقة، ولكنهم يسعون فى النزل، الحقيقة أن كل ما يمكن أن يخطر بالذهن سوف نجده بدرجة أو أخرى هنا، لكن ما يقال حول تأسيسه وما يتردد عنه أدى إلى انشغال بعض الوافدين بتاريخ الانشاءات القديمة، أى جزء أسبق؟ بذلوا الجهد فى هذا الاتجاه وأمعنوا حتى نسوا الهدف الأسمى من قدومهم إلى المكان، بل إن بعضهم كان يفاجأ بالنداء عليه ويتلقى تهانى جيرانه وصحبه بأسى.

هنا يقول بعض المديرين لتسيير أمور النزل إنه رغم إبراك كل قادم بموقوتية المكث ومحدودية الاقامة إلا أن كثيرين يتعلقون بالمكان ويرتبطون به، بعض هؤلاء

لا يعرف شيئاً عن تاريخ الموضع، أو الآثار المتوازية أو الكتابات المدونة به ، أو الخبايا والدفائن، أو أسرار النقوش العتيقة، بعض منهم يهيم بما رآه وسمعه ويتسمه حتى إذا نودى عليه للعبور وجاءت البشارة بالاقامة رفض وأبدى العناد والتنازل عما جاء من أجله ، لكن ما من قوة يمكن أن تبقى ، لابد أن يتحرك ، أن يتقدم صوب القنطرة ، أن يتم ما جاء من أجله، النُزُلُ للاقامة المؤقتة فقط .
الاعداد الوافدة لا تتوقف، لا تنقطع ، ثمة توازن دقيق غير منظور يجرى الحفاظ عليه بحيث يجد القادمون أماكن لهم، مما دعا البعض الى وجود معادلة قائمة اطرافها هنا وهناك وإن لم تبد كل تفاصيلها ولم تعرف أبعادها . إنما البادى منها نتائجها .

فى البنايات وجوهر الغايات

يسخر الكثيرون من أولئك الذين استهواهم البحث أو استغرقهم الدرس، حتى أنهم ليقضون فترات طويلة يتفحصون ويتشمعون ويراقبون شظايا فخارية انتمت يوماً إلى أنية طعام أو شرب، تزداد القيمة إذا بدت عليها كتابة عتيقة، اشكال غريبة، حروف غامضة باعثة على الخشية والحذر من المجهول المتوقع، وللحروف تلك مفاتيح شتى، ومغاليق أكثر. رغم السخرية من أولئك إلا أن الجميع يدركون جهودهم فى بيان أصل المكان، صحيح أنه لا يوجد اجتهاد قاطع، محدد، لكنها مسارات مؤدية إلى بعضها وإن كانت متقاطعة، مضيئة لجوانب شتى وإن بدت مبهمه، مضيقه، كلهم يجمعون على امتداد الخلاء وانطلاقه، مساحة لا يحقها إلا النهر الجارى هناك بأسفل، على عمق كبير.. هكذا حدوث الطبيعة منذ البداية الخط الفاصل، الحاد، وربما كان اختيار المدينة أخذاً هذا الاعتبار.

لا يمكن تحديد البداية بدقة صارمة. أى لا يمكن القول مثلاً إنه فى يوم الاثنين أو الثلاثاء أو الجمعة بدأ إرساء الأساس للنزل ولكن جرى ذلك خلال

خطوات عديدة ، ربما استغرقت أجيالا . والمسارات المؤدية إلى الموضوع نابعة من جهات شتى ، رئيسية أو فرعية . كثيرون من القادمين لا يعرفون النواحي التي بدأ رحيلهم منها ، وأحيانا يفاجأ المدبرون لأمر النزل بوافدين لا يعرفون أصول الإقامة أو شروطها ، بل إنهم لا يعلمون بوجود المدينة إلا بعد مضي فترة تختلف من شخص إلى آخر ، عندئذ يبدأ هؤلاء في استيعاب تلك الحقيقة العادية ، أن النزل ماهو إلا محطة مؤقتة ، عتبة مؤدية ، نقطة عبور ، رغم أن كل ما يحيطه يوحى بالمتانة والثبات والأزلية ، لكن مثل هؤلاء الوافدين بغثة يستوعبون الحقائق مع مضي المدة ، وشيئا فشيئا يندمجون في الجموع المقيمة ، ويبدأ دخولهم حالة الانتظار بعد إصغائهم إلى ما يتردد عما تحويه المدينة ، بل يكون الأمل عند أمثال هؤلاء أشد وأقوى في المراحل المتقدمة ، منهم نفر أثاروا مسائل عديدة ، وطرحوا نقاطا حاوية للمشاكل ، وصل الأمر في بعض الفترات إلى حد الفتنة ، وكان ممكنا طردهم وإقصائهم ، لكن ثمة حقائق قديمة مؤكدة ، منها أن القائمين على الأمر لا يمكنهم منع أى وافد إلى النزل ، بل إن المنسويين المكلفين بالاستقبال لا يستفسرون عن الجهة التي جاؤا منها ، أو الغرض الذي يسعون إليه ، معروف ، مفهوم ، مدرك ومستوعب أن الكل هنا غريباء ، وأنهم جاؤا بهدف الإقامة في المدينة ، الاستقرار النهائي هناك ، حيث فرص العمل في كل المجالات متاحة ، وحيث يمكن للإنسان أن يبدأ من جديد على كل المستويات ، يمكنه أن يغير اسمه ، وأسماء أولاده ويبدل أبائه وأجداده ويسعى كأنه وافد إلى الكون كله للتو ، مجالات الرزق بلا حدود ، فسيحة ، واسعة ، ومهما طالت الإقامة هنا فإن الكل يتطلع إلى هناك ، إلى لحظة صدور التصريح بالإقامة .

أى إنسان ، بغض النظر عن ملامحه أو لغته ، مرحب به في النزل ، له موضع حتى إن بدا متواضعا ، هينا في البداية ، حتى الحيسوانات الهائجة ، الضالة

لا يمكن ردها أو استبعادها أو مطاردتها ، تجنب أذاها ممكن ، لكن نفيها عن المكان كله مستحيل .

من المسائل الدائرة ، الفاعلة حتى الآن بلا حسم ، بلا قطع مقنع ، مثلا أيهما أسبق ، النزل أم المدينة ؟ ، وهذا موضع يطول الخوض فيه ، جوانبه متعددة في حاجة إلى تأن ، مسألة أخرى تتعلق بأى البناءات أقدم وهذا ما يشغل أولئك الذين استغرقهم البحث فيما تبقى من أزمنة مولية .. أى جزء أعتق ؟

افتراضات عدة كلها لا تتجاوز دائرة اللايقين ، أولها يقول إنه ذلك القائم فى المركز ، بناء بسيط ، مربع ، مهيب الواجهة بدون زخارف حاضرة على إحداث أى تأثير فى نفوس المتطلعين ، الشاخصين ، لا توجد داخله أجنحة أو ممرات أو أقسام أو حجرات ، ما من مستويات ، لا طابق أول ولا ثان ، إنما فراغ مطلق توطئه الجدران القائمة ويحده السقف الذى كان من جنوع الأشجار ، استبدل بعيدان البوص المتلاصقة ، ثم حلت مكانه ألواح خشبية مغطاة بالجص ، كان القادمون يتامون داخله متجاورين وتمضى عليهم سنوات متوالية ، لا يغيرون من أوضاعهم ، لا يحسنون من معاشهم إلا فى حدود ضيقة جدا ، ولم يبدأ الاجتهاد فى تحسين الظروف إلا بعد ادراك تفاوت المدة اللازم انقضائها واختلافها من شخص إلى آخر قبل صدور تصريحات الإقامة ومعها بالطبع أنون العبور ، هذه التصريحات بقدر ما كانت تحدثه من بهجة عند المعنيين بها بقدر ما كانت تسببه من آلام ومشاعر محزنة عند ذويهم الذين لم يؤذن لهم بعد ، لم يكن للصلات العائلية أى اعتبار فى الناحية الأخرى ، كانت الاسماء والحالات تبلغ بطرق مختلفة إلى المسئولين عن الأمور بالمدينة حيث يجرى إدراجها فى قوائم الفحص والانتظار ، وعندما تصدر التصريحات تكون فردية ، من هنا لم يكن هناك نظام دقيق يمكن التنبؤ به عن طبيعة الأدونات القادمة ، ربما يسبق الابن والديه ، وقد يعصى الأب وتقيم الأم بأطفالها عدة سنوات قبل لحاقهم به ، وربما لا يصدر

الإذن أبدا فتتقضى السنوات بالنسبة لبعضهم فى النزل ومثل هؤلاء يختفون بشكل غامض حتى زعم بعض الواقدين أنه توجد مسارب خفية إلى داخل المدينة يتم من خلالها إدخال أعداد من البشر يكون مصيرهم مجهولا تماما ، لكن القائمين على النزل المتوارثين لإدارته منذ حقب قديمة ، ينفون ذلك تماما ويؤكدون وحدانية الطريق المؤدية ، إنها القنطرة ولا سبيل سواها ، وأى محاولة بعيدا عنها تؤدي إلى هلاك حتمى .

هذا البناء المربع كان يضم فى أوقات معينة أفرادا قلائل ، وفى فترات أخرى كان المقيمون به يضطرون إلى توزيع أنفسهم عند النوم ، فنصفهم نائم ونصفهم قائم ، الجزء الأول من الليل بعضهم راقد ، والثانى لنوم الآخرين ، ثم تزايد العدد فخرجوا إلى الخلاء ، وبدأ بناء الملاحق ، كل المباني المحيطة بهذا المربع إضافات ، تدور حوله ، تنتسب إليه رغم صغره وكونه أقل مساحة ، ولكنه الأقدم ، الأكثر إغالا فى الزمن المنقضى ، ومنذ عدة عقود بطل استخدامه للإقامة ، وأصبح بما يحويه من فراغ ، وباتساق جوانبه الأربعة وتطابقها التام مع الجهات الأصلية مصدرا لتكهنات شتى ، وأفكار بلا حصر . وهذا موضع اهتمام الكثيرين ، لكن حضوره رغم خوائه ، وعدم استخدامه ، يحدث حالة مستمرة ، سارية من المهابة والرسوخ ، إنه مركز الموقع ، وقلب المكان عند الكل تقريبا ، ذلك أن بعض النزلاء تهامسوا بما يعنى التشكيك فى القول بقدمه وأنه المركز ، ومثل هؤلاء يقولون بقدم البناية القائمة جهة الشرق ، وإنها الأولى ، وقبلها لم تكن توجد إلا السماء ونجومها فى الليل والخلاء المنطلق حتى الأفق الدائرى المستكين ، لم تهتز مكانة البناء المربع قط رغم كل ما طرح أو تردد ، ذلك أن النزلاء خلال إقامتهم كانوا بحاجة إلى شئ ما يحوى المعانى الغامضة ، المستعصية على التفاسير ، والغير قابلة للإدراك ، ما من واحد منهم يعرف المدى المقدر لإقامته ، هل ستطول أو تقصر ، بعضهم كانت لديه أسباب قوية للظن الوثيق أنهم سيقضون مدة قبل

السماح لهم بعبور القنطرة ، لكنهم فوجئوا بالتصريح لهم بعد تسجيل قدومهم بيومين أو ثلاثة ، وتلك مدة تعد قصيرة جداً ، وهنا تجدر الإشارة إلى حتمية الانتظار الذى تتفاوت مدته ، لا يمكن لقادم مهما كان وضعه أن يتجه مباشرة إلى القنطرة ، هذه الجهة كلها يصعب دخول المدينة منها إلا عبر المنفذ الوحيد ، إذا نجح أحدهم فى عبور المواقع الفاصلة ، وهذا من الأمور غير المحتملة ، التى لايقبلها الذهن ، فسرعان ما يكتشف أمره هناك ويجرى ترحيله إلى حيث لايعلم أحد ، أما العبور بعد صدور التصريح فيعنى ضمان استقبال جيد من القاشمين على مشنون الوافدين الجدد، حيث تجرى عمليات استجواب دقيقة يتم خلالها توجيه ألف وسبعمائة استفسار فى فترة وجيزة لاتتجاوز ثلاثين دقيقة ، لم يعد أحد من هناك إلى النزلاء ليخبرهم بما رأى أو ما مر به ، ولكن لدى كل منهم تصور دقيق لما ينتظره بعد عبور القنطرة، تختلف تفاصيله من شخص إلى آخر ، ومن جماعة إلى جماعة ، من وافد إلى وافد ، من زمن إلى آخر ، لكن جوهره واحد ، ولا يمكن نسبة ما فيه إلى مرجع بعينه ، أو مصدر محدد ، كالقول مثلاً بالكشف الطبى الدقيق الذى يقوم به رجال ونساء لاتبدو ملامحهم ، تغطيتهم الملابس الخاصة الواقية وتخفى ملامحهم الأقنعة الصارمة ، حتى الفتحات التى تتيح لهم الرؤية لاتكشف عيونهم إنما تعكس بزجاجها الرقيق البراق ما يواجهها ، ثمة أماكن معدة على هيئة مستطيلات ، كل منها مقسم إلى فراغات لايتسع الواحد منها إلا لشخصين فقط ، القادم والفاحص ، يتم كشف دقيق على سائر أنحاء الجسد ، كما يتم سحب عينة من الدم تملأ زجاجة صغيرة ، كذلك البول واللعب ، ثم يعقب ذلك مرحلة التطهير ، ويمر خلالها الوافد بأربع عشرة مرحلة ، يتم خلالها النقع والشطف والحلق والنتف والتبخير والجلوة والمداواة والقص والتمديد والتلين والتدقيق والتصوير من الخارج والتصوير من الداخل ثم التعطير ، ولكل مرحلة أنواتها وناسها والقائمين عليها ، المهتمين بها ، يؤدى كل منهم واجبه

ولا ينطق كلمة زائدة ، ربما يستفسر بما يفيد ما يقوم به ، لكنه لا يأخذ ولا يعطى ، من شروط العبور على القنطرة التخلّى عن كل متاع ، وعند مرحلة معينة يتم تجريد القادمين من كل لباس ، يحدث أن بعض السذج ومن عندهم غفلة يدسون بعض الهدايا للتسريع بالمراحل ، إذ يقول البعض إن الفحص يستغرق عدة أعوام ، وأن البعض ضاع عمرهم ما بين الانتظار فى النُزْل وقضاء المدة فى تلك المسافة الفاصلة ، الواقعة داخل المدينة لكنها فى الحقيقة خارجها ، تروى تفاصيل عديدة حول هدوء القائمين على الفحص ، ويطء حركاتهم وذلك التأنى الذى يمارسون به أعمالهم ويتطلعون به إلى مواطن الشك ، كأنهم سيمضون أعمارهم فى النظر والتأمل ، هذا ما دفع البعض إلى دس خواتم ذهبية فى أدبارهم ، أو قطع من العقيق فى أفواههم ، ولجأ نفر إلى حيلة أخرى بتثبيت سن من الياقوت أو الذهب الأبيض ، ولكن هذا كله يتم اكتشافه ومصادرته لكن لا توضح التفاصيل نوعية العقاب ، وغموض هذه النقطة يبيث الحذر فى اللفتة ، لذلك قيل إن أصعب ما يواجهه القادم تلك المسافة القصيرة التى يقطع خلالها القنطرة ونقاط الفحص التالية ، لذلك يكون الخوف غالباً على المودعين المحبين ، ويردد بعضهم عبارات تطمئن الذاهب إلى هناك رغم أنه موضع حسد كثيرين لصنوع التصريح بالعبور الذى تعقبه الإقامة ، يردد النزلاء جملة قديمة تقول كلماتها :

« الفراق صعب فى كل الأحوال ... »

وهناك أشعار وأغان متوارثة نظمها بعض المجهولين الذين لم تصل اسمائهم ولم يعرف هل كانوا من العابرين المخطوظين أم الذين قضوا المدة بدون نتيجة تذكر ، وأدب النزلاء موضوع متعدد الجوانب يقتضى الخوض فيه مساحة وجهداً غير قليلين فى محاولة الإلمام والإحاطة .

الأشعار ، الحكايات المتوارثة ، الأمثال ، الوقائع المروية ، كلها متصلة بالإقامة والانتظار والتوق ، ورغم تعدد التفاصيل ، إلا أن الرؤى والاجتهادات والمشاعر

تعلقت بهذا المربع العتيق وما يحويه من فراغ ، لا يمكن تحديد تلك السنة التي توقف القوم عن النوم داخله أو الإقامة فيه ، ربما بعد تعدد البنايات وتشعبها واختلافها وزيادتها أحيانا عن الحاجة .

لا توجد نصوص معينة ، لكن ثمة مهابة وأبعاد غير مدركة بالحس تحيط هذا الفراغ المربع ، ورغم أن بناءه أعيد أكثر من مرة عبر فترات تاريخية محددة أو غير مدونة ، فإنه ينسب إلى ملوك المدينة القدماء ، ويقال إن أحدهم أشفق على القادمين من الدروب المؤدية فأمر عماله المهرة بتشبيد البناء لإيواء الخلق ، انها المرة الوحيدة التي جرى خلالها عبور مضاد منظم ، إذ لم يحدث قبل ذلك أو بعده أى عبور مماثل بل إن القنطرة شيدت فى وقت لاحق . إنما كان الأمر يتم فوق ألواح خشبية كانت تمد ثم تسحب ، ولكن مثل كل شئ يتعلق بالنزل أو المدينة لا يتفق عليه اثنان إلا فيما ندر ، بمجرد ترديد هذه التفاصيل التى بدت فى إطار حقائق لا يرقى إليها الشك ، مفروغ منها ، مقطوع بها ، كما أنها تهدئ الاستفسارات المنطوقة والمسكوت عنها عند أولئك الذين قطعوا مراحل عديدة ومسافات طويلة قبل وصولهم إلى هذه المنطقة القصية البعد ، أصعب الأسئلة مالا ينطق بها الإنسان ، ما يوجهها إلى نفسه ويضع بها وعيه ، يفترض فى السؤال البوح أى وجود آخر يصغى ويجب ، لكن ليس هكذا الأمر فى كل الأحوال ، إنما يخفى البشر العديد من الأسئلة يضمرونها ربما لأنها غريبة أو تبلغ حدا من السذاجة يخشى أصحابها من تعرضهم إلى سخرة الآخرين ، أو لأنهم لا يقدرّون على صياغة ما يحيرهم فى ألفاظ متداولة ، وما أكثر بواعث الحيرة عند بلوغ النزل، عن بدء الإقامة فيه والتعامل مع أركانه ، المسكين بدقائقه ، والاستجابة إلى شروط الإقامة وقواعدها والالتزامات المترتبة عليها ، أن يخرج عنها تعرضه لمخاطر جمة أقلها حرمان شبه مؤكد من منحه تصريح الإقامة الدائمة فى المدينة ، ويعنى ذلك فقدان الأتم ، فلا يمكن لمخلوق أن يتخيل نفسه بعد هذا العناء كله

مقطوع الأمل من عبور القنطرة إلى الحياة الهنيئة ، المرجوة ، ومطروء أيضا من النزل إلى البادية القسيحة ، إلى الخلاء المطلق . لا يصل الوافدون إلى موقع النزل إلا بشق الأنفس ، كثيرون منهم يقضون فى الطريق، وأقرب الأماكن العابرة تقع على مسافات تختلف القوم فيها ، ثمة عقبات عديدة أولها ذلك اليقين الداخلى الراسخ المبتوث باستحالة العودة ، العقبات أوعر مما يتصور أحد ، وهذا النفر القليل الذى انقطعت صلاته بالنزل وحرم من الإقامة مضوا راجعين لكن لم يظهر واحد منهم مرة أخرى ليخبر بما رأى ، ولبعض ما سمعه وما لقيه ، لم يعد أحد الى النزل من أولئك الذين خطوا إلى الامام وعبروا القنطرة ، أو أولئك الذين سلكوا اليباب بحثا عن منافذ تؤدي بهم إلى نقاط انطلاقهم، والمحطات التى قطعوها ، أو توقفوا عندها قبل بلوغهم النزل ، لا واحد من هؤلاء أو هؤلاء عاد ليخبر وليطلع ، لذلك كانت تلك الدرجة من عدم اليقين التى تحايل كل نزىل بطريقته ليدير حولها ويحاورها ويبدى تجاهلها وإن كان منغصا بها أو يقمعها شيئا قسويا حتى تموت داخله فيحل الهمود ، هذه الدرجة الجلية عند البعض ، الخافطة عند آخرين ، الساكنة عند معظمهم ، تسرى خافطة ، إنها مصدر كل سؤال مؤد إلى حيرة أعقد و تيه أشمل وخروج عن الجوهر والحد أحيانا ، كثير من الروايات المتناقلة مفترض أنها تهدى وتعين على الانتظار الذى يمتد أحيانا عدة عقود ، ولكن تلك الدرجة من عدم اليقين تقلقل وتؤجج، لذلك بمجرد طرح هذه التفاصيل حول المؤسس الأول الموصوف بالقوة والمهابة والعطف على القوم أيضا وهذا ما دفعه إلى تأسيس النزل ليتقى الوافدون اليه الحر والبرد ويأمنون من خوف ومخاطر الخلاء التى لاتحد ، حتى صدر عن البعض استنكار مبطن مضمونه : هذا يعنى أن المدينة لها أسبقية ، وأن النزل لاحق ، مجرد ترديد تلك الحكاية يعنى الإقرار بهذه البديهة ، وهذا أمر لم يحسم حتى الآن ، أيهما أولا ، المدينة أم النزل ؟ يرجع البعض هذا التشكيك إلى القائمين على تدبير الأمور ، إذ إن القول بأسبقية المدينة يهز مكانتهم بشكل ما ، ويظهرهم كتابعين لعقول المدينة الذين لايعرف أحد عنهم شيئا .

الوثائق التى تؤكد الحقيقة موجودة هناك فى المدينة، متاحة لأى عابر مسموح له بالاستقرار ، يمكن من خلالها الاطلاع على كل التساؤلات المطروحة ، الظاهر منها والمستتر ، تقول الحكايات المتناقلة إن كل الاجابات مدونة مقترنة بالوثائق المؤكدة ، مدرجة ، مرتبة ، متاحة هناك ، فى المدينة الأمر مختلف ، للأسئلة الصعبة إجاباتها المتواترة ، إذا لم يقتنع المرء فثمة اجابة تالية ، ربما تبدو فى ظاهرها مناقضة للأولى ، لكنها تفسر وتكشف ، هكذا ، لا تنتهى الاجابات ، ولا تتوقف الايضاحات ، ولا تكف الشروح ، لكن فى كل الأحوال لا يمكن رد سائل أو منع مستفسر ، هناك ليس أسهل من التساؤل ، وما من أمر متاح مثل الجواب .

هنا يطرح سؤال مضمونه استنكار مبطن ، خفى ، مصدره فى الظاهر بعض من مضى عليهم مدة طويلة هنا ، وفى الحقيقة بعض القائمين على تدبير الأحوال ، مؤداه : وهل جرى منع أى إنسان من الحديث ؟

ربما يتربد البعض فى النطق بإجابة صحيحة أو صريحة ، باستمرار هنا الخشية من المخالفة وهذا فى حد ذاته مانع ، معوق ، رغم أن كل العلامات البادية تحض على السؤال ، ومن الأقوال المتداولة المنسوبة إلى الوافدين الاوائل ، لابد من الاستفسار مدى الحياة ، عبر كل المراحل ، حتى الشيخ الكبير يجب ألا يتحرج ، ألا يتردد ، فمن يكبره بيوم ربما يعرف ما لم يطلع عليه بعد ، ومن يصغره ربما أبصر ما لم يبصره من قبل ، السؤال فاتحة لسؤال آخر حتى وإن بدا فى هيئة اجابة، رغم ذلك فإن المسكوت عنه أكثر من المنطوق ، ذلك أن معظم المقيمين يدركون أن بقائهم مؤقت ، محدود، وأنهم مهددين بالإقصاء عن النزل لأسباب عديدة بعضها معلن ومعظمها مسكوت عنه ، يكفى على سبيل المثال أول تلقين بيت سرا فى أذان القادمين ، أو بالإشارة للصم منهم : عدم الخوض فى الموضوعات السبعة !

يلقى هذا كله مناخا من الحذر والخشية ، ذلك أنه لم توجد قط حدود فاصلة معلنة تفرق بين ما هو مسموح به وممنوع ، بل أعلن عن قليل وترك الأمر للتخمين.

الأمر عكس ذلك هناك فى المدينة ، فقط بمجرد عبور الجسر وبدء سريان الإقامة ، رغم أنه ما من خبر مؤكد ، أو توثيق محقق ، لم ترد رسالة معاينة مخطوطة على الحجر أو عظام الإبل أو السلحفاة أو البردى أو سعف النخيل أو الورق ، غير أن الكلام المتوارث ، الدوار ، يحاول الاقناع من خلال أسانيد تقوم على إشارات بعيدة ، أو لمع ويوارق نائية ، وحول مثل هذه الأمور جرت خلافات شتى يصعب الخوض فيها ، وإن لم يمنع ذلك تردد السؤال : من يمكنه القطع ؟

غير أن كل نزيل يعرف ما يجرى حوله ، ما يراه حتى وإن لم يفهم بعض الأمور المعاينة ، فليس كل مرئى مدرك ، إن رغبة خفية تستقر داخل كل منهم بانقضاء الأوقات على خير ، بدون مشاكل تؤدى إلى مصابرة الحق فى العبور قبل صدور الإذن من هناك ، لذلك مال كثيرون إلى المسايرة انتظارا لتلك اللحظة التى يتجه فيها الوافد بمفرده إلى القنطرة ، رغم تردد العديد من التفاصيل فإن الحقيقة التى تعد ناصعة ، ماثلة ، هى السماح للفرد بالعبور ، لم يحدث قط أن ذهبت أسرة معا مهما طال المكث وبلغت المدة .

المؤكد أن أكثر أجزاء النُزُل احتراماً ومهابة ذلك الفراغ الذى يحويه المربع حتى عند من يضم شكاً .

هذا الفراغ المؤطر بجدران أربعة بعد الأقدم ، إنه فى موضع النواة ، البؤرة التى شع منها كل ما يحيطها ، كل البناءات المتضامة ، المتقاربة الحساوية ، المتطلعة ، تنفرع منه . هذا لابد من ملاحظة أولى وثانية أما الأولى فظهور المربع للقاصى والدانى والمتجول فى أى مكان من موضع النُزُل ، إذ صممت كل البناءات المضافة عبر أزمنة متوالية بحيث يمكن رؤية المربع حتى بدء الخطو فوق القنطرة ،

بالتحديد حتى منتصفها ، وفى جميع المرات التى تم خلالها إضافة مبنى حديث لاستيعاب القادمين الجدد ، جرى الحرص من المخططين ، القائمين على الشئون بآلا يؤثر الجديد على القديم ، ألا يخفيه عن الأنظار ، ومن الأمور التى تتردد هنا كحقيقة لا جدال حولها أن لكل شىء مركز ، ومن ليس له نواة لا يوجد ، ومركز النُزل فراغه الممتلىء بأزمة لا حصر لها ، ورغم ما يتردد عن ضخامة المدينة وامتدادات أحيائها وضواحيها حتى أن بعض من يبلغها طفلاً يشب فيها ويشيخ ويرحل ولا يتاح له رؤية كل أنحائها وسائر جهاتها ، الملاحظة الثانية دوران المربع حول مركزه كل ألف ألف قمر مكتمل ، أى أن الوضع الذى يرى عليه الآن لم يكن كذلك عند بدء تشييده وهذا أمر يقبله الجميع وإن شك البعض فيه ودعوا إلى إجراء القياسات المتعارف عليها لكن لم يجرؤ أحد على ذلك .

ضخامة المياني تبدو من بعيد للقادم وكأنها عمارة واحدة ، بناء مفرد ، لذلك جرى تسميته بالنُزل فى سائر اللغات ، رغم أن اللفظ غير دال تماماً ، ذلك أن العماثر المتفرعة من المربع لا يمكن إحصاؤها على وجه الدقة ، بعضها متداخل ، ومنها ما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال بناء آخر ، الارتفاعات متفاوتة ، لكنه اختلاف لا يلوح ولا يثبت إلا من مسافة قريبة ، دانية ، إذا ما تجاوز الإنسان البالغ حدود النُزل فإنه يرى كل ما يقوم فوق الأرض متضاماً ، متصلاً ، متلاصقاً ، يؤدي بعضه إلى بعض ، هكذا ظن معظم القادمين فى البداية ، غير أنهم بالإقامة والتعرف على المكان والبشر تبين لهم خطأ ذلك .

ما من نزىل إلا ويحكى عن لحظات اقتراب من الموضع ، أو اكتشافه له ، والقادمين واحد من اثنين ، إما يعلم بوجود النزل مسبقاً ولذلك سعى إليه باعتباره المحطة المؤدية إلى المدينة ، أو العتية الفاصلة ، معظم هؤلاء كان لديهم فكرة عامة مبهمة عن موضع انتظار . لكن ما نظامه ؟ ، ما هيئته ؟ كيف يمكن الإقامة فيه حتى يصدر السماح النهائى بالدخول ؟ . لا أحد يعرف ما ينتظره تفصيلاً ، وهذا

ما يسرى على المدينة أيضاً . فالمياهج المتوقعة والراحة المأمولة مدركة فى جملتها وليس فى تفصيلها . أما الثانى - وهذا أغلب وأعم - فهم من يجهل وجود النزل ولم يحط به علماً .

يصف البعض لحظة بلوغهم الحد الذى تبدأ عنده الرؤية ، خاصة أولئك الذين جاؤا ليلاً ، إن الطرق والدروب المؤدية تمر بمناطق قفر ، خالية من الظل نهائياً ، فضاعات غير مرئية ليلاً تمرق عبرها الرياح الباردة ، ليس أمام العابر إلا القوارى بجانب تل أو مرتفع صخري أو رملى ، وفى لحظة معينة عند نقطة تتساوى تقريباً عند الجميع تلوح أضواء مدغمسة ، غلالة معلقة ، أصداء الأضواء ، بخار المصابيح المعلقة فى الطرقات الفاصلة المؤدية أو داخل الفراغات المؤطرة بالجدران التى ينمدد فيها القوم ، حتى لو كانت النوافذ والكوات مغلقة ، فإن ما يتسرب خلالها من ضوء يعلق بالفضاءات السارية حتى لو كان ضئيلاً ، رسالة خفية ، هشة ، لكنها مؤداة برهافة للأبصار المترقبة ، المنهكة بطول الرحيل .

فى البدء تلوح الغلالة الضوئية ، العالقة ، كأنها ظاهرة من تلك الظواهر التى تنتشر فى الخلاء الواسع ، خاصة فى الليالى المزدهمة بالنجوم الثابتة والوافدة والمارقة ، تلك الشهب والنيازك ، القصف الكونى مجهول المصدر والذى كان يثير الرعب فى البداية عند المقيمين فى النزل حتى ليرتفع صراخهم وفيما تلى ذلك من أزمنة تحولات الفزعات إلى ابتهالات ثم تأملات متطلعة متأنية بعد الوقوف على بعض الحقائق ، ويقال إن سماء المدينة مغايرة ، رغم أن المسافة الفاصلة بين النزل وأسوارها ونقاط العبور لا تتجاوز عرض هذا النهر ، ذلك أن أضواء المدينة قوية ساطعة حتى ليبدو ليلاً نهاراً متألّقاً ، لكن الغريب أن تأثيرها لا يتجاوز ما تشغله من مواضع ، كما أنها معالجة بحيث لا تلوح للنزلاء أو المقربين منها ، لذلك مهما بلغ تطلعهم جهة مبانيها وأسوارها لا يرون إلا عتمة وظلمة يصعب

النفاذ منها أو عبرها ، إلا من أوتى قدرة خاصة على حل الموضوعات السبعة أو استيعابها على الأقل ومثل هؤلاء ندرة وسيرد ذكر بعضهم ، لكن في كل الأحوال يجمع الكل أن رؤية انعكاسات الضوء على طبقات الفراغ العليا من أجل ما يمكن معاينته في الكون المنظور ، وتمثل هذه اللمعات الخافتة في الأذهان إلى الأبد ، مهما بدا ومهما أتى الواقع بفرائب الأمور ، دائماً للبدايات زهوة ، وللمطالع نضرة ، والمعاينة الأولى لا تمحى ، لا يقتصر ذلك على النظر أو النطق إنما يمتد إلى سائر الحواس ، فما تسمعه الأذن أولاً يحدد مجال السامع طوال عمره ، وما تتألفه العيون من ألوان في البداية يؤثر ويحدد المستحب ، المفضل منها ، وما يستحسنه اللبقة من طعام يعتاده المرء في طفولته أو أيامه الأولى يؤجج حنينه إلى ما فات باستمرار ، كذلك الأمر في الوصال ، فما عرفه الذكر وما ألفته الأنثى أولاً يحدد المفضل عند كل منهما فيما بعد ، هذه أمثلة على حقائق مفروغ منها ، راسية ، لكن لا بأس من التذكير بها ولفت النظر إليها ، فكثير من البديهييات يتوه في الخضم ومنها لحظات اكتشاف الأضواء المنبعثة ليلاً ، أو الوقوف على الخطوط العامة لمجمل البنيان لمن يصل نهائياً ، يظن أنه في مواجهة بيت قديم ، بنائية واحدة ، متساوية ، لكن مع كل خطوة اقتراب تسفر المعالم عن مضمونها وتتضح الفروق ، حتى إذا دنا ، لاح السور الوردى ، تلك الدرجة النادرة من اللون الأحمر القاتع ، التي تغرق حيناً وتفتح حيناً ، يمضى القادم إلى جواره حتى يصل إلى المدخل الشرقي ، فيجده مغلقاً ، لكنه بالطرق والصياح يفتح الباب الذي كان في الماضي البعيد من جنوع التخيل .

لا يرد إنسان ، ولا يطول مكثه إلا المقدار الفاصل بين صدور الصوت عنه وسماعه عند القائمين . المكلفين بشئون الباب ، وهؤلاء لهم مهابة ، ومنهم رسوخ متين ، وجولهم كلام ، ليس هذا أوانه أو محله .

لا يمكن لقاصد أن يعود خائباً إذا طرق الباب أو لزمه بعض الوقت ، يحدث أن نفرا يبلغونه فى حالة إعياء صعبة ، وعرة ، حتى لا يقدرّون على الطرق أو النطق فيمكنون .

للباب مكانة طبعاً توازى رؤية الواصلين ليلاً لأصداء الضوء وتأكدهم أنها من علامات الوصول ، لذلك قال البعض بقدم هذا الجزء من النزل عن المركز ، مثل هذا غير مستحب ، ولا يعرف أحد تأثير صدوره أو اليوح به على السماح أو المنع بالنسبة للإقامة فى المدينة ، ذلك أن بعض من قالوا به نودى عليهم وعبروا القنطرة ، صحيح .. لا يعرف أحد ماذا جرى لهم ؟ أو ماذا قابلوا هناك ، لكن ذهابهم شجع البعض على القول بما صرحوا به ، ولا يمكن معرفة الطرق أو الوسائل التى تنتقل بها الأفكار ، ولكن أهل النزل يختلف بعضهم عن بعض ، رغم الخشية البادية والصمت الملوح ، وما القول بقدم الجهة الشرقية عن المركز إلا عرض من أعراض الخلاف .

الباب المؤدى إلى النزل من الجهة الشرقية أقدم الأجزاء ، ليس المربع ، إنه أول ما يقابل القادمين ، كلهم بدون استثناء ، هل سمع أحد عن ضيوف وقدوا من الغرب أو الجنوب أو الشمال ؟ لم يحدث ذلك قط .

إن .. كيف لا يكون الجانب الشرقى أصل النزل ؟ ، بذلك قال المشرقيون وأمرهم معروف : وجميعهم استقروا فى مساحة من الأرض مطلة على الخلاء الذى يفد منه القوم ، هذه المساحة لم تستمر خالية ، إنما جرى تمييزها وإحاطتها ببعض الأحجار فى البداية منعاً للاحتكاك والوصول عند المناقشات إلى حد الاقتتال ، صحيح أن ذلك لم يحدث إلا نادراً عبر مراحل زمنية طويلة ، لكن التحوط جرى واستمر كقاعدة ، ارتفع السور الفاصل ، ثم ظهرت البنايات ، كانت محدودة لضيق الفراغات المتاحة ، حتى أصبحت الطرقات الفاصلة مجرد ممرات

صغيرة يصعب مرور اثنين إلى جانب بعضهما عبرها ، أى لابد للمششى أن يفسح للقادم بتولية وجهه أو ظهره إلى الجدار ، وشيئاً فشيئاً ازدادت الممرات تشعباً حتى أصبح المشى فيها لمن لا يعرفها يتضمن مخاطرة ، فالعزلة التى أحاطت المشرقيون أدت إلى تقوقعهم وانكفائهم على نواتهم وحرصهم على عدم الخروج من منطقتهم والتزاج فيما بينهم ، وربما أدى ذلك إلى ضمور أجسادهم ونحولها وتقارب ملامحهم وفشو الأمراض فيما بينهم ، ومن الملاحظ أن كثيرين ممن ينادى عليهم لا يجيبون ولا يظهرون رغم صدور تصریحات العبور والإقامة لهم ، ويتردد أن هذه المباني المتشابكة أصبح لها عمق تحت الأرض وأنها تتصل ببعضها وتلتقى فيما يشبه بناية تحتية معدة لإيواء كل المشرقيين إذا ما تعرضوا لهجوم لم يقع رغم أن انتظاره مستمر منذ أعوام لا حصر لها ، ورغم أن كل شىء فى النزل مؤقت والمكث فيه لا يدوم لكن هذا الجزء يبدو كأنه اقتطع وأحيط بأسوار شتى بعضها مرئى والآخر خفى ، كما أن تعدادهم ظل مجهولاً ، والأشد غموضاً الوسيلة التى يتزايون بها ويمررون أفكارهم ومعتقداتهم ، كان بعض الوافدين يقصدونهم مباشرة وكأنهم سمعوا بهم عبر طريق الرحيل ، أو جرى تلقينهم بشىء ما ، لهم شئونهم وأساليبهم فى قبول القادمين إليهم والتحقق منهم ومما يبطئونه، حتى يمكن القول للناظر من بعيد إنهم نزل مغاير داخل النزل ، ولكن هذا مجاف للحقيقة ذلك أنهم مجرد جزء ، يسرى عليهم ما يشمل الكافة ، ولا يشذ واحد منهم عن القواعد المراعاة للإقامة المؤقتة ، صحيح أنهم مختلفون إلى حد ما ، لكن من قال إن شخصاً يشبه الآخر هنا ، كل إنسان له قائمة بذاتها مهما بلغ الامتزاج وسرى التوالج .

أمر آخر .. المشرقيون أنفسهم لا يجمعهم إطار واحد ، يتحدثون فيما بينهم عن أول وافد منهم ، جساء ولزم الجهة الشرقية ، كان جليل المظهر ، أشيب اللحية مكتمل الإفاضة ، كثير الصمت ، اختار مكانة بعناية ، مكث فيه ،

لم ينتبه إليه أحد قبله ، أول ما تلامسه أشعة الشمس فى الكواكب كلها قبة منها يبدأ الشروق ، وأمسرها معروف بينهم ، لكن موضعها مجهول الآن . مختلف فيه ، هذا الرجل الصموت موضع خلاف أيضا ، غير أن الكل مجمع على أنه جساء ممسكا بقضيب من الحديد وراح يبرده بجذع شجرة صلب ، نوعية من الأخشاب ذات خصائص محيرة ، إنه كان يستهدف تحويله إلى إبرة ذات ثقب .

هنا يبدأ الجدل بين المشرقيين حول النقاط السابقة ، أولها متعلق بموضع الأرض الذى تلامسه الشمس ، بعضهم يقول إنه تحت إحدى البنايات القائمة ، وآخرون يؤكدون حدوث تباطئ فى دوران الشمس و دوران الأرض ، وأن ما كان شمالاً فى الماضى أصبح جنوباً الآن ، وفريق ثالث يقول إن هذه النقطة معلقة فى الفراغ ، موضعها ما بين النزل والمدينة ، وإن الشرقى الأول حدد موقعها بدقة ، لكنه أودع كل ما يتعلق به داخل المدينة بعد أن نودى عليه فى نفس اللحظة التى أتم فيها نحت الإبرة التى كانت فى الأصل قضيبا غليظاً من الحديد ، أما قطعة الخشب النادرة فاختلفت ، تلاشت ، أمضى جالساً أو متمدداً أو مراقبا مائة وأربعين عاما كاملة ولا يعرف أحد كم أتم هناك على وجه الدقة ، فمن يصدر الإذن بعبوره وإقامته هناك لا يعرف أحد هنا شيئا عن تفاصيل ما جرى له .

بعض المشرقيين يؤكدون أنه حل الموضوعات السبعة ، قبل مغادرته المكان وآخرون يقولون إنه فرغ منها عقب اكتمال الإبرة ، وفريق ثالث يؤكد أنه دخل المدينة معلناً فضه لمخاليقها ، وأنه مازال حيا يسعى هناك ، وكل مشرقى يصل إلى هناك يقابله ، ويطمئنه ، ويبيت الهدوء فى روحه ، ويتلقى عنه ، ويدبر له كل ما يوفر الراحة وهدوء البال ويعوض مشقة الانتظار ، أن وجوده هناك يخفف الكثير من مشقة الرحلة على المهاجرين الجدد ، خاصة عند لوجهم فضاءات المدينة متعبين

منهكين ، تائقين إلى الكنة والمأوى ، رغم أن المسافة الفاصلة ليست طويلة بالمقاييس المعتادة ، فإن تلك الخطوات القليلة فوق القنطرة وأوقات الانتظار والإجسابة على أسئلة لا حصر لها ، متشعبة ، متكررة ، والتهيب من المتوقع ، واللهفة على رؤية الملامح الأولى للمدينة ، تلك اللحظات التي ستبقى ماثلة في الأذهان أبداً ، يتضافر هذا كله يستنفر أقصى ما لدى الإنسان من طاقة ، لذلك عندما يحط يكون على درجة من الإعياء صعبة ، إن لمساته الحانية ودرأيته بالجانبين وما يوجد في كل ناحية تخفف الكثير عن الواصلين المنهكين .

هذا ما يقوله المشرقيون ، غير أن فريقاً صغيراً منهم اتخذ موقفاً ، بنائية اسطوانية الشكل ، مغايرة ، قالوا إن المهيب ، الجليل ، طويل الصمت ، لم يغادر النُزُل وأنه مكث حتى وافاه الأجل ودفن تحت هذا المبنى ومعه الإبرة التي كانت قضيباً من حديد . هذا ينقسم هؤلاء إلى فريقين ، الأول يقول إنه لم يصدر له الإذن بعبور القنطرة ، وقطع أيامه كلها صامتاً ، محنياً إلى اللحظة التي يعلو فيها النداء باسمه ، لكنها لم تأت . لم تحل ، الفريق الثاني يقول بغير ذلك ، إنه نودي عليه أكثر من مرة لكنه الوحيد في تاريخ النُزُل الذي لم يستجب ولم يمش إلى المدينة ، وأثر البقاء مكانه يبرد القضيب الحديد بقطعة من لحاء شجرة . يقول نفر من الفريق الثاني إنه لم يقدم على تلبية الإذن بعد أن تم له حل الموضوعات السبعة لشدة تركيزه وطول صبره وصمته وإفراغه الطاقة المعطلة في حركة يديه التي لم تتوقف قط طوال صحوه ، أما الجماعة الشساطحة من الفريق الثاني فيؤكدون أنه لم يتبع الداهيين إلى هناك لأنه استحضر المدينة عنده ولم يمش إليها ، ورغم محدودية القائلين بذلك فإن تفسيرهم هذا اعتبر أخطر ما صدر عن النزلاء أو تم التفكير فيه ، تصدى لهم في البداية أهل البنيان الأسطواني في جفلتهم ، ودارت معارك مكتومة أريق في دماء ، لكنهم جميعاً حرصوا على كتمان نزاعاتهم وخلافاتهم خشية الإقصاء الإجمالي وهذا أوعر

وأصعب ما يمكن أن يلحق بالمنتظرين هنا ، مهما اشتدت المنازعات التي قد تصل إلى حد التصفية الجسدية ، إلا أن القبول بالنفى إلى الخلاء المضاد كفيلة ببيت الرعب في الأوصال ، عرف هؤلاء بالأسطوانييين ، مع أنهم ليسوا بمفردهم في المبني ، يقولون إن الصمت والتأمل وإمعان الرؤية أدى به إلى تركيز الحالة التي توصل إلى استحضار المدينة بكل ما تحويه واحتوائها تماماً وتقليبها كما يشاء المرء وليس كما خطط أهلها ومن وضعوا أساسها ، ومن الأقوال التي نسبوها إليه ، لكل منا مدينته ، وما عليه إلا بذل الجهد لاكتشافها ، إما بالرحيل إليها والولوج فيها ، وإما بتمثلها واستحضارها ، البعض يفنى عمره من أجل دخولها ولا يصل إلى تحقيق ذلك ، وقلة يستدعونها إليهم ويفنون كل ما يشكلها من عناصر وموجودات ، معظم المشرقيين يصغون بدهشة ويحاولون إبطال حجج الأسطوانييين بقولهم إن طويل الصمت لم ينطق ، فمتى قال ما ينسبونه إليه ؟ غير أنهم يريدون على الحجة بقولهم إن كل ما يُقال ليس بالضرورة نتيجة اللفظ ، ثمة مقولة بالنظر أو اللمس أو اتخاذ الوجهة ، بل إن للفراغات القائمة معانيها ومدلولاتها .

لا يعرف أحد على وجه الدقة كيف يتم انتقال الأفكار المشرقية أو الأسطوانية عبر الأزمنة المختلفة ، خاصة وأن معظم القسامين لديهم أفكارهم ومعتقداتهم وما يعتقد البعض أنه ثوابت ، لكن بلوغ النُزُل يحدث قلقلة وخلخلة .

الوصول إلى النُزُل يحدث حالة تجعل كل انسان متقبل لأي وافد ، يعرف جيداً أن الإقامة مهما طالت مؤقتة وأن الثبات مستحيل وفي لحظة معينة يصدر الإذن بالعبور تمهيداً للإقامة ، هذا طموح كل من قبل الانتظار في النُزُل ، إن المجيء إليه نهاية مرحلة طويلة شاقة لا يقدر على قطعها كل من أوغل فيها ، لذلك يعتبر نهاية مرحلة وبداية أخرى متضمنة لكل ما هو مأمول ، من هنا يظن معظم القوم

أن ما يتردد هنا لابد من فهمه تمهيداً للعبور ، وكلما تقبلوا ما يسرى بين النزلاء القدامى كان ذلك أوفق وأفضل ، يبدو الأمر في البداية كما لو أن ما يصغون إليه شامل ، سار ، متغلغل في سائر النفوس ، نفر منهم لا يمضى الوقت الكافى ليكتشف تنوع الأفكار ويتناقضها وتشعبها إلى ما لا نهاية بين القوم ، إذ سرعان ما يتلقون الإذن بالرحيل إلى المدينة ، أما من يطول بقاؤهم ، فيدركون هذا التنوع أو يبلغهم ، ويتوزعون بين ما يسرى هنا أو هناك ، تماما كما يتفرقون في المكان والسكنى المؤقتة، هنا يؤكد بعضهم ، خاصة من القدامى ، أن عدد الفرق في النزل مساوية تماما لعدد أحياء المدينة في الناحية الأخرى ، لكن اعتبر ذلك نوعاً من المخاطلة ، لا أحد يعرف بالضبط شكل المدينة ، وكافة ما يقال إنما مجرد تخمين وتخيل ، ما من أمر مؤكد .

الأشجار والقول في الفراغات

دائما ينطلق الخلاف من القول بالأسبقية ، وكثيرا ما يصاغ ذلك على هيئة تساؤلات ، على سبيل المثال ، من ظهر أولا ؟ الأشجار أو النزلاء ؟ من سرى أولا ؟ الريح أو المطر ؟ ما أول ظل ؟ ما مصدر الرياح ؟ وأين آخر محط ؟ هل تعبر تلك النسومات الضفتين وتمضى إلى المدينة أيضا ؟

أسئلة عديدة بلا حد أو حصر ، لا يوجد تحذير واضح بمنع التساؤلات ، بالعكس ، ثمة من يحض عليها . وهناك جملة متداولة رائجة ، تقول بأفضلية الاستفسار ، لكن السؤال لا يستلزم الجواب ، كثير من علامات الاستفهام تؤدي إلى مثيلتها ، وأحيانا يطرح أحد الوافدين سؤالا عند قدومه ، ويقيم حولا إثر

حول ، ثم يفارق ملبياً الإذن بالإقامة وهو يردد جوهر السؤال مع اختلاف فقط في الصياغة

رغم القناعة التي يبدأ رسوخها عند الكافة ، أو فلنقل الأغلبية بثمة بداية في المنطقة ، سواء كان المربع أو الحد المشرقي ، لكن المؤكد أن التزل لم يظهر إلى الوجود مرة واحدة ، رغم أنه يبدو من بعيد كتلة متناسقة متناغمة ، لكن الاستفسار الذي لم يلق إجابة قاطعة حتى الآن ، أيهما أولاً ، الإنسان أو الأشجار ؟

لكن .. لماذا الإنسان ، ولماذا الأشجار ؟

ربما لأن كلاهما نتيجة لمراتب وعناصر أخرى موجودة بالفعل من قبل ، فلا يمكن القول بوجود كلاهما مع انتفاء الماء والزاد الذي يتغير من عصر إلى عصر . هذا على سبيل المثال فقط ، ولكن يبدو أن حضور الأشجار ماثل بقوة . ليس في المكان فقط ، ولكن في الأذهان أيضاً ، يقول القائلون على التزل - وهم أيضاً من العابرين ولكن لهم ترتيب خاص - أن المكان في البداية لا يمكن تحديده بدقة . بالتأكيد كان هناك فراغ ، أو بمعنى أدق خلاء . قبل أن تهطل الأمطار بغزارة وينبت عشب ، طال بعضه وأصبح أشجاراً كثيفة ، في وقت قديم لم يكن ممكناً التمييز بين موضع التزل والمدينة ، يمكن القول إن كلاهما واحد . لم يوجد في تلك الحقبة النائية ، المجهولة ، إلا أصوات الأشجار إذ تتمايل أو تمرق عبرها النسيمات أو الرياح أو تدب أسباب مجهولة تؤدي إلى صدور ما يشبه الخشخشة أو الأنين أو الضحك الخافت أو التشوة في أحوالها المختلفة ، يمكن القول إن هذه الأصوات الصادرة عن الأشجار المترامية المتجاورة أساس معجم الأصوات البشرية والكونية . من الأقوال المتوارثة في التزل أنه لا يوجد شيء ساكن أبداً ، حتى الأحجار الصماء بها تردداتها ومنها تتبعث اللغة والإشارات ، لكن لكل شيء من حي وجماد وساكن وناطق لغته . أما الأشجار فجأوية للكافة ، ما يصدر عن

الجذع مغاير لما يسمع من الأغصان ، أما مايتخلل الأوراق فمختلف تماما ، أما ما يسرى عبر التلافيف فعلمه خفى ، غير مدرك حتى الآن . هذا مايمكن قوله حول شجرة بعينها ، لكن الأمر يختلف من نوع إلى آخر ، فما يصدر عن السروة مختلف تماما عن المنبعث من السنديانة أو الجميززة أو البلوطة أو النخلة إلى غير ذلك .

نتيجة تغيرات عديدة لا يمكن تحديد مركزها أو نقطة بدايتها ، ربما هناك حيث قامت المدينة وربما فى أعماق المجرات أو ليل الأرض عن محورها ، وقع تغير فى الأرض وخطت قطرات المياه عبر الإصرار المتواصل مجار وممرات شقت الأرض والصخر ، ويعرف المقيمون فى النُّزُل أنه مامن شىء أقوى من الماء ، ولهذا يجرى التذكير دائما بهذه الحقيقة ، حتى إذا أجاب أحدهم ذاكرة النار سارع محدثه بتسويته وتفتيته إلى أن ما يخدم النار قطرات الماء ، وللماء فى الأقوال الذائعة أو الأشعار المتوارثة والحقائق الراسخة مكانة جوهريّة ، ومنزلة محورية .

فى زمن بعينه انفصلت الأرض ، أو بمعنى أدق ، شقت ، صار هنا ضفتين ، وبالتالي جرى التمهيد لتأسيس المدينة فى ناحية والنُّزُل فى ناحية ، أو بمعنى آخر النُّزُل على ضفة والمدينة على ضفة . حتى كتابة هذا التكوين لم تحسم مسألة ، أيهما سبق الآخر ؟

اقتترنت الأشجار بالخلاء ، إذ لا يمكن أن تقوم جنوعها نحيلة أو غليظة إلا فى فراغ ، فإذا امتدت وتشعبت واكتمل تكوكبها فإن الفراغ ينتفى ويثبت ، فمن ناحية يتبدد بما شغله ، ومن جهة يبرز الامتلاء ما تبقى بدون شغل ، لذلك كانت كثافة الأشجار وتدانيها من بعضها مبرزة ، موضحة للفراغات المتخللة أو المنبسطة ، وتشبه هذه المعارضة مايقوم بين الانسان والشجرة ، عرضية الأول وثبات الثانية ، إن حضور البشر عابر جدا مهما أقاموا فى النُّزُل ، غير أن الأشجار راسخة ،

ثابتة ، متوطدة ، يجىء القوم من الخلاء المؤدى ، ويقطنون الأماكن التى تحدد لهم أو يختارونها إذا كان فى الأمر فرصة ، ويعبرون القنطرة والأشجار باقية . لكن الأمر ليس مفروغا منه بهذه البساطة . يؤكد المشرقيون أن لكل إنسان غصن فى شجرة ، إذا ييس مات ، وإذا هوى اضمحل ، وإذا مالت به الريح مال ، وإذا صلب واستقام اكتسب المرء صفاته ، ولكن المقيمين على مقربة من المربع ، المحلقين حول الخلاء الذى يحتويه يؤكدون أن داخل كل مخلوق شجرته الخاصة ، ويدلون على ذلك بالأوردة والشرابين المتفرعة أو المؤدية إلى بذرة القلب ، ويقول أحدهم إن الشريان إذا ضاق أو لحقه عطب يجف ويذبل تماما كغصن الشجرة الذى لا تصله المياه لانسداد الشغرات المؤدية إليه . كذلك أوردة المدينة وشرابينها ، إنها الدروب المؤدية والطرق والحواري والعطفات والأزقة ، وتلك تختلف من مخلوق إلى آخر ، كل يتخيلها كما يريد ، لا توجد خريطة دقيقة أو مرجعية واضحة يمكن الاستناد إليها ، وذلك أن المدينة بأكملها لم تخرج حتى هذه اللحظة عن الخيال الإنسانى رغم مثلها على مقربة . لكن هذا لايعنى أى نقطة لقاء أو تماس مع تربيذات «طويل الصمت» المنسوبة إليه والقائلة بإمكانية التركيز حتى يتم استدعاء المدينة بأكملها . تجىء إلى من يطلبها ، تسعى إليه كاملة بدون أن يطرق بابها أو يعبر القنطرة المؤدية أو يخضع لعمليات الاستجواب المضنية ، بل يقوم هو بالاستفسار منها فتجيبه فى مجملها وتفصيلها من خلال أشجارها وبنائاتها وثنايا ذاكرتها . ونقاط ارتكازها ، بل من خلال الحيوانات التى اكتملت داخلها .

هذا شىء ، والقول بالتماثل بين الشجر والمخلوقات والمدينة شىء آخر ، هناك اعتقاد قديم ، ينتقل من مقيم إلى آخر ، خاصة أولئك القاطنين غرب النزل يقول إن لكل شجرة هنا قوام هناك ، وإن كل الأشجار من مختلف الأنواع لها مقابل هناك . عدا شجيرات معدودات ، ما يوجد منها هنا لا ينبت هناك ، وما يورق

ويثمر فى الضفة الأخرى لا يصلح فى الخلاء المحيط بالنزل . عدد تلك الشجيرات من الأمور الغامضة ، كذلك أوصافها حتى ظن البعض أنها من جملة القضايا السبعة . لكن الثقة ينفون . يقول نفر بامتداد جذوع تلك الأشجار عبر الأرض وتحت النهر ، تتجاوز مجراه على عمق غير معروف ثم تتجه إلى أعلى لتتحول إلى جنوع سامقة وأغصان وارفة مماثلة .

يعرف المقيمون كثيرا مما يتم تداوله حول الأشجار ، يجيئون بأفكار هائلة ومعان غير محددة ، لكنهم هنا يصفون إلى تفاصيل ، يواجهون بأنواع محددة ، وحالات جليلة . منها على سبيل المثال الشجرة المرضعة ، إذ يحدث أن يجف اللبن فى ضروع الأمهات ، فى البداية كن يستسلمن ليأس عقيم وهن يرقبن أطفالهن المواليد يجأرون بالصراخ . ولا يقدرن على تلبية أو استجابة ، إلى أن عرفت إحداهن طريقها إلى الشجرة أنثوية المظهر ، أمومية التكوين لينة البرازيلز التى تنتهى بها أغصانها الدانية . يكفى أن يقترب فم الرضيع منها لتدر لبنا أبيض لا مثيل لمذاقه ، لا يستمر قطره بعد بلوغ الشبع ، يتوقف تلقائيا ، لا تظهر القطرات الا لشفتى طفل ، غير أن الأمهات بما فطرن عليه كن يستنشقن عطره الخفيف ، الشفيف ، الثرى ، يلحنن قوامه المتماسك ويرقبن لونه الأبيض الذى يذكرهن بمنى الرجال المخصبين الأشداء ، لكن رائحة المنى لها وجود حقيقى فى أزمنة الإخصاب . عندما تتفتح مسام الأشجار لتلقى البذار ويتأوه بعضها ليلا أو نهارا من لذة الجماع والوصال الذى يتم عبر الخلاء ، يتأجج الفضاء السارى وتوصى الأمهات بناتهن بالحذر ألا يعرضن أنفسهن للنسيمات السارية خشية الحمل من مصابر مجهولة لم يحط بها البشر علما ، إلا أن بعض من لم يتحرك فى أرحامهن نبض الأجنة رغم شربهن الوصفات المؤدية ، وقضائهن الليالى على أطراف التزل منفردات فى انتظار الخضة المبشرة أو نفاذ شعاع من النجوم لا يفد إلا فى لحظات معدودات ، لم يتم تعيينها بعد ، لذلك من الضرورى لمن

تسعى أن تبقى منفرجة الفخذين ، مشرعة بكليتها في اتجاه السماء لعل وعسى ،
قلائل منهن كن يخرجن منفردات ، عاريات ، متجردات من كل ثوب ، يمشين
متطلعات إلى غصون الأشجار ، مستنشقات الهواء ، دافعات به إلى صدورهن ،
أملا ، متطلعات أن يتسرب ما ينقله من منى كوني إلى خلاياهن فتعمر أرحامهن
قبل النداء عليهن وصدور الإذن ، إن تلاحق أنفاسهن ولهفتن يصل إلى حالة
من الدوار الذي يفقدن شيئا فشيئا إدراكهن لأجسادهن التي تحاول جاهدة
وصال الخلاء ، والأرض والأجرام السابحة ، ما لا يرى وما لا يدرك بالحواس . أن
رائحة المنى تثقل أحيانا لغزارة ما يتدفق من الأشجار المذكرة إلى الإناث ، خاصة
النخيل الذي لم يكن ينمو إلا في الجهة الجنوبية للنزل ويقسم البعض على وجوده
بكثرة في المدينة ، ثم نخلة جرى الاعتقاد بحمل من تحضن جذعها ، نساء
لا حصر لهن تعاقبن عليها وعلى أشجار أخرى من أنواع متباينة ، وقع الحكاك
بينهن واللحاء المحرشف ، تحكى مجربة منهن عن اللذة العظمى التي تسرى عبر
العظام وتتشعر سلسال الظهر ، أن متعتن معروفة ، ويلوغهن الأوج مفروغ منه ،
وسعى النساء إلى مضاجعة العناصر أمره متداول ، ويصفى النزلاء بدهشة ولكن
في صمت إلى ما يروى مثلا عن الماء الأعظم الذي شاهده بعضهم في الطريق إلى
هنا ، والشواطىء الصخرية الوعرة ونزول بعضهن عاريات معرضات فروجهن
لرذاذ المحيط الممتد ، الذي لا يبدو شاطئ آخر له ، وأجمل أنواع المضاجعة ما
يجرى في أوان العاصفة ، عندما يغرق الضوء ، أو تختفى النجوم ، وتقترب
السماء من الأرض ، يضيق الرق ويهدر الرعد ، وتتسابق الرياح .

أن الصلات الجنسية بين النساء والأشجار والصخور وقطرات المطر ، وظلال
السحب العابرة أمرها معروف ، وكذلك بالنسبة للرجال ، ولكن هذه التفاصيل
تتعلق بصلات استثنائية ، على هامش العلاقات الأساسية ، المتعارف عليها في
النزل والحديث في هذا الموضوع يطول ، وربما نعود إليه إذا لزم الأمر واقتضى
المطلوب ذلك ، ولكن ما يعنينا الآن تلك الأشجار وذلك الخلاء .

أيهما الأصل ؟

الخلاء أم الأشجار ؟

إنه التساؤل مرة أخرى ، دائما يكون للسؤال صيغ متعددة ومضمون واحد ، أما الجواب فله سبل شتى ومضامين مؤدية ، ما يجمع عليه القوم أن الخلاء كان في البدء ، ثم جاءت الأشجار وسائر الموجودات ، وإن قال البعض بضرورة الأشجار لإدراك الخلاء ، فلا يمكن استيعاب أمر إلا بإدراك نقيضه ، بل إنهما يتلازمان ، بحيث لا يصبح لهذا غنى عن ذلك . أحد النزلاء لاحظ منذ عدة قرون عدم ورود هذه التساؤلات خلال عبور الخلاء إلى التُّرُل ، وعند اجتياز القنطرة بعد صدور الإذن وقيل في ذلك إن الحركة مانعة ، وإن الاستفسارات لا تبدأ إلا مع السكنى والاعتقاد على المكان بكافة ما يحويه ، ومن أقوى عناصره الأشجار والبنيان ، يقول أحد الذين أطالوا المكث وأبدوا الهمة وبذلوا العناية إن أكثر ما أثاره ملاحظة الملامح عند فسادة أصحابها ، لحظة وصولهم إلى التُّرُل واجتيازهم المدخل الشرقي ، كلهم يتطلعون صامتين ، مأخوذين إلى الموجودات كافة ، عادة يلتزمون الصمت ، يستسلمون تماما لكافة ما يطلب منهم ، فإذا قيل لهم تعالوا هنا لبوا ، أو .. انهبوا هناك أقدموا . ويستمر الوضع مدة هكذا تختلف من شخص إلى آخر ، إلى أن تبدأ التساؤلات ، وعند الإصغاء في البداية إلى الإجابات يكون امتثالا ورضا ثم يرد على الاسئلة بأخرى ، ويقع الخلاف أو الانشطار ، ويقول أحد الأمثال المتداولة هنا إن النزول يبدأ بإقامته بسؤال وينتهيها بسؤال عند صدور الإذن بالإقامة والمضى إلى المدينة ، ويقول مثل آخر إن الإنسان في اللحظة التي يبدأ فيها استيعاب الأشجار والخلاء معا يرحل ، يصدر الإذن له فوراً ، وأنهم يعلمون بطرق شتى هناك ، ويكون ذلك أحد العوامل المهمة في الإسراع بصدور الإذن . هذا ما يحقق الفروق بين نزول وآخر ، بين

نزىل لا يطول مكثه إلا أسابيع أو شهوراً معدودة ، وآخر ربما يمضى أعواماً ، وثالث ربما ينتهى أجله ولا يبلغه أحد بالأذن .

الأشجار تتوزع على الخلاء المحيط ، وتتبعثق بين المباني المتقاربة ، وتفصل بينها ، أنواعها عديدة رغم محدودية المساحة ولم يقع إحصاء دقيق لها ، لكن توجد أوصاف مفصلة للعديد منها فى السجلات المخفاة بعناية والموجودة فى إحدى البنايات العتيقة . هذه الدفاتر غير مسموح بالاطلاع عليها إلا للقائمين على تدبير الأمور ، ولاختيارهم خطوات معلومة ، لكنها معقدة فى جملتها .

إدراك الأشجار أسهل بكثير من استيعاب قيس مما يخص الخلاء . أو يتعلق به ، أقدم شجرة هنا يمتد عمرها إلى حد لا يمكن تعيينه ، وثمة من يقول إنها من عمر النزل ، جرى غرسها مع بق أساسات المربع الأول ، أو البنيان المبدئى ، هذه الشجرة مهيبة فعلاً ، تقع تقريباً ناحية الغرب ، ويمكن للواقف عندها أن يرى امتداد الخلاء المؤدى إلى المدينة ، ذلك أن النقطة التى يتم عندها التقدم إلى القنطرة قريبة جداً ، غير مسموح بالاقتراب منها ، ليس نتيجة تعليمات محددة ، فلم يصدر أمر من القائمين إلا وجرى اختراقه أو تحديه بشكل ما ، لكن ثمة ما ينتقل من نزىل إلى آخر ، من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، يكون له التأثير الأوفى ويرسخ من الفاعلية الكامنة ، لا يحاول أحد المقيمين لمس تلك الشجرة ، أو تسلق أغصانها أو غرس مسمار فى جذعها كما يحدث مع أشجار أخرى إذ يعقد البعض خيوطاً ملونة حول رموس المسامير تختلف طبقاً للأمانى . يكتفى الجميع بالتلويح للشجرة المعمرة من مسافة لا يتجاوزها أحد ، حوالى أربع أو خمس خطوات لعاقل .

أغرب ما يمكن رؤيته شجرة الخجل ، إنها ليست واحدة ، لكن يوجد عدد منها موزع على الأنحاء ، إذا دنا إنسان ، رجل أو امرأة من مسافة سبع خطوات يبدأ انكماش أغصانها وارتدادها إلى بعضها ، تلملم أوراقها ، وكلما تقدم المرء منها

تزايد تداخلها فى بعضها حتى تصبح غصناً نحيلاً ملتفاً لا يمكن إدراكه ، فإذا مسه يد أنس أو حيوان ارتعش بشدة وسرعة لا يمكن معهما بلوغه معه .

يعتقد البعض أن أنواعاً معينة من الأشجار تصدر أصواتاً ، يطلقها من رتب الأمر فى المدينة على الضفة الأخرى، وعبر عقود متوالية يؤكد البعض أن كل أشجار النُزُل تتجه عند لحظة معينة ، بعد اكتمال الفجر وبلوغ الضوء الممهد لظهور الشمس درجة من الاحمرار الذى لا يمكن وصفه بالقانى أو الوردى، إلى جهة المدينة ، يصبح لأغصانها وثمارها وجهة واحدة ، وإذا قدر لإنسان النظر إلى تلك اللحظة يصدر له الإذن فوراً بالعبور ولا يكون بوسعها إلا أن يلبى .

لا تنتهى التفاصيل المتعلقة بالأشجار النابتة هنا ، أما تلك اليانعة ، المغروسة هناك فى المدينة فلا يمكن لمخيلة أن تستوعب ما يحكى عنها ، وعبثاً يحاول النزلاء رؤيتها أو رصدتها من أى موقع هنا .

أما الخلاء فباعت على الرهبة ، والخشية ، وترقب ما يأتى ، دائماً ثمة شىء متوقع منه ، فإذا انتفى ذلك وقع العدم واكتمل ، وبالطبع يلوح التساؤل ، أهو خلاء واحد يحوى النُزُل والمدينة معاً أم لكل منهما خلاء وفراغاً ؟ ، يطول الحديث فى ذلك .

أسباب القدوم

من الأمور المعايينة ، النادرة فى الاتفاق عليها ، أن كل المقيمين لا يعرف أحدهم الآخر إلا فى النُزُل ، بعد قدومهم وبدء مكثهم المؤقت حتى لو امتد أعواماً ، يجيئون فرادى ، ويمضون كذلك ، من النادر أن تقصد جماعة أو ثلاثة معاً ، يصلون متعبين منهكين ، كل منهم قطع مسافة وحدة تتفاوت من شخص إلى آخر ، وأيا كانت أحوال القادم أو مظهره فلا بد أن يقبل على الفور وأن يسمح له بالدخول ، وإيجساد موضع ، لم يحدث قط أن رفض قادم .

كما أن النزل به أماكن خالية حتى لو اشتد الزحام نتيجة زيادة الوفادة .
أو تأخر صدور الأذن بالعبور . كيف يتم توفير هذه الموضوعات كلها ؟ هذا من
الأمور غير المستحب الخوض فيها ، وإن كان التوازن قائما بشكل عام بين
القادمين والزاهين .

ما من أسئلة عند الوصول ، ما من استفسار ، الاستجواب المضمن هناك بعد
صدور السماح وعبور القنطرة . لكن بعد مدة قصيرة يبدأ الوافدين فى سؤال
بعضهم البعض .

من أين وإلى أين ؟

ورغم بساطة السؤال فإنه مؤد إلى الحيرة وأحيانا نشوب جدل ربما
يؤدى إلى خلاف ، الكل يجمع على أنه يسعى إلى فرصة أفضل ، إلى حياة
أكثر دعة ، وصيت المدينة وما تحويه وما تضمه وما يتبعها تجاوز تلك الأفاق
المرئية ، والبحار التى لا تبدو شطآنها الأخرى . لكل قادم - ذكر أو أنثى -
أسبابه . لكنه عادة يخفيها ، لا ينطقها ، وإذا استفسر منه أجاب بمراوغة ،
أو بعبارات مبهمة . لكن مامن واحد إلا ودافعه الحياة الأفضل ، بعض
منهم يحكى عن ظروف حسنة ، مواتية ، كان يتمتع بها ، لكنه هجر كل شئ
وأقدم على خوض المسافات الفاصلة سعياً إلى الأتم ، بعضهم يظن أن النزل هو
الغاية ، منتهى القصيد ، لذلك يحل بهؤلاء غم ومسغبة لتواضع ما يطالعههم
بالقياس إلى ما سمعوا عنه أو دفع بهم إلى خوض الفياقى ، ولا يكتشف
هؤلاء موقوتية وضعهم إلا بعد مضي مدد تتفاوت من شخص إلى آخر ، عندئذ
يبدأ تغير أحوالهم ويشتد بهم الترقب وتقوى عندهم المخيلات .

الحقيقة أنه ما من نزيل أدلى بتفاصيل واضحة عن الجهة التى جاء منها ،
ومن تتوافر لديه القدرة على ذكر الأسباب الدافعة المحركة ، فسور وصوله ،
فإنه يبذل ما قاله بعد فترة ، ومع انقضاء المدد تتنوع الأسباب ، حتى

ما من أمر مؤكد حول ذلك . لكن هذا يؤجج الحكايات المتداولة رغم التحذيرات بتجنب تفاصيلها وقلة الخوض فيها ، أمر هذه الدروب لم يعرفه أحد ، ولكن ثمة حكايات عن أولئك الذين أقدموا وانتهى بهم الأمر إلى هلاك مبين . هكذا تنتهى كل الأخبار .

هل التقى إنسان بأحد هؤلاء الأدلة ؟

لا .. على الأقل من المقيمين فى النُزل .

عند وصولهم يوجد بعض النافرين من الإقامة فى البنايات رغم تعيين أماكن لهم ، وهؤلاء يهيمون على وجوههم باستمرار لكن فى الدروب والطرق والميادين الصغيرة هنا ، لا يتبعون نزلاء المشرق ولا أهالى المربع ، أو ناس الغرب ، أو من يترصدون حفيف الأشجار وينتظرون صدور الإشارات من تمايل الأغصان أو تفتح شقائق النعمان ليقدّموا على تنفيذ ما عقدوا العزم عليه أو أضمرت نواياهم .

هؤلاء الشساردين لا يلتزمون مكاناً بعينه ، لا يهتمون بمظهرهم ، لا يحلقون لحاهم ، ويعرضهم ينظر دائماً إلى فوق ، صوب مواضع معينة لنجوم ، حتى ليقال إن الإذن صدر لهم بالعبور لكنهم تخلفوا ، ومثل هؤلاء لا يعترضهم أحد ، بل يحنو عليهم القوم ، رغم أن كل إنسان صغير أو كبير يعرف تماماً استحالة سعى أى كائن صدر له الإذن بالنُزول إلى المدينة ، حتى المرضى أو الذاهلين عن أنفسهم أو من أقعدتهم العلة ، يتولى القائمون دفعهم أو مساعدتهم برفق وحنو حتى حدود النُزل القريبة ، يضعونهم على أول الدرب الحجرى الممهّد ، المؤدى إلى القنطرة ، ومن أماكن بلوغهم يتم التقاطهم ، أو مساعدتهم بسبل شتى على العبور وبلوغ مراكز الفحص

يتسابق الشاربون على تقديم خدماتهم للقادمين الجدد ، إن معظمهم يلزم أماكن قريبة من المدخل الشرقي ، أصحابون الرجال أو النساء إلى الأماكن المعينة ، وخلال تلك المسافات الداخلية يتبادلون الإشارات الموضحة ، المفسرة ، يشرحون من خلالها بعض الأمور الأولية ، ويظن عدد من النزلاء أن هؤلاء الغرباء ، ومنهم الصمم والبكم والذاهلين عما حولهم يعملون بتنسيق وإشراف من القائمين على الأمور ، وأن نفاذهم مجرد غطاء ، ولزومهم الطرق مدبر ، لكن ما يقال كثير ، ولا يوجد ما يثبت أو ينفي ، غير أن المجمع عليه بين القدماء والمحدثين الرضا عما يقومون به ولطف ما يقدمونه إلى القادمين الذين يكون بعضهم ذاهلين عن أنفسهم ، مروعين بما عاينوه من مشاق الطريق وكدورات الرحيل ، إن الوصول هنا رغم أنه عتبة فقط إلى المدينة يعد نعيماً لمن كابد أهوال العبور من نقطة إلى أخرى ومن بيداء موحشة إلى أخرى أفدح ، هذا حال غالب على معظمهم ومن خالف فاستثناء ، إن كل منهم يجئ بلسان مغاير ، بل يمكن القول إنه يتنفس بطريقة مختلفة ، فالأنفاس تتبع المناخ وسائر الترتيب ، لكن بمجرد عبور المدخل الشرقي يصبح كل لفظ بمثابة لغز ، وكل حرف مجرد صوت لا يدل على شيء ، لا بد من البدء في تعلم اللغات السائدة في النزل ، بمعنى أدق إحداها حتى لا تقع المبالغة؛ الأصل هنا لغة واحدة لكن عوامل عديدة منها اللسان الأصلي للنزيل والقوم الذين سيخالطهم عند بدء القدوم ، والموضع المحدد للإقامة ، يؤدي هذا كله إلى متغيرات في النطق ، تبدأ طفيفة ثم تتعمق بالممارسة حتى لتبدو بعض اللهجات كأنها لغات مغايرة تماماً مع أنها تمت كلها إلى أصل واحد . إن الألفاظ التي يحتاج إليها القادم الجديد يسيرة ، محدودة . الأمر يتعقد شيئاً فشيئاً عندما يبدأ التعرف على المكان والاستفسار عما جرى أو ماذا يكمن وراء هذا الحجر أو تلك النخلة ؟

المؤكد أن هذه اللغات أو تلك اللهجات لا تصلح ولا تنفع متقنيها عند صدور الإذن ، يتم النطق بها خلال مراكز الفحص والاستجواب حيث تجرى أيضا المطابقات ، ولكن بمجرد سلوك الطرق المؤدية إلى المدينة ذاتها يصبح من الضروري النطق بألفاظ مغايرة وإشارات جديدة تماما ، هكذا يمكن القول إن الإنسان الذي يستقر به الحال هناك يمر بثلاث مراحل لغوية على الأقل ، لغة المنشأ وتلك تخصه ، لغة النزل وهذه لا بد من إتقانها لفهم ما يجري حوله وما يتم التعامل به ، لغة المدينة المغايرة تماما ، لا يعرف منها أى إنسان حرفاً واحداً ، كل ما يروى عنها من قبيل التخمين وينتمى إلى الرؤى المتخيلة والتي تتغير من شخص إلى آخر ، بل من مرحلة عمرية إلى أخرى ، ومن سنة إلى سنة ، لكن ما يجمع عليه كثيرون وجود هذه اللغة الخاصة ، المغايرة ، والتي يتخاطب فيها القوم بالنظر ، أما الأصوات فلا حاجة لإنسان إليها ، ذلك أن الفراغات هناك على درجة من النقاء والشفافية حتى لا يبدو كل ما يجري وكأنه مصاغ من أصداء الضيوة . هناك لا يترك إنسان لنفسه ، إنما تتعهد الجهات القائمة برعايتها وعنايتها فلا يعول هماً ولا يكابد مشقة ، لا يبذل إلا ما يتطلبه الاستيعاب ، ولا ينفق إلا بقدر الحاجة . ثمة مراحل مجهولة ولا تشملها الرؤى المتخيلة يتم خلالها الإعداد لولوج المدينة ، لكنها لا تتصل بقريب أو بعيد بمراحل النزل ، هنا انتظار يعقبه انتظار ، لكن هناك كل خطوة يقدر ، لها توقيتها الذي لا يمكن تجاوزه ، مراحل التجهيز يتم الاطلاع عليها مسبقاً بدءاً من حلاقة الشعر كله وحتى إتقان اللغة الجديدة المستمدة من النظرات وتقليباتها .

كل مقيم هنا يأمل فى مهنة مغايرة هناك ، أو ظروف أفضل لممارسة مهنة التي تعلمها فى منشئه الأصلي ، حتى وإن استوعب تماماً انقلاب الأوصاف واختلاف الشروط ، إن ما يتردد عن درجات اللون الأخضر هناك فقط يدور

الأخيلة ويؤجج طاقات الأحلام ، أما البيوت الدانية ، القصية عن كل ما يجاورها فلها تفاصيل شتى . بالتأكيد كل مقيم هنا لديه أحلامه الخاصة ومشروعاته التي يخطط لها .

غير مسموح باصطحاب أى رأس مال عند صدور الإذن وعبور القنطرة، قبل المفارقة يتم تجزيد المرء من كل ما لديه ، لا يمكن أن يحمل معه حتى ثمرة من النخيل الكثيف ، خاصة فى المناطق الغربية المؤدية ، البداية هناك لابد أن تكون نقية لا تشوبها شائبة ، من الصفر تماما ، بل يقال إن مراحل التجهيز والتي تتم خلالها عمليات الاستجواب الكبرى والتركيز على من يرغبون بتبديل معتقداتهم بأخرى جديدة ، أو الانتظار للاستيعاب ، هذه المراحل الهدف منها التأكد تماما أن من يدخل المدينة لا يحتوى على مجرد فكرة يمكن أن تحدث قلقلة أو تشيع أمراً غريباً على المستقرين هناك ، هنا ربما يلوح استفسار ، وهل من الممكن ذلك ؟ بنون فحص أو استرشاد يمكن القول بنعم ، وعلى امتداد وجود الزل جري مثل ذلك عدة مرات ، وأبرز مثال مخفف ودال أيضا ما يتداوله القوم حتى الآن عن الباب .

جلوة الأسماء

فى البدء لم يكن ثمة أسماء خاصة بالنزلاء، كان القادمون مشغولين بأمر واحد لا يعرفون غيره، بلوغ المدينة، ولم يجر ذلك الحوار المعتاد عند المدخل الشرقى، عندما يسأل أحد القادمين عليه :

«ما اسمك؟»

«من أين جئت؟»

«هل تقصد المدينة؟»

ثلاثة أسئلة موجزة، سريعة، لا يعقبها أى جدال مع الإجابات.

بل يحدث أحيانا أن يبدو القادم ذاهلا عن نفسه، غير قادر على الرد، فلا يقع
أصرار ولا تصدر مضايقة.

بل يتردد أنه فى البدء، لم يكن هناك مدخل شرقي أو غربي، لم يكن هناك
تساؤلات أو أجوبة، لم يكن هناك مربع ولا مكعب، لا مستطيل، ولا دائرة، لم يكن
ثمة فوق أو تحت... ما من شجر أو تلال. ما من مرتفع أو منخفض، لم يكن هناك
نُزُل، ولا مدينة.

كان الخلاء مثل الاستلاء، وأى شيء كئى شيء... ذلك أنه لم تكن أسماء بعد.
هذا ما يتردد حتى الآن بين نفر ممن يقطنون وسط النُزُل، إذ يؤكدون أنه لم
يكن ممكنا تحديد أى شيء قبل ظهور الاسماء، ليس بالنسبة للبشر فقط، إنما
بالنسبة لسائر الموجودات بما فيها النُزُل ذاته والمدينة المرجوة، كانت المخلوقات
كلها متشابهة، الانسان صدى للانسان، وهذا الجنس من الحيوان عنوان لسائر
الاجناس الى ان قدم من أقصى الشرق ذلك الرجل المعروف فى سجلات النُزُل
المخفاة فى مكان سرى، يتردد انه هناك فى المدينة، هذا الرجل يطلق عليه لفظ
مندثر قريب من معنى، «رائى الحقيقة» أو «مشاهد المعنى» يؤكد البعض ان
اوصافه محفوظة من خلال رسوم خطها هو على حجر وردي اللون، الاطلاع
عليه غير متاح إلا لمن يقدر على حل القضايا السبع، وهذا نادر جدا، إن
«مشاهد المعنى» هو الوصف الأكثر شيوعا لذلك سنطلقه عليه، تجمع المصادر
كلها والروايات المتناقلة، أنه جاء الى المنطقة بأمرين، الاسماء، والباب، لكن ثمة
من يقول إن من أدخل الباب الى النُزُل شخص آخر ينتمى الى نفس الجماعة
التي جاء منها «مشاهد المعنى»، وحتى لا يقع اضطراب، فالخلاف سمة كل شيء
هنا، سنأخذ برأى الجماعة المقيمة حول الفراغ المربع، وهم اللصق والاندنى
بالقائمين، المدبرين للأمور، وهؤلاء يؤكدون أنه شخص واحد، وأنه ينتمى إلى

موضع من الارض يجرى فيه نهر مقدس، تحيطه زراعات عميقة الخضرة، وتقوم فيه أبنية مضي على بعضها آلاف السنين، كلها من الحجر، وأعظمها هرمى الشكل. لهذا المكان اسم لكن اختلف عليه أيضا، فثمة من يقول انه الدافى، وآخرون يؤكدون انه الأسمر لغموض تربته وطيببتها ونعومتها، وقلة تزعم إنه «كمى» ولا يعرف أصل هذه الكلمة، كما لا يمكن لمخلوق ان يفسر السبب الذى دعا بمشاهد الحقيقة إلى مفارقة موطنه هذا الحافل بكل ما هو جميل وقطع البرية المجدبة، الموحشة، والسعى الى النزل التماسا لعبور القنطرة، كل ماتحدث به عن موطنه لا يضيف كثيرا الى الرؤى المتخيلة للمدينة، لكن يبدو ان اضطرابا عظيما وقع هناك، وأن مشاكل قصوى أدت الى فراره، وقطعه المسافات هكذا وصل إلى هنا، على أى حال، ورغم كل شىء هو أول من حدد الأشياء، للقوم بأسمائها، وهو من أطلق على الموضع «نزل» وعلى هناك «مدينة» هكذا وقع التحديد واستقر الفتق، هو من أرسى ظهور الوجود بالاسم، فالشجرة ماثلة من قديم، لكنها مجرد كيان غامض فإذا ما أطلق عليه الاسم صارت موجودة بغير وجود، لا يقتضى الأمر إلا ذكرها، فتمثل على الفور بأغصانها، وثمارها وجذعها وجذورها وسائر علاماتها، فإذا ما أضيف اسم الصنف صار الحضور أوفى والتمثيل أوقع، فهذه نخلة وتلك صفصافة والثالثة جميزة والرابعة سروة، والخامسة صنوبرية والسادسة للأرز، والسابعة راتنجية والثامنة من السرخس والتاسعة فاتحة لأنواع الصبار والعاشرة مدخل للنخيل.

وهكذا.

ومما أرساه وقوى دعائمه القول ببقاء الانسان أو الحيوان أو النبات ما بقى الاسم، وحدث عن قومه وحرصهم على نقش اسمائهم على الأوراق المتخذة من النبات وعلى الجدران بحروف غائرة حتى لا يمحوها الزنادقة والجوعى، وعن

أشخاص ينفقون ما كنوا لجمعه حتى يذكر اهل السبيل اسماءهم لا غير، وعن ملوك أنصاف من الآلهة شيدوا عجائب البنيان، فقط للذكر، وترديد الاسم. مادام الاسم يتردد فهذا يعنى بقاء صاحبه حتى بعد هموده وتوقف أنفاسه وكفه عن الرؤيا.

لا يستقيم الوجود إلا من خلال اسم .

هذا نُزْل.

هذا شرق، هذا غرب، هذا شمال، هذا جنوب، هذا فوق، هذا تحت، هذا خلاء، هذا بناء، هذه نسمات، هذه رياح، هذا صبي، هذا شاب، هذه فتاة، هذا شيخ، هذا مقيم، هذا قادم، هذا عابر.. إلى غير ذلك.

قال إن اسم الانسان يحدد صفاته ويؤطر ملامحه، منه وبه يمكن إلحاق الأذى أو اهداء النفع والتلين والتطويع، حكى عن العبارات المؤثرة التى يحرص القوم فى بلادهم على كتابتها للأحياء العابرين بمقابرهم وأماكن رقادهم الابدية، فهذا يتوسل لذكره عند الاله وذاك لا يريد أكثر من تلاوة التعاويذ، وثالث يطلب من المارة التوقف وقراءة عبارة اوصى بكتابتها، ان الغرض الحقيقى من هذا كله ذكر الاسم بشكل ما، وما دام الاسم يتردد فصاحبه حى بشكل ما، موجود بطريقة ما.

كثيرون مروا بالنُزْل، أقاموا فيه مددا متفاوتة وحدثوا من الامور مايجرى نكره بانتظام، وما أدى الى تأثيرات عميقة غيرت وسهلت حياة القوم، ارتبط بعضهم بلحظات حاسمة، أو اكتشافات مبهرة، أو التعبير عن معتقد ساد أو مازال ينتشر، لكن كل هؤلاء فى جانب و«مشاهد المعنى».. فى جانب. بتسميته الاشياء هنا تفرقت عن بعضها وتحددت، وتلك علامة فارقة، ونقطة لا مثيل لها، بل يعتبرها الكثيرون بداية وجود النُزْل، والمدينة ايضا، فكلاهما مترابط، وينسى

هؤلاء أن الرجل الذى سعى من بعيد لم يأت من فراغ ولم يصل إلى هباء ، وإلا فعلى أى الموجودات أطلق أسماءه أو ألفاظه ؟

وهذا موضوع يطول الحديث فيه، خاصة أنه لم يطلق الاسماء على الأمور الظاهرة إنما الخفية أيضاً، تلك التى يصعب تحصيلها، ويقدر خفائها وصعوبة ادراكها بقدر وعورة الاهتداء إلى سماتها الدالة، ومن الوافدين نفر انفقوا كل ما قضوه هنا من نهارات وليال فى محاولة المعرفة وفهم اسم أو اسمين، لكنهم فشلوا وتعثروا.

الامر صعب!

لكن الأصعب المثير للجدل ذلك الباب المؤدى إلى كل ما يمكن ادراكه عندما اجتاز المدخل الشرقى واستقر قرب المربع الخالى، القديم، بدأ فى تشييد المبنى الذى ارتفع لأول مرة على الحد العلوى للمربع، وشيد داخله أول درج يمكن القوم من الصعود بلا كلل.. ولكن أخطر ما أقدم عليه الباب، بالطبع ليس الباب المؤدى إلى داخل المبنى، من المقروغ منه أن كل باب هو وصلة، همزة تمس عالمين حتى عند الاغلاق، ولكن.. ما تفسير الباب الذى لا يؤدى إلى شىء؟

هذا ما أقدم عليه «مشاهد المعنى» عندما راح يفتح فى الجدار باباً مماثلاً لكل الابواب.. محدد، مؤطر بلونين، أحمر قان وازرق فيروزى ، ويقسمه خط أصفر كهرمانى، القادم يكاد يفوت عبره، أو يجذب احدى ضلفيته، لكنه لا يفاجأ إلا بصدد ورد.

يقول مشاهد المعنى إن عتاة الكهنة، سدنة المعانى كلها والجواهر المتبقية بعد جهد جهيد ومكابدة استغرقت مائة وخمسين قمراً مكتملاً توصلوا إلى أجل ما أنجزوه، ما تفوق دلالاته كل المعابد العظمى والمقابر المنحوتة فى الصخور الصوانية، والاهرام المكسوة بالأسرار المشعة للكون، بعد أن أضناهم ماجرى من

انهيار وفوضى أتت على أجل المقدسات بعد شيوع الخلط، توصلوا الى مايصون ويحمى، إلى أهم ما اسفرت عنه موروثات كل من عاش وشرب من ماء النهر العذب.

الباب الذى لا يؤدى الى شيء ويفضى الى كل شيء.

الباب الوهمى.

هذا الباب أحدث من الرجة والاضطراب هنا ما لم ينتج عنه فى منشئه، فى الديار التى ظهر فيها لأول مرة، ذلك انه هناك مستند إلى معارف جمّة، وأسرار لا حصر لها، وحروف، وطقوس، وتبوءات، وقدرات مختلفة لتفسير الاحلام، ولحظات الشجى، وانبتاقات النشوة.

والقدرة على فهم ما تبوح به الرسوم او المنحوتات التى تبدو صامتة، ماثلة أبداً، لكن القوم هنا أمرهم مغاير، معظمهم لا يقدر على الاستيعاب واذلك اتخذ الباب الوهمى هنا أبعاداً لو اطلع عليها من قدحوا فكرهم للوصول اليه لضحك فريق منهم ولبكى فريق آخر، وليس فى ذلك أدنى مبالغة.

عندما نما إلى علم القائمين على التزلّ اعتبروه سرا يخصهم وتمكنوا من اخفائه مقدار ثلاثة اجيال كان «مشاهد المعنى» نفسه قد أصبح مجرد ذكرى واهية، هم الذين ظنوا أنه مؤد الى المدينة مباشرة، وقالوا فى ذلك اشياء، منها ان المكث امامه اربعين مطلع شمس يكفى لعبوره مباشرة، وفى قول آخر إنه مع شمس اليوم الحادى والاربعين يسمع منه صوت يأتى بالدخول، فيعبر المرء ومع كل خطوة تشع الحقيقة إثر الاخرى حتى يصل إلى حد لا يمكنه التحمل لمحدودية قدرته البشرية، عندئذ يشف ويخف، يتحول إلى ضوء مكين، نافذ يمكنه عبور الموانع.. ويتردد ما بين هنا وهناك بدون أن يلحظه أحد أو يقدر على رده مخلوق أو ترتيب، أيا كان، وفى قول ثالث إن من يقدر على الصبر المكين ويشخص

سبع ليال إلى الباب الوهمى بدون أن يغمض له جفن، فإنه يرى كل ما تحتويه المدينة، فيبلغها بدون عبور، ويتمتع بأجوائها بدون صدور إذن.

وهذا الاعتقاد لا صلة له بما يقول به المشرقيون سكان البناء الأسطواني المستمد من «طويل الصمت» الذى قال بإمكانية استحضر المدينة بدون الذهاب إليها أو عبور القنطرة.

هذا قول وذاك قول، لكن ما سببه ذلك المرتبط بالباب الوهمى أفدح وأوعر، ولكم أدى الاعتقاد به إلى هيام نفر غير قليل، أو وقوع خلافات راح فيها كثيرون.. على أية حال لا يمكن منع ما يقال. وما يبدأ همسا يتحول إلى ضجيج فيما يلى منشأه وبدايته، وكما قال البعض إن الاصل للجميع بما فيهم الجنس الانسانى تلك الاشجار.

قال آخرون، إنه طويل الصمت الذى علم اتباعه الاطلاع على عز المدينة فى ثباتهم، حتى أن بعضهم يقلبها كما يرغب.. وقال آخرون إن النزل والمدينة ماهما إلا نتاج اسمين نطق بهما «مشاهد المعنى» ذلك القادم من بعيد، تماما كالأنثى الضاوية.

أنس الوجود

قبل وصول «مشاهد المعنى» أو «الرائى الأعظم» كما أطلقوا عليه بعد مضى ثلاثة قرون على غيابه، لم يكن الرجال يعرفون النساء، ولم تكن النساء يدركن أن هؤلاء رجال . لم تكن هناك أسماء للجناس، وبالتالى للأعضاء، كان النزوع هو الغالب لضغط الحاجة، فإذا بلغت الذروة وفاض الامر جرت المضاجعة، فى الاغلب الاعم بين الرجال والنساء، ولكن كان بعضهم يتجه إلى معانقة الاشجار، او مضاجعة الأرض والإيلاج فى الفراغات المؤدية، أو ملاحقة الحيوان . تتسم تلك

المرحلة بغموض بليغ، حتى يقال إن الذين جاءوا إلى هنا قادتهم الضرورة، وعندما نودى على معظمهم لم يلبوا وظلوا لاهين إلى أن اضطر القائمون على التدبير من الناحية الأخرى إرسال من تنكر في هيتهم ليرشدهم ويدلهم، هذا ما يؤكد المشرقيون من قاطنى المبنى الاسطوانى، ويوقن كل منهم ان الصلات قائمة بين هنا وهناك، وأن الحرس المكلفين لا ينقطعون عن غبور القنطرة في الاتجاه المقابل لكن فى مواقيت معلومة وبعضهم يتجاوز النزل الى الخلاء ساعيا بالرسائل غير المنطوقة الى أركان الدنيا، ونواحيها المعمورة، لكن مثل هؤلاء لا يمكن معرفتهم أو التحقق من هوياتهم، ذلك أنهم يتقنون التمويه والتفويه بكل لسان أمروا بإتقانه، وهذه الأنثى التى علمت الرجال والنساء لذة النكاح قدمت من المدينة، ولم تأت من الخلاء كما تشير بعض المتن.

أوصافها شائعة ، لا يرد ذكرها بالنطق، أو استدعاؤها غير الذاكرة إلا وتسرى أنغام خفية، عتيقة، تحض على النزوع فى سائر الجهات، وتستنفر الكوامن، لكن إذا حاول أحدهم استعادتها استعصى عليه ذلك ، لا يعرف أحد موعد وفادتها إلى الكون، ويزعم المشارقة الاسطوانيون أنها ولدت عدة مرات، وأنها جاءت على مراحل لشدة خصبها وثرانها وتنوع عناصرها . عيناها دانيتان، مقتحمتان ، فسيحتان، طاقتان مؤديتان وحاضتان فى الوقت عينه، مانعتان، لا يجرؤ الجسور على الاقتراب منهما، أو التطلع اليهما إلا إذا شاعت ورغبت، كل مايتعلق بها مرهون بما تراه حتى لو واجهها العتاة، الجبابرة.

قوامها مرجع، وقياس للجمال الانثوى رغم توالى العصور، وانقضاء الحقب، لها صفات كل ماينبتق من الأرض ويعلن عليها ويسرى، ويسوق النخيل وفراة الجدوع ومثانة الرسوخ لكنها إذا مادت فهي اللين عينه.. والنعومة ومصدر كل يسر.. استداراتها رموز لتقيب السماء وكروية الأرض. وشروع نهديها يستلهمه النحاتون حتى الآن، والبنائين الذين صمموا الشرفات

والبروزات والكوات المشرفة، أما خصرها، فعلامه للنسيان والانزواء مع الحضور والرهافة المؤدية، لأردافها الكمال، وما من ذكر توسدهما أو إحاطتهما بيديه إلا وأدركه ذلك التمام، أما فخذيها وتقوس ما بينهما فمنهما اكتمال العناصر، لذلك عدت قدمها أساس الينيان، سماتها لا تزال تذكر في بعض أنحاء النزل، خاصة عند المشاركة وأيضا المغاربة، وكذلك ما افنتته أو أبدته للقوم الذين كانوا يقعون على بعضهم في قوضى لا تعرفها الحيوانات.

كان احتواؤها اطلاقا وتنزيها . وامثالها زهوا وتبها على ماعداها، وأهاتها خصباً، منظلومة وسائل، لم تكن انشى، بل عقيدة وشعائر، لم تنته بفناء حضورها المادى، بل انتقلت من حول الى حول ومن رصيد إلى رصيد، وما تهمس به الامهات الى بناتهن المقبلات حتى الآن إنما ينبع من فيضها ويرجع الى كوثرها . أصلحت الشئون، وقومت الاوضاع، وتسيدت عندما دلت الخلق على مسارب المتعة والأوتار غير المرئية، وأفصحت عن قوانين مستقرة من يستوعبها يعرف الاتحاد الفعلى، والاندماج الكلى، يقال إن «مشاهد المعنى» كان يردد بفخر تفاصيل التوصل الى الباب الوهمى وما يعنيه لكنه كثيراً ما ردد استفسارات حائرة لم تلق جواباً حتى الآن، منها المتعلق بمصادر الرياح . عند أى نقطة فى الكون يبدأ سعيها وماكنه القوة الدافعة ؟ ..

وأیضا قسمت هذه الانشى التى تؤكد كل النصوص المتوارثة انها كانت تتغير من لحظة إلى أخرى، من أى تبع استمدت ملامحها التى لا تتغذ، من أى مصدر؟ قبل مجيئه لم يكن هناك أسماء ولم يكن تدوين، بدأ ذلك كله بعده، والمتفق عليه تقريباً أنه شغل بها وتقصى أخبارها بشكل ما، إذ لم يكن بين المقيمين من يتقن الالفاظ الدالة عليها. ويبدو أنها زاحمت وجوده فسعى إليها بالمخيلة وحاول استحضرها بالتصور، لذلك يوجد فى النزل من لم يقرب امرأة قط، أو من لم يقتحمها ذكر، هؤلاء جماعة يتوارثون ما يعتقدونه ، ودائماً هم هناك حتى وإن قل

عدهم، يقولون بسمو الاستمناء واكتمال مشروعيته . من خلاله قال «مشاهد المعنى» ما يتمناه منها، وامتزج بها.. هؤلاء يقولون بروعة بلوغ المفرد ما يريد، بإمكانه استدعاء من يشاء، فى أى مكان أو زمان، بقوة الخيلة، وتحقيق أقصى حرية موجودة أو مأمولة ، بل إن بعضهم أمكنه من الأوصاف المتخيلة عن إناث المدينة صياغة ملامحهن واستحضار بعضهن ومضاجعتهن، يحدث أن يلتقى أحدهم بأنثى لها طلع ورغبة وكيونة، يقدم على ممارسة الحب، لكنه يغمض عينيه ويستدعى من يهوى أو من يتمنى، فيندمج فى حضور، ويكتمل فى لا حضور آخر، وهذا غريب لكنه معروف مجرب..

كل سيرة الى انقضاء وإلى اندثار، عدا ما يخصها وما يتعلق بها، المسألة بالنسبة للآخرين مسألة وقت فقط، حتى لو طال الامد. وتعاقت الحقب فكل ذكر إلى زوال وكل اسم الى محو ، بمعنى الاسم الذى يشير الى شخص بعينه أمضى زمنا وملاً حيزاً فى المكان، هذا ما لم يحسمه «مشاهد المعنى» وإن كان يشير صامتاً الى الباب الوهمى، فاعتبر المنتظرون ، التائقون المتوقعون صدور الانون بين لحظة وأخرى ، ذلك بمثابة إشارة الى المدينة، كل أمر صعب حله وكل ما يفتقدونه موعدهم معه هناك، حتى لحظات الحنين والشجى المحفز.

بعد أن أتى «مشاهد المعنى» بالأسماء، وأسس لما يستجد منها بعد أن جاء بالباب الوهمى وخلف ما يتعلق به ، بعضه مفسر وكثيره مغلق .

أمضى ما تبقى له فى تقصى آثار الانثى التى علمت الاناث ما لم يحطن به علما من قبل، وساعدت الرجال ليس على اكتشاف حواف اجسادهم ومكنوناتها إنما سائر ما يتعلق بأحوالهم، حتى أن نصا قديما يتحسر على أولئك الذين لم يدركوا زمانها، وراح عليهم كل ما أبدته وبثته من تعاليم وحركات وأهداف لا حصر لها.

قبلها كان كل شىء كأى شىء... القبيحة مثل الجميلة، والطويلة كالقصيرة، والفجاء كالمستوية، ولم يكن بين القادمين من يأتى يأتى، أو تصحب ذكرا يخصصها، وفقا للطقوس الاصلية لايسمح إلا بدخول الافراد حتى لو جاء بعضهم فى جماعات، هذا نادر جدا، يجىء القوم واحدا اثر الآخر، تماما كما يخرجون فرادى لعبور القنطرة الى المدينة، كثيرون كانوا يصحبون أمتعة معهم أو بعض حاجاتهم، لكنهم يقارقونها عند المدخل.

تماما كما يخرج النزيل بدون ثمرة، يدخل أيضا، لذلك اكتفى بعض المشرقيين بالاقامة فى الخلاء، وقضاء حاجتهم فى العراء، والاعتماد على ثمار الاشجار فى اشباع جوعهم، وبشكل عام فإن متطلباتهم هينة. يقولون إذا كان غير مسموح ولو باصطحاب نواة بلحة عند العبور الى المدينة، فلماذا الانشغال بالبنيان، وتحسين الواجهات وإضافة الطوابق ونحت الاشكال وصك المعادن وطول التطلع الى النجوم؟

حتى الآن وبعد استقرار النظم - رغم اختلافها المرتبة لعلاقات الجنسين يعلنون عدم التزامهم بكل ما يتبعه الفرقاء، سواء أقاربهم المشرقيين أو المغربيين، أو أهل الوسط المنتظمين حول المربع الخاوى، ونزلاء المبانى المتداخلة أو المنفصلة، أنهم الاقرب الى الفطرة الأولى، والحالة التى كان عليها المقيمون قبل وقادة أنس الوجود أو مطمئنة القوم كما تعرف فى النصوص العتيقة، والاسم الأول أطلقه عليها مشاهد المعنى، ومما يثير الدهشة ان اسمه هو نفسه غير معروف، غير محدد.

قبلها كان الكل للكل، لا فرق، لكنها هى التى دلت كل منهم على الاختصاص وبيئت لهم الأصول والفروع.. قبل مجيئها كان الوقت يمر بطيئا ، ثقيلًا ، جاليا للملل والمشاكل، ويحكى أن بعض القادمين على النزل لجأوا فى فترات قديمة إلى اختلاق أنشطة لإلهاء المقيمين ، المنتظرين، مثل تقليم الأشجار، وعد فروعها،

وتهذيب أوراقها، أو نقل رمال الغرب إلى الشرق ورمال الشرق إلى الغرب وهذا عجيب، غير أن هذا انتهى بعد ظهورها، إذ بثت بينهم من فنون الملاعبة ما يستنزف أعمارا وكشفت عن وسائل تقرب ومناغشة يحتاج المرء أنثى أو ذكر إلى سنوات متتالية لاستيعابها.

أكثر من ألف ألف طلة قمر مكتمل انقضت على مجيشها وأمرها بعد سار، متصل، وبالطبع لا يمكن القطع بكل ما يروى الآن، فالوقت قصى، ومباعد، وتفاصيل عديدة أضيفت، مثل القول إن ثأوراتها كانت تبث النشوة في سائر الموجودات، حتى الأشجار تسعى إلى بعضها، وتفارق حبوب اللقاح مراقدها في غير مواسمها، وتميل السماء على الأرض حتى ليسمع للنجوم شخير، ويتردد لمياه النهر نخر وترهز الأرض حتى ليخشى منها وهذا أصل الزلزلة ! ولا يبقى مخلوق بمفرده، كان لديها القدرة على بث الطاقة واستنفاد الكوامن بالصوت، ولم يكن صوتها واحدا، إنما كان درجات وأجناس يصعب توصيفها الآن..

أما أريجها فيحتوى أقساما كاملة من النزل ويقتش البعض عن مواضع رقادها حتى الآن بدعوى أن عطرها مازال متشبثا باليابسة رغم فوات الرياح وتعاقب الأمطار وشدة التآكل.

نسلها لا يوجد هنا، إنما هناك، معروف في المدينة، باد لكل ذى بصر وصاحب نظر، والسعيد، السعيد من يستدل على إحداهن فيلزمها حتى تقبل به، وإن كان الترتيب هناك مغاير تماما لما تقوم عليه الأمور هنا.

لا يعنى سريان فنونها، وبقاء نصائحها، وانتقال خبراتها أن الجميع يلتزمون أفعالا متقاربة أو وسائل متقاربة، شتان ما بين أنثى الجهة الغربية التى تعتبر جسدها عالما لا يمس إلا بعد إتقان وطول درية واقتناع أتم بمن يسعى، وأنثى الجنوب التى تفور دائما بالرغبة حتى لتسمح بإتيانها عبر كل المداخل المؤدية إليها مادام ذلك محقق لراحتها اقتداء بعبارة وردت على لسانها، قالت فيها:

تلك بوابات جسدى فليعبرها من يقدر، أما إناث المشرقيين الاسطواناتيين خاصة فتبقى الواحدة منهن عذراء لا يجرؤ ذكر على مسها إلا بإذن من القائم على البناء، وأحياناً لا يصدر، أو تحدث ظروف معوقة، فتتقضى الفترة وهن لا يعرفن ما أتاهن الوجود من مصادر متعة، ومثل هؤلاء يجرى افتضاضهن فى مراكز خاصة بعد عبور القنطرة، صحيح،. يتردد الكثير حول أبنكار المدينة، وما ينفردن به، لكنهن مختلفات تماماً عن أبنكار النزل، هناك البكارة متجددة، إذ تتردد كل منهن عذراء بعد افتضاضها، ولهذا يمضى الذكر ما قدر له العيش فى حالة افتضاض دائم، كما أن الأنثى هناك تتشكل بالهيئة التى يرغبها عليها الذكر، وكذلك الرجال، إن افتضاض العذارى فى مناطق الفحص ليس إلا اجراء من عشرات الخطى التى يتم خلالها تخليص القادم من كل ما تعلق به ، عبر رحلة قدومه أو اثناء اقامته، وهذه الإقامة تختلف مدتها من شخص الى آخر، ولذلك كانت دعوة أنس الوجود إلى التعرف على الملذات الكامنة، واللطائف السارية، صحيح أن ما تحتويه المدينة لا يمكن للمخيلة البشرية استيعابه، ولكن رغم قصورها فإنها تجتهد لتخيل ما ينتظر كل من النزلاء بعد تمام العبور. هذا ما يندرج تحت المعطيات المعروفة بالرؤى المتخيلة وتوجد غدة نصوص مهمة، منها الرؤى النهارية، ومشاهدات الليل، ورصد الهمس، وإدراك الأفق، وكتاب الأمل، وزيور الألم، وإطار القنطرة . وعمارة البوابات .

إيراد هذا كله صعب، كما أن الإحاطة به عسرة ، لذلك نورد ما قدرنا على فهمه، وما يمكن استيعابه .

سلافة المتخيل

كل امرئ هنا ، أيا كانت الجهة القادم منها، أيا كانت مكوناته أو ما يتعلق به، كل من يتنفس هواء النزل يعرف أن إقامته محددة مهما طال، حتى وإن استغرق

فى مشاغله وانهمك ، لابد أن ينتبه على خاطرة مباغثة من داخله، أو إشارة من خارجه فيدرك فى ذروة انغماسه أنه فى مقام مؤقت، وعند لحظة لا يلم بها وليس له تأثير فى تقريبها أو إقصائها سيفادر كل ما يحيط به، ما يستند إليه أو ما يستظل به ويتجه إلى القنطرة مجردا من كل شىء .

القائمون على النزل، وهؤلاء يجرى اختيارهم من بين النزلاء طبقاً لأصول قديمة وخطوات عتيقة، يقدمون على تصرفات محددة بين الحين والآخر الهدف منها تنبيه القوم إلى موقوتية الوضع، خاصة بالنسبة لمن طال عليهم الأمد . والوسائل إلى ذلك عديدة متنوعة .

يحدث أحيانا سريان همس بقرب صدور إذن يعقبه عدد كبير بالعبور والإقامة، ربما عشرين أو ثلاثين ويقترن ذلك بشروط منها انقضاء وقت، أو أداء طقوس ، أو توافر علامات ذات شأن.

منذ خمسة آلاف ألف قمر مكتمل سرى ما يؤكد صدور إذن بعبور عدة آلاف من النزلاء لمناسبة نادرة تتمثل فى مرور المذنب اللامع ، لا يظهر فى سماء النزل إلا مرة كل أربعين ألف قمر .

جرى اضطراب عظيم، وتاهب أقصى ، وبالفعل صدر التصريح وأعلنت الأسماء بأصوات مرتفعة مجهولة المصدر، عد ذلك من اللحظات النادرة التى جرى ترديد ما حوته لحقبة تالية ، خاصة تدفق القوم عبر الدروب الصغيرة، الفاصلة ، والأزقة المفضية ، غير أنهم عند اقترابهم من القنطرة انفردوا . سادهم هدوء أجل، الطفل فى بداية وعيه يدرك أن نهايه لن يكون إلا بمفرده ، ما البال بالكبار المجربين، لم يتخلف إلا من احتوته غفلة ، وبعض المشرقيين الذين رفضوا الانصياع ولم يلبوا ، قالوا إنهم لا يعرفون ما ينتظرهم مهما ازدهرت الوعود، من الأفضل البقاء مع المؤلف لهم ، ما اعتابوا عليه ، أغلقوا الباب وأحكموا الرتاج،

هكذا وجدهم القائمون ، متلاصقين، متأزرين بالصمت الأبدى وانقطاع الانفاس منهم .

يعرف ذلك بالتصريح الأكبر، وكثير من القوم ينتظرون أمليين الإعلان عن مثيل له أو يقترب منه، يحدث ذلك أحيانا ، بعد زهاب الجمع مكث عدد قليل لا يعرف أحد سبب بقائهم وعدم لحاق أى أضرار بهم مما يؤكد فكرة غامضة بوجود مندوبين للقائمين على شئون المدينة ثمة تمثيل لهم هنا متصل ، مستمر ، غير معلن عن أفرادهم . بقيت المباني شبه خالية، رجل بمفرده ينام فى بيت من عدة طوابق، الشمار تنضج وتتساقط حول الاشجار فلا تجد، من يتناولها، دام الحال عشرة أقممار مكتملة ، إلى أن توافد عدد لا بأس به من الشرق، إن توقع صدور إذن جماعى قائم باستمرار ، حتى بدون ظواهر طبيعية نادرة، وبعد ذلك إحدى النقاط المقضة ، البائة للأمل .

يمر بعض القائمين على مبان بعينها، بأيدهم أوزاق ولفائف عتيقة يسألون النزلاء ، يدونون المعلومات ، يطلقون دخاناً عطراً فى الزوايا والأركان ، يستقصون من كل مقيم عن اسمه ومدته والعلامات اليدوية. مثل هذه الاجراءات تثير الأمل عند القوم، خاصة استدعائهم ، وتوجيه استفسارات عديدة اليهم او تجريدهم من ملابسهم وفحص أيدانهم ورسم بعض العلامات الغامضة عليها بمواد خاصة لا تزول مع الاستحمام او الحك، إن ذلك يؤجج التوقع، ولكن سواء اشتد الانتظار أو ركبت أحوال البعض فإن المدينة تظل ماثلة باستمرار ، تصوم حولها التهيؤات وتحاول اقتناص ملامحها الأذهان .

لم يرجع أحد ليخبر بما شاهده بعد عبوره القنطرة ، لا توجد علامات محددة أو نصوص دالة ، أو نماذج مجسمة أو لوحات، لكن هناك تصورات غير مكتملة بعضها متضاربة.

يمكن القول إن المدينة ماثلة في ذهن كل من يسعى ، ومن يدري.. ربما عند الحيوان والطير وكل ما يزحف أو يتسلق أو يسبح ؟

الأمهات يحدثن أطفالهن عن المباهج المنتظرة ، والملاعب الممتدة ، والهواء الشفاف والخير الوفير. الرجال يخططون لنيل المباهج وإدراك المتع التي حالت قيود النزل وظروف نشأتهم دون إدراكها ، كذلك النساء التائقات الراغبات .

ما من نزيل إلا ويتطلع ليلاً أو نهاراً جهتها، وإن أغمض يحاول استحضار ما سمعه، الأبصار لا تدرك منها أى هسيس أو ضوء منبعث من مبانيها وشفاف بحيراتها وقمم تلالها ومن داخل بيوتها هناك العناصر مختلفة تماماً ولا بد من عبور القنطرة ثم ولوج مجالاتها لاستيعاب موجوداتها بالحواس .

لم يرها أحد إلا عبر الخيال ، ومن الأمور الثابتة، المفروغ منها تميز الإنسان على سائر المخلوقات بالخيال والأمل ، أو هذا ما يبدو حتى الآن ، المدينة تختلف عند النزلاء عن العوالم المرئية، أو الخفية تلك التي لا يتم السعى إليها بالأحلام والرؤى المؤاتية ، المفاجئة ، مابين اليقظة والنوم . من أجل تلك العوالم شيدت الأفرام، وجرى تدبير خبيثة العلوم كلها والمعارف المتوارثة والمحتملة كذلك نقش الحروف على الأحجار أو حفرها، وحفر الأبواب المصمتة .

المدينة ليست احتمالاً أو فرضية، إنها ماثلة قائمة عند الضفة الأخرى حتى وإن لم يلمح مخلوق قبساً منها ، أو لم يرجع نفر ممن ذهبوا ليصفوا وليخبروا ، يوماً.. يرون المتجه الى عبور القنطرة بعد صدور الإذن، بعضهم يجد من الوقت ليلتفت ويلوح مودعاً قبل غيابه . قبل مثوله أمام لجان الفحص ، ثم قطع الممرات المؤدية، لا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، إن موضعها محدد، وثمة تصور سائد لأوصافها ، ربما تختلف بعض التفاصيل من زمن إلى آخر ، لكنها فى مجملها متشابهة .

إنها هناك ، على الطرف الآخر فيما يلي القنطرة مباشرة، النهر العميق الذى يسمع تدفق موجه ولا يراه أحد فاصل جلى، فارق حاد بين صفتين وحالتين ، بل .. عالمين متميزين، متغايرين ، متباعدين بقدر تقاربهما . تتبع مراكز الفحص النهائية المدينة ، بعد الانتهاء يسلك الساعى خفيفاً وثاباً حتى لو كان واهناً متقدماً فى العمر، يتبع طريقاً عرضه متر واحد، ممتد ، أملس كريستالى اللمعة، منبعث منه ضوء له خصوبة الفيروز والأماكن العميقة فى البحر . فى حالة حركة دائمة. فى اتجاه واحد لا غير إلى المدينة لو توقف الانسان سيفاجأ بتقدمه . لكن هذا نادر ، فالموضع غريب ، غير مألوف، ودرجة الضوء المتزنة، الخالية تماماً من الظلال لا تثبت أى اطمئنان رغم الهدوء السارى، والصمت المهيمن. والاتفاق المسدلة، ينشغل اللب عما عداه، لهذا يكون التوق حافزاً على التقدم بغية الوصول ومعرفة المأوى .

بعض الغلاة المشرقيون يقولون إن هذا الممر الكريستالى متصل بأفكار بعض البشر الذين بلغوا درجة من شفافية الرؤية والقدرة على الاحاطة . بحيث يمكن لبعضهم القدوم مباشرة إليه بدون الانتظار فى النُّزُل أو عبور القنطرة أو التعرض لتلك الأسئلة الغريبة فى مراكز الفحص ، كيف ؟

ما من تفاصيل دالة .

من سعى وعبر مباشرة ؟

كلهم يلزمون الصمت ولكنهم يعودون إلى تريد ذلك بثقة . بقدر نعومة وسلاسة هذا الممر الزلق الناعم، المصاغ من الضوء تقريباً أسطوانى البنية مع التقدم فيه ، بقدر خشونة ما يحفه ، إنه يتخلل صخر صلد يميل إلى احمرار مغطى بنباتات عميقة الخضرة تثبت منه زهور عجيبية التكوين، تتخللها فسحات وفراغات كأنها غرف كونية ، تتصل بالسماء أحياناً وتارة تنفصل ، يسمع خرير

لكن لا يرى السارى ماء، وتتردد طقطقات حصى ، أو تصادم أحجار لكن لا يعرف أحد أين ؟

فجأة ، بدون تمهيد ، يبدو البناء الوردى .

درجة من اللون مبهره ، مبهلية ، ضاجة بالحيوية ، ربيعية زهزاهة، ملساء ، لا يعرف الغرض من هذا التكوين ، المحفور، الأشم، لكنه فى الواقع مجرد واجهة، إنه باب وهمى ضخم لكنه متقن الترميم، ثلاث درجات مؤدية الى ما يشبه صالة قائمة على أربعة أعمدة متصلة الاستدارات ، ملساء يعلو كل منها ما يشبه سقف نخيل، لكنه غير مسدل ، إنما قائم إلى أعلى، مضموم، قرب النهاية تبدأ قاعدة عمود أنحل لكن أطول ، ينتهى الارتفاع بأقواس ذات شرفات مزخرفة ، أشكال بنفس اللون، تكوين محفور فى الصخرة الضخمة المواجهة لفتحة المضيق ، لا .. ليس صخرة ، إنه تل متصل بتلال أخرى ، على ارتفاعات متساوية يمكن مشاهدة أبواب ونوافذ وفتحات مربعة أو مستطيلة أو دائرية ، كلها مصمتة ، لا تؤدي إلى شيء، يحفها كتابة غامضة حروفها غريبة. الصخور الحافة مجمع لألوان الطيف. تتنوع درجات الألوان الى مالا نهاية، تتوالد من بعضها بحيث يستحيل احصائها. هذه التلال الصخرية تبدو من أعلى لعينى الطائر كذرى أهرامات مديبة، المتطلع من أسفل يكتشف أنها مرشوقة بالأبواب .

أبواب مستطيلة مجردة من كل زخرف ، بعضها من ضلفة واحدة والآخر من اثنتين ، أبواب أخرى شبه مربعة أعلاها مقوس، على هيئة نصف دائرة، أبواب مقسمة إلى مربعات متساوية، مربع من خشب وآخر من خزف وثالث من زجاج ورابع من معدن رقيق، أبواب دائرية مغطاة بنحاس منقوش ، أبواب ضخمة مهيبة، صادة، مقابضها على هيئة رؤس حيوانات تفغر أفواهها مبرزة أنيابها ، ولضخامتها وصعوبة فتحها وإغلاقها ، يتخللها باب أصغر ، يتسع لفرد واحد

لاغير ، أبواب مكسوة بنباتات خضراء ، تترقرق حولها خيوط ماء مجهولة المنبع ، منعشة لمن يقترب .

أبواب ذكرورية المطلع ، أخرى أنثوية موحية بلذة ما ، أبواب داعية أبواب منفرة ، أبواب حاضنة ، صادة ، مانعة ، أبواب رئاسية ، قابضة ، متوارية ، أبواب يمكن الإلزام بها ، استيعابها من نظرة ، أبواب ثرية التفاصيل ، يصعب الإحاطة بها ، أبواب متفائلة ، أبواب تنبئ وتحذر .

أبواب متوالية ، لكنها جميعا لا يمكن اجتيازها لأنها لا تؤدي الى شيء ، مجرد إيماءات الى أمور لا يمكن رصدتها بالنظر ، ومع ذلك يتعلق كل مار أو راء أو متطلع بباب معين يظل عالقا به مستعيدا له ، مهما قطع من مسافات أو تباعدت الأزمنة ، يقال إنه بعد المرور بالأبواب يصبح الإنسان ذا صفات مغايرة ، تنصع ذاكرته ، وتصفو فكائه قادم من جديد ، أما ما كان عليه قبل عبوره القنطرة فيلوح نائياً ، كانه يخص شخصا آخر . يبدو النزل بعيداً قصياً كما كانت تلوح المدينة للمقيمين فيه .

القازق أن من ينتظر يمكنه تخيل المدينة ورسم حدودها وإقامة مبانيها بعيني عقله . أما الواصل هناك فلا يقدر على ذلك ، كل ما يحيطه يستغرقه .

المؤكد فاعلية تلك الأبواب وتأثيراتها . إن مصير السالك وخياراته تتحدد وفقاً للباب الذي يراه أول مرة أو يتعلق به بصره ، غير أن ثمة رؤية مستقرة ، مجمع عليها منذ أزمنة بعيدة ترسم واقعا متخيلاً ، مغايراً ، تلك الرؤية تضع أبعاداً دقيقة لكل ما يوجد على الضفة الأخرى ، فالمسافة الفاصلة بين القنطرة ونقاط الفحص قدرها سبعون خطوة ، وتلك الواقعة بين المراكز الأمامية وبداية الممر الكريستالي طولها مائة وأربعين ، أما امتداد الممر نفسه فيختلف من شخص إلى آخر ، وهنا أمر شديد الغموض يصعب الخوض فيه .

المدينة يقطعها الماشى على قدميه إذا بدأ ولم يتوقف ولم يغمض له جفن فى أربعة أعوام قمرية، عرضها مثل طولها، تحيطها تلال صخرية يصعب النفاذ منها، شمة منفذ واحد فقط مؤد لا يرجع منه احد ، الخروج من أبواب اخرى يحاط الواصل بها علماً بعد بدء اقامته. شمة رؤية أخرى راسخة تقول إنها ليست مدينة واحدة ، لكنها عدة مدن متصلة بطرق وثيرة، لا يشعر معها المسافر أنه انتقل من موضع الى آخر . المسافات فى مجملها تحتاج إلى أربعين سنة قمرية لقطعها مع المشى المتواصل ، واختلف آخرون فقالوا بانعزال المناطق عن بعضها وصعوبة الفيافى المؤدية، وغرابة بعضها حيث تلوح للساعين أحياناً ثلاث شمس. الفراغ هناك رهيف الشفافية ، المشى كأنه سباحة فى الضوء، لا يحتاج الإنسان الى النطق لذلك يجرى التخاطب بالنظر .

هل يوجد أدلاء ؟

يقطع المشرقيون بعدم وجودهم ، ويقولون إن المعارف تغد مباشرة إلى الأفئدة فيعرف كل ساع طريقه بغير دليل ، إن الأصل فى الهجرة الى المدينة الاكتفاء وإشباع الحاجات بغير تذلل أو قهر أيا كان مصدره، والجهل بالقصد يعنى الحاجة لأنه يستلزم السؤال ، كيف يستقيم ذلك فى المدينة ؟

غير أن الرؤى الشائعة تؤكد وجود حراس وأدلاء ، يبدون جبابرة، غير أنهم لطاف خفاف، يثيرون الأمل ويبثون الطمأنينة ، هذا أهم ما يحتاج اليه الوافد ، الغريب . إنهم يتقدمونه إلى خيمة رسم على جوانبها بروج السماء كلها . وطبقات الارض التحتية . يتوسطها نموذج فريد، بالغ الدقة للمدينة كلها، بحيث يمكن بالنظر تحديد الموضع الذى سيقوم به . ما من أحد لديه فكرة مسبقة، لكن الطرق تمضى بهم الى حيث المأوى .

الليلة الاولى ذات أهمية ، ومهما بلغ الإعجاب بالمقر الجديد وما يحوى من فراش وثير وألوان تتفق مع هوى الواصل الساعى، فإن البداية أيا كانت النعمة

المنتظرة باعثة على القبض نتيجة المقارنة واقتقاد ما كان والبعد عن المآلوفات .
مهما بلغ الانبهار فإن المآل يعكسه ، من هنا جرى تلقين الذاهبين بعبارات مطمئنة ،
جالبة للأمن والرضا بالحال الجديدة ، يجرى الهمس بها عند آخر حدود النزل .
إنها كلمات قليلة مضمرة ، لكنها واقية ، المشرقيون يرفضون الإصغاء اليها يعبرون
ولا ينتظرون ، يقولون إن أمتع الليالي تلك التي يخشاها الجميع ، الأولى ، غير
صحيح أن الواصل يقضيها بمفرده ، إذا كان ذكراً يفاجأ بأنثى تلبى كل ما يحتاج
إليه ، كأنها خرجت من مخيلته أو صيغت كما يهوى ، الأمر عينه بالنسبة للأنثى .
ما من قادم جديد يمضى أول ليلة بمفرده يمكنه تجديد ما يراه بمجرد النظر ، لذلك
يقول غلاة المشاركة إن المدينة ذات صور وهيئات متغيرة باستمرار ، ليس صحيحاً
أن مساحتها محددة ، وأن قطعها يمكن أن يتم بالخطى أو طبقاً لما يعهده الخلق
من قياسات شتى ، ليس صحيحاً أن مساحتها محددة إنما توجد أينما اتجه
البصر وتمثّلت المخيلة ، هنا لا بد من توضيح ، إذ لا يعنى قولهم هذا أى تماس مع
اجتهادات طويل الصمت ، إذ قال بإمكانية استحضار المدينة على قدر المجاهدة ،
بدون حاجة الى عبور قنطرة أو الامتثال لشروط الإقامة بالنزل ، فى أقوال الغلاة ما
يؤكد إمكانية استحضار المدينة بمجرد ورود الخاطرة وتردد الشهيق أو الزفير .
يعنى ذلك أن المدن بعدد انفاس البشر ، فيمكن للإنسان أن يرى بالمخيلة ما يريد
من نواح أو بنايات أو حدائق أو بيوت ، بل إنه يأتى إلى منزل من طابقيين تحيطه
أشجار وأحواض زهور ، مطل على بحيرة رقراقة ، أثناء تقلبه أو إغماضه يتخيل
وضعاً مختلفاً ، منظراً مغايراً . تلالاً متعاقبة بدلا من المياه الهادئة ، يتحقق له
ذلك ، إذا كان مطلقاً على بحر وخطرت له الصحراء فإن بصره يسرح فوق
امتداداتها على الغور ، يتبدل كل شيء كما يهوى ، ويشاء .

كذلك النساء ، يردن على الرجال طبقاً للصورة الماثلة فى الأذهان . من هنا
لا يجد انسان ما يمكن أن ينفره من الآخر ، ذكراً أو أنثى ، كل لما يهوى ، أما تلك

القواعد السارية على أهل النزل فلا موضع لها هنا ، كذلك تلك الأوضاع الغيبية التى يتحدث عنها الوافدين والمستقرة فى أوطانهم السابقة، هناك يجرى قمع الرغبات وتثثير الشهوات وهذا مضاد للبنية الحيوية ، ومعاكس لندرة الحياة، وقصر مدتها المتاحة للنوع البشرى.

هنا يطرح بعض المشاركة تساؤلا: ماذا يدفع إنسان ما إلى مفارقة المصدر والمنشأ؟ ماذا يحض على المغادرة والسعى فى البقاء أو قطع مسافات الى مناطق مجهولة ؟

الاجابة ميسورة ، سريعة، أنها تتلخص فى السعى الى الأفضل هنا يختلف القوم، أحيانا يصغى نفر من المقيمين الى تفاصيل يدلى بها القادمون لتوهم يجنون فيها آمالاً مرجوة وأسباباً محفزة مع أنها عين الأسباب التى حضت الآخرين على المفارقة .

الأمر نسبي ، الأمر نسبي .

هنا تجزم الرؤى السائدة وتجمع على نسبية الأمور كلها عدا المدينة، باستثناء ما يتعلق بها ، ليزعم الغلاة ، ليشطح المشاركة ، ليضل من يرغب ، لكن الحقائق الأزلية لا تتبدل ، أهمها ، فى مطلعها ، هل كل العضلات هناك. على الضفة الأخرى فرص أفضل متاحة لكل ساع لن تتيح تعويض ما فات أو إصلاح ما تلف، بل البدء من جديد فى ظروف مغايرة تماماً، ربما تختلف الرؤى ، أو التفاصيل لكن ثمة اتفاق بل إجماع على الفرص المنتظرة ، لهذا يأمل الجميع ويبدلون الجهد ويصبرون للعبور الى الضفة الأخرى، بالطبع لا يصل إلى النزل كل من يشرع أو يقطع معظم الطريق، بعضهم يضل وينوى ، أيا كان الحال فإن الفرصة المتاحة لكل إنسان مغرية بالمحاولة إذا التزم وسعى، غير أن هذا يؤدي الى الامتثال بدرجات متفاوتة وما أقصر عمر الانسان ، سواء سعى هناك أو على الدروب

المؤدية أو أمضى عمره منتظراً في النُّزُل ينقل رمال الشرق إلى الغرب أو يعد
الأحجار أو يجول نجوم المجرة اللماعة .

الدورات محدودة . سواء كانت شمسية أو قمرية . أو نجمية ، فرصة وجود
الإنسان محدودة ، كذا سائر المخلوقات من حيوان ونبات ، بعضها لا يبقى إلا
مقدار ساعة أو اثنتين المسافة جد موجزة مدغمة فلماذا اهدارها ؟.

يقول المغاربة وهم الاقرب الى القنطرة إن المحبطات اكثر، تفسد الطاقات
وتحيد بالوجهات عن غاياتها ، كثيرون بلا حصر تتم وفادتهم الى الكون المألوف
ويغيبون الى أبد أبيد فكأنهم لم يصلوا ولم يقيموا لصعوبة إدراكهم الأولويات من
قوت ضروري وحب لازم ورقدة هائلة ، لذلك كان السعى لإدراك المدينة .

ثمة أمل كامن في الصدور ، يتفاوت من شاب إلى كهل ، إن المسموح لهم
بالعبور وبدء الإقامة هناك يعدون أفضل حظاً إذا كانوا من الشباب ، الفرصة .
أمامهم أفضل لترتيب احوالهم وشئونهم باستثناء المفاجآت وبغفات المجهول ، إذ لا
يمكن لامرئ مهما أوتى من قدرة وطاقاة سواء كان من النزلاء أو القائمين على
تدبير الاوضاع أن يتنبأ بموضع قدمه عند الخطوة التالية، أو توالى دقات القلب أو
تردد الانفاس ، يقول الغلاة إن مثل ذلك غير معهود هناك ، إذ يعرف الوالدين عدد
النبضات ومرات الشهيق والزفير عند مجيء مولودهما ، كل أمر يدون فإذا شاء
أن يعرف أحيط علماً مع بلوغ مداركه الحد الذي يسمح ، وإذا فضل البقاء جاهلاً
حجبوا عنه ، ويحدث ذلك كثيراً . الطريف أن سؤالاً في مراكز الفحص يوجه إلى
العابرين مضمونه، هل يرغب الساعى في الاطلاع على المدة المتبقية على رواج
المشيئة ونفاذ الطاقة. معظمهم يفضلون الجهل عن العلم، ربما يرجع ذلك الى
المباغلة أيضاً، إذ يعود معظمهم الى الاستفسار بغية الإلمام، ويجدون الجواب،
أو المبادئ التي تحكم المدينة اتاحة الفرصة باستمرار ، خاصة الجواب بقدر تهيو
المستفسر لتمثل الحقائق .

تجمع الرؤى العامة، الموسومة بالاعتدال ، أن المدينة تتكون من أحياء ، مناطق لكل منها اكتفاء، متصلة بطرق ثابتة ومتحركة ويمكن للسباعى أن يقيم حيثما يرغب، لا يمكن القول إن هذا البيت ملك لذاك الشخص، لا يتبع المكان الانسان إلا مقدار إقامته فإذا رحل عنه لا يحتاج الى نقل متاع أو تغيير لوازم ، حيثما يحل يجد ما يرغب ولذلك تبدو الأبواب كلها مؤدية الى اللاشئ . أما الفراغات فيتم العبور اليها بدون اجتياز حواجز أو طبقات .

الصلة مرهونة . موقوتة بما هو قائم . عند الانتقال من موضع الى آخر لا يحتاج أحد الى غرارة أو مخلاة أو حقيبة ، إلى سائر تلك الأمور المعروفة فى النزل، لا معنى لهذا كله فى المدينة ، كل ما يحتاج إليه الانسان ميسور، الطعام وفير ، لا فائدة من تخزينه لأنه متاح أينما توجه البصر، فى كل الاشكال التى يتمناها المرء أيا كان منشؤه . هذا يعنى أن الاصناف موازية لما يوجد فى النزل ، لكن المؤكد أن ثمة أطباقاً خاصة مذاقها مرتبط بالهواء هناك، بالفراغات بالضوء بالنباتات التى لا يعرف مثلها والطيور الصداحة، لكن كل انسان يصحب معه ما اعتاد عليه ، وما ارتبط به فى طفولته عامة وصباه خاصة ، للمدينة خصائصها فاللحوم تنبت كالفاكهة والخضراوات، لا يذبح أى كائن ليقتات به آخر لا يسفك دم أبداً ، كل شئ ينبت ، ثمار لها طعم الغزلان ، وأشجار تطرح ما يشبه السمك ، كما يشاء المرء يجد ، وكما تهوى النفس تلقى ، صنابير اللبن والشاي والقهوة والقرفة والنعناع والحلبة والأعشاب اللطفة والليمون القابض والليمون الحامض والزهور المجففة تصب بلا انقطاع فى قنوات صغيرة يفرشها حصى يكتنز الوانه الخاصة فلا يراها إلا المتمعن ، المجتهد ، أما أنواع النبيذ فجميعها معتقة مطهرة، تفوق القدرة على الحصر، يختلف مذاقها من محلة الى أخرى ومن ساعة الى ساعة .

عند الوصول ينهم الجميع، ينكبون ويهرعون ويعيبون عباً ، بينما يتطلع
المعتقون، القدامى اليهم بهنوء باسمين، حتى إذا عاينوا الوفرة هدأت أحوالهم .
وسرت الظمائية اليهم ، لا يشغل الإنسان هناك نفسه بأمر طعامه أو ما يتعلق
بحواسه أو حاجاته ، تلك بديهيات مفروغ منها، تماماً كالهواء فى النزل وشفافية
الضوء فى النهارات الصحوه، لا يقع كل امرئ إلا على ما يفيد ويلبى، لكن للغلاة
تفسير آخر ، إذ يقولون بانتفاء الاشياء المعاينة إنما يكتفى بحضورها . هناك
التدبير مغاير ، شرحه صعب ، لا يعرف أحد تفسير له ، مثلاً، إذا اشتهى أحدهم
لحماً مشوياً لقى مذاقه ونعم برائحته . واكتفى منه بدون قضم أو مضغ أو بلع .

يكتفى استدعاء المسلوق أو المشموم أو المقلّى بالمخيلة ، كذلك البيوت، فإذا
اقتصرت الرغبة على حجرة واحدة ظهرت، وإذا خطر للقطن شرفة مظلة على
بحر، امتدت وتلاطم الموج فى الحال وإذا شاء سقفا بدون عمد لقيه ونام تحته
آمناً، إذا رغب فى درج من رخام أو قضة أو من ضوء ناعم، هامس، انتصب
وامتد على الفور ، يلقي كل واصل ما يتمناه طبقاً لقوة مخيلته وقدرتها وما من حد
، يجول فى بيته فيتسع بقدر ما يريد ، ويرى ما يرغب .

يقول الغلاة المشرقيون إنها مدن متداخلة ، متوازية . يمتد بعضها فى بعض
وليست مدينة واحدة تتكون من مناطق متصلة او متوازية، وما من ملامح أو معالم،
إنما هى صور شتى بعدد الانفاس والخطرات والرؤى والالتفاتات والهمسات .

الوجود هناك مغاير لما اعتاده الخلق وجبلوا عليه ، هناك يتجدد التحقق كل
لحظة ، مع كل خطوة، مع التوق ، مع الشوق، مع السعى، المهم . لا ينقضى وقت
مخلوق إلا وعنده رضا ، وجواه مهدد . طبعاً مع مواصلة السعى وإبداء الهمة .

هناك يدرك الجميع حماقات الإقامة فى النزل والتضييق على البعض، ومنعهم
من اتيان هذا الفعل أو ذاك وتكديس البعض للمأكول والمعدن النفيس والمصنوع
المجهز مع انتفاء الحاجة اليه وتجريد الكافة من أدق أغراضهم عند القنطرة .

على الضفة الأخرى غاية ومنتهى وروح ربحان ، حسن استقبال وسرعة توافق مع تدبير سبل التروى والمعاش حتى تحين لحظة الاستدعاء والعبور الى المنظومة المرجوة والإطار الضام .

غير أن النزلاء المقيمين بجوار المربع لا يقولون بنهاية المطاف عند الضفة الأخرى، ليست المدينة إلا جسراً مؤدياً الى مدن أخرى منها المعلق فى الفراغات العلا، يبدو مماثلاً للهودج الذى شيده ملك قديم لحبيبه ليكسب رضاها ولم يفلح . مدن أخرى فى الأكوان الموازية ، لا يكون العبور من هنا الى هناك أو من هناك الى هناك إلا من خلال أحد الأبواب الوهمية الصحيحة المستدل عليها ، إذا عرف الإنسان بابه فيمكنه الولوج والانتقال من كون الى كون ، المدينة مجرد علامة على طريق مؤدية ، نقطة على درب طويل مفض.

يقول هؤلاء لو أن المدينة نهاية مطاف لتبدلت أحوال المقيمين فيها والساعين اليها ، لكن الأمر مراحل ، إن فى الحضور المتحقق المعايين أو عند الافق غير المدرك ، إنما الانفاس خطوات على مدرج ينتهى بالغاية الكبرى.

ما هى الغاية العظمى ؟ ماذا تعنى الغاية الكبرى ؟

ما من جواب، إنما يكتفون بإشارة مبهمه .

معظم النزلاء لديهم رؤى مدونة متداولة يصف بعضها الزهور التى تنبت من الهمسات ، والعطور المنبعثة من النظرات ، ودرجة الضوء الواحدة. الثابتة كريستالية الاشعاع والطفلة ، لازوردية اللون، ثمة نصائح يلقنها الآباء للأبناء ويوصى بها الإخوة بعضهم بعضاً لالتزامها عند عبور تلك اللحظات الواقعة ما بين الشهادة والغيب، ما بين النوم والإفاقة ، الاغفاءة واليقظة المشروطة ، يشير البعض الى عبارات مدونة ، منقوشة على الأبواب الوهمية يكفى المرء أن يستعيد رسومها ليس مهماً إدراك معناها . لو فُض مغاليقها يمكنه عندئذ الاجتياز، إلى المدينة ؟

لا جواب .

إلى المدن المتداخلة ؟

ما من إيضاح .

غير أن فريقاً من المغاربة يزعمون أنه فى لحظة معينة تحل مرة كل دورة قمرية وتستغرق دقائق معدودات ، يمكن للصابر ، المنتظر الدقيق ، المتطلع الى الضفة الأخرى أن يرى معلماً أو اثنين من هناك . يؤكد بعضهم أنه شاهد وألم بمساحات الخضرة الكثيفة ، ثمة بنايات مفردة ، تقوم فى الخلاءات المفضية ، لكل منها باب لا يؤدى إلى شىء . أبواب يؤدى كل منها الى بعضها ، هنا يتفق المشارقة مع الفرق الأخرى فى كمون جوهر الأمر كله عبر تلك الأبواب أينما وجدت ، فى المصادر البعيدة ، فى النزل هناك لقد بشر بها مشاهد المعنى ، نشرها هنا وعبر الأفاق وفارق بدون تفسير مطمئن أو إيضاح دال .

يزعم البعض أن القوائم محفوظة فى مبنى الرياح ، رآه عدد منهم خلال تلك اللحظات النادرة يضم منطلقات الهبوب كافة ، شرقية وغربية ، شمالية وجنوبية . صبا وديبور ، خماسين أو موسمية ، رياح شمسية أو قمرية . من تلك العمارة تبدأ النسومات والأعاصير .

البنى كما تخيله الفرعون المتسائل ، لكن ما أتيج لعصره من إمكانيات لم يساعده فى بلوغه وتشبيده ، لكم ردد مشاهد المعنى هذا الاستفسار المضنى . إلى أين تمضى الرياح ؟ ما نقطة البداية وأين النهاية ؟ متى تستنفد طاقتها على الاندفاع وتركن ، هذه الطاقة أصلية أم مضافة ؟

ما من إجابات قاطعة قط .

مبنى آخر يبدو واضحاً ، يعكس سطحه تلالؤات معدنية . أو هكذا تلوح من بعدها القصى ، يقول المغاربة إنه سكن الحروف ، داخله تسعى سائر الأبجديات ، لها حيواتها ومعاشاتها وتحولاتها وما تحتوى عليه من معان . تتزاوج وتتناكح

فيما بينها وتتوالد بنظم وترتيب ، تأوى إليه الألفاظ مفككة ، مبعثرة وتخرج حاوية للمعاني .

على ذات الاتجاه صوب الغرب ، الحقيقة أن المدينة لا تحوى إلا اتجاهها واحداً ، إنه الغرب ، يحوى سائر الجهات أصلية وفرعية ، فأينما ولى الانسان وجهه هناك ليس ثمة وجهة أخرى ، غرب دائم تبدو هذه البناية التي توصف بأنها مجمع الأصوات ، إنها معلقة ، وصعب الاستدلال على أساساتها الممتدة أو عروقتها الحافظة ، إليها يمضى كل صوت ، وكل صدى ، حديث أو همسة أو نداء أو خطبة أو نغم سبار أو غواث مستنجد ، لذلك يقول النزلاء المغاربة إن كل انسان بوسعه الإصغاء إلى كل صوت عزيز ، مفتقد ، بل يمكن استعادة بوح الاجداد القدامى ، كل ما صدر ، لفظ أو شهقات أو همسات .

أما عمارة الألوان فتتشى بوجودها ولا تصرح ، إنها غير مجسمة لا يمكن القول إنها تقوم هنا أو هناك . لأن تضام الجهات فى جهة واحدة يلغى المواضع كلها ويذريها فى الوقت عينه . ربما يبدو ذلك صعباً فى البداية لكن بطول المداومة يمكن الاستيعاب .

لكل لون من الألوان الأساسية طابق مفرد . داخله تتنوع الدرجات الى ما لا يمكن حصره ، الأحمر ، الأزرق ، الأصفر ، أما الأبيض والأسود فكلهما مجمع ومفترق . من هذا التكوين تتبع ألوان الطيف كافة ، وظلال الحالات من ضيق وفرح ويسط وغضب وألوان دالة على كل البرابى المخفية ، المموهة ، القائم عليها حروف خاصة ، من يعرفها يقوت الى دوربها ومتاهاتها ويدرك كنوزها .

ثمة بنايات أخرى يمكن مع التدقيق إدراكها ، كل منها حضور مفرد ، عمارة الريح التي تساعل عنها الفرعون العتيق وتوارث الأحفاد محاولة الوصول اليها ، ليست هى فقط ، إنما عمارة للحنين وأخرى للشجن وثالثة للفرح ورابعة لما يصعب استيعابه .

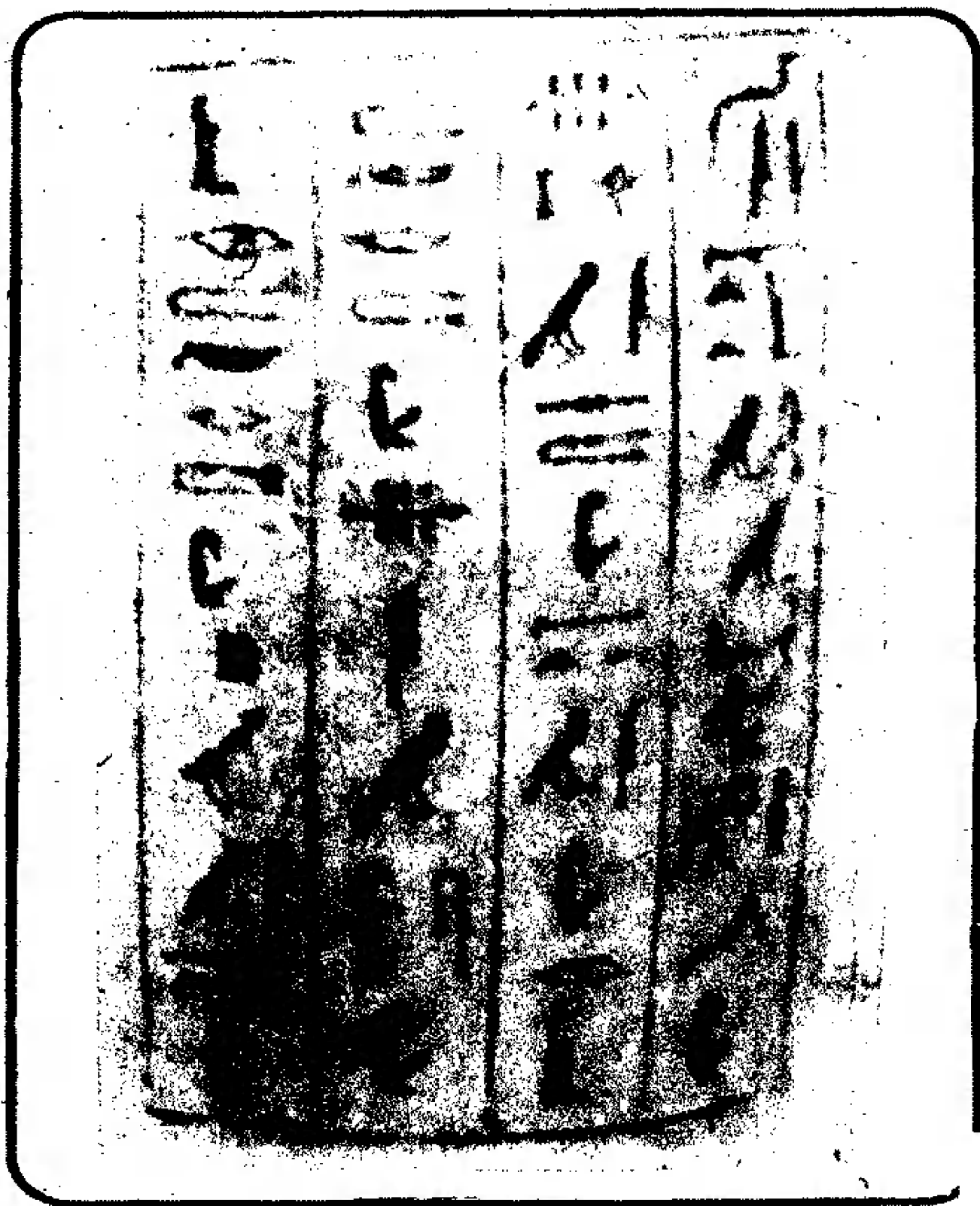
ثمة بناء يظهر في عدة مواضع متزامنة ، لا ينسب إليه شئ، ولا يمكن تعيين وظيفة محددة له ، يذكر بعض القادمين من هناك بقصر البارون، والبرج المائل، والأهرام القائمة على حدود الصحارى، والقباب المعلقة، والجسور المستسلمة، الواصلة، والدرجات الصاعدة النازلة، والواجهات الدالة، المموهة ، والأبواب غير المؤدية . المقيمون قرب المربع الفارغ يقولون إن ما يريده المغاربة أو المشارقة مجرد خيالات و رؤى المقصود منها إخفاء الحقائق ، والتغلب على ما يسببه الانتظار من ملل واستفسارات لا أجوبة لها ، كل ما يتردد إنما وسائل شتى لترطيب التوق، لا يعرف أحد من يبيت هذا كله؟ ما مصدره ؟

من النُزُل أم من هناك ؟

ما بين هذا وذاك تتردد إشاعات عن قوائم ستعلن قريباً تسمح بعبور نزلاء أكثر ولكن واحدا بعد الآخر كالمتابع من قديم . أو ضبط عدد ممن حاولوا التسلل بعيدا عن القنطرة ، مثل هؤلاء لا يمكن الاستدلال عليهم، أحيانا يظهر أحدهم ، رجل أو أنثى ، يزعم زعقات، يلوح بإشارات ، يندفع تجاه أحد الأبواب المصمتة المترقبة الحاضة ، الصادة ، الجلية، الخفية .

مصطلح

كتابة



رغم ما يبدو الأمر عليه الآن من يسر وبساطة، فلن تقدر مخيلة إنسانية على استعادة أو تصور ما تتطلبه ذلك، إذا نظرنا إلى الزمن فلا يمكن قياسه إلا بالقرون التي نعرفها الآن، والقياسات التي نجهلها لبعد العهد بها وانقضاء أوانها، أما إذا اخذنا الجهد بالاعتبار فبالتأكيد استغرق أجيالا وآماداً لا يمكن حصرها، ولا يوجد تدوين يلصق من قريب أو بعيد، إذ .. كيف نجد المعاناة في البحث عن التدوين ذاته في تدوين ؟ .

الأمر دقيق، يشبه إلى حد كبير المراحل السابقة وتلك اللاحقة على التوصل إلى الباب الوهمي، كيف جرى البحث؟ كيف تم التوصل إلى الجوهر؟ كيف جرى إخراجه إلى حيز المحسوس؟ باب محفور في حجر. على مواد مختلفة، تم في الفراغات المفتوحة.. ثم حيث لا يمكن الرؤية أو التعيين. نعلم بذلك ونشير إلى كتاب البوابات الذي يعرف الموتى الراحلين والقاطعين المسافات اللانهائية في العالم الآخر بالساعات هناك، حيث يفصل كل منها عن الأخرى بوابة، لا يمكن اجتيازها إلا بما يتعلق بها، وهذا لا يتم إلا بعد شرح وتلقين فصلناه في مخطط نأمل في إخراجه يوماً إلى حيز الوجود بنفس العنوان.. «كتاب البوابات»، لعل وعسى.

الأمر هنا أدق وأعمق، أدق لصعوبته، وأصعب لاختفائه وانتهاء مثوله، إذ تحول من قضية أو مشكلة إلى حقيقة يومية يتعامل بها ومعها كل عاقل.. مدرك.. قادر على تفسير الحرف من الحرف..

بدأ قبل الأسرار بعصور شتى.. بعد تبلور الإشارات الموضحة وإتقان الإنسان على تبادلها مع نوعه.. واختزال الموجودات في كل منها بدءاً من النيل الساري إلى الصخور المشرفة والزهور النابتة، والنجوم المائلة، الهادية، حتى الرياح الهبوب واتجاهاتها وإمكانية الغرس والحصاد.

لا يمكن تحديد شخص معين، فلم يكن للبشر أسماء بعد، لكن الأمر بدأ عندما تطلع بعض من القوم الى الاماكن الحاوية، بدءا من الافق المائل عن مركز السماء البادية، حتى الكهوف الطبيعية أو المنحوتة في الجبال الشرقية النائية عن أخطار الفيضان ويمكن رؤية بقاياها في المرتفعات المشرفة على النهر بدءا من إقليم اسيوط وحتى اسوان جنوبا، انها هناك ماتزال ..

بدأ الأمر هكذا ..

إذا كانت السماء مأوى النجوم الثابتة، والفضاءات مأوى الرياح العابرة، القادمة من نقطة إلى نقطة . وكذلك للانسان والحيوان وللأسماك ايضا في قاع النهر.

كل ظاهر، وكل خفى له مأواه، والمثوى أو المقر يعنى عمارة، حتى وإن تعلق الأمر بجسم الانسان، فالرحم الانثوى قبو بيضاوى الشكل ملخص للكون الظاهر، إذ اثبت القوم في الحقب التالية هيلة الكون البيضاوية وليست الدائرية.

كل مأوى عمارة، ولكل عنصر بناء، إذن .. لماذا لا يتجه الجهد لإيجاد العمارة التي يمكن ان تسكن فيها المعانى والاشارات ؟
هكذا جرى التوصل الى الحروف.

كل حرف بناء .. يمكن إدراك ما فيه إذا استقل بنفسه عن غيره، ولكنه ادراك محدود .. إنما تكتمل اعتباريته إذ يتصل بغيره، من جنسه، تماما كأجزاء البناء .. ماقيمة الشرفة إذا وجدت بمفردها . منفصلة عما يلزم لها وتلزم له ؟ وكيف يقوم السقف إذا لم تحمله الجدران ؟

هكذا الحرف، إذ يتصل هذا بذاك يسفر المعنى عن بعض مكوناته . الإشارات متضمنة، والمستويات الخفية ماثلة لكنها في حاجة الى إتقان ودرية وسهولة عند التداول .

فى البدء كان المطلوب إقامة عمارة للمعانى التى جرى تحديدها فى مبان محدودة، تؤطر ولا تحصر.. من هنا جاء التدوين.

بدأ الأمر بالحفر، وأيضاً.. بخط الأصابع لأشكال مهدت لظهور الحروف، على الرمال، على التراب، لكن الرياح المنفلتة، الماضية من أين إلى أين لا تبقى على شيء . وكل المحاولات المتوارثة عجزت عن أسرها أو توجيه مساراتها، وما يقال عن أسرة تعيش فى اخميم كثير، نذر أفرادها انفسهم لتحقيق الاجابة على الفرعون المتسائل، ولهم من يرجعون اليه، وعندهم تدوين، ويثقون من تحقق مايسعون اليه منذ آلاف السنين، وما توصلوا اليه مودع فى الحروف، أما مايقال عن وجود عمارة للرياح فى الاخرى بعد النزل فلا يثق به احد لسبب بسيط، وهو عدم عودة اى عابر ليدلى بشهادة عيان عما رأى وخبر..

اتقاء للتبديد والتذرية، ودرءاً لعوامل المحو إلى حين جرى الحفر على العظام المجففة، والجلود المقددة، وكان النقش على الجدران، خاصة على، أو حول، البوابات الوهمية، لا يكتمل حضورها إلا بكتابة، وذلك لعبور المعانى خلالها من وقت إلى وقت ومن دهر الى دهر، لذلك جرى التفكير خلال حقبة لا يمكن تعيينها بدقة فى تشييد عمارة متنقلة يمكن تسكين المعانى بها، وحملها من مكان الى آخر، هذا أمر قديم، عتيق، كان من نتاجه صياغة الشكل الأمثل للعمارة التى يمكن للألفاظ أن تسكنها كذلك المعانى، والانتقال بها من موضع الى موضع، وحملها بطرق شتى.. على جناح الطير لو اقتضى الأمر، من هنا جاء الحرف، وأوراق البردى، الشكل المؤسس.. الاكثر شيوعاً للتشييد الضام، المؤدى الى الرقائق المعدنية.

الحروف توالج، تماماً مثل العمارة، الحرف فى الحرف ليلد المعنى، الحرف ظاهر والمعنى غائب والدلالة حافظة، لذلك كان الظهور ملازماً للغياب وإلا استحالت الكينونة.

حاولنا فى هذا التدوين بالتلميح والتصريح أحيانا . فيما أوردناه من ذكر لحكايات متناثرة، أو شرح لبعض مصطلحات المعمار. ويث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت، لعلها تصل.

أما إذا تغير الحال، وتوالت الأنفاس بمساعدة القلب الواهن فسنشرح ما لم نعرض له فى هذا التدوين ومنه الكثير.

ذلك أن الوضع كله مرهون بالخفقة إثر الخفقة، وما امتن الصلة بين النبضة والحرف، كلاهما مؤد، وكلاهما دفعة، أى حركة، أى حياة، أى عمارة، فكل بناء حياة حتى وإن هُجر، أو بدا ساكنا للناظر المتعجل.

بعض المصطلحات تجاوزنا عنه إذ يقتضى غوصا أعمق، وتفصيلات أشمل، وبعض الحكايات حجبناها خشية عوامل وحرصا على عناصر، هكذا يقتزن فى محاولتنا تلك الحضور والغياب، لعلنا نتم ما بدأناه يوما نتمنى بلوغه ورؤية طلوع شمس، ونذكر عنده الأسباب.

جمال الغيطانى

تاسع مايو ١٩٩٥

عاشر يوليو ١٩٩٧

القاهرة

الفهرس

سفر البنيان

ص

٧ مصطلح	١ - باب
١٣ حكاية	٢ - خبيثة
٢١ حكاية	٣ - رياح
٢٥ مصطلح	٤ - حامل ومحمول
٣١ حكاية	٥ - عاقبة
٤١ حكاية	٦ - بستان الخضر
٥٩ مصطلح	٧ - فناء
٦٧ حكاية	٨ - غمامة
٧٣ حكاية	٩ - هودج
٩١ مصطلح	١٠ - أساس
٩٥ حكاية	١١ - جهات
١١٣ حكاية	١٢ - معرات
١٢٣ مصطلح	١٣ - قبو
١٣٣ حكاية	١٤ - قصر
١٤٥ مصطلح	١٥ - درج
١٥١ حكاية	١٦ - برها
١٦٩ مصطلح	١٧ - موقد
١٧٥	١٨ - نزل
٢٤١ مصطلح	١٩ - كتابة

كتاب الهلال يقدم :

٦ أكتوبر

في الاستراتيجية العالمية

بقلم

د. جمال حمدان

يصدر في : ٥ أكتوبر ١٩٩٧

روایات الهلال تقدم:

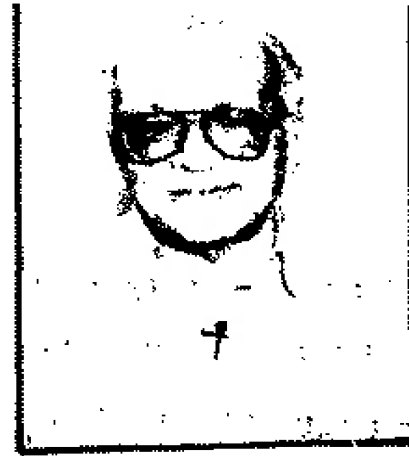
وصل القطار فی موعده

بقلم
ماينريش بول

ترجمة
احمد عمر شاهين

تصدر في: ١٥ أكتوبر ١٩٩٧

هذه الرواية



جمال الغيطاني

أعمال جمال الغيطاني الكبيرة تشكل تماماً، كما تشكل أعمال الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتس في اللغة الأسبانية، عمارة جميلة المعمار، وشكلها يمكن الإحساس به عبر مسافة طويلة. كل رواية تشكل جزءاً من هذه العمارة، وتسد فراغاً، وتشكل قباباً فريدة تثير الإعجاب، وتشكل جزءاً أو وحدة من وحدة أكبر، أشمل وأكثر رقياً، تتناسى وتتداخل من خلال مكافئتها في شكل أكثر اكتمالاً، ولا تبدو للعيان لأول وهلة. وما هو مرئى منها يغنى بقوته عن ما هو خفى. القاعدة الاجتماعية ونقده المستمر يعتمدان على روحانية التجربة الشخصية، التي تبدو فيها الظاهرة غلظاً وكاشفاً للباطن.

... ويستكمل الروائي والمستشرق الأسباني خوان جويتسولو حديثه: إن الغيطاني يتحرر من الخطاب المكرر لأشكال الكتابة المعتادة التي تدغدغ حواس القارئ المعتاد على الكتابات سريعة الانتشار، مما يجعله يواجه دائماً صعوبات جمة، ليفتح طريقه باتجاه التعرف على العمل.

قليلون جداً الكتاب الذين يتجاوزون الأشكال العادية والمعروفة مسبقاً، واندفاع في الإبداع خاص، وبالنسبة لكاتب من قامة جمال الغيطاني يعد من طليعة المجددين.

رقم الإيداع: ١٩٩٧/٩٠٧١

I. S. B. N

977-07-054-

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قراءة الابداع
الراقي عريباً وعالمياً ، فشارك معنا عائلتنا
الابداعية: «عائلة روايات الهلال».

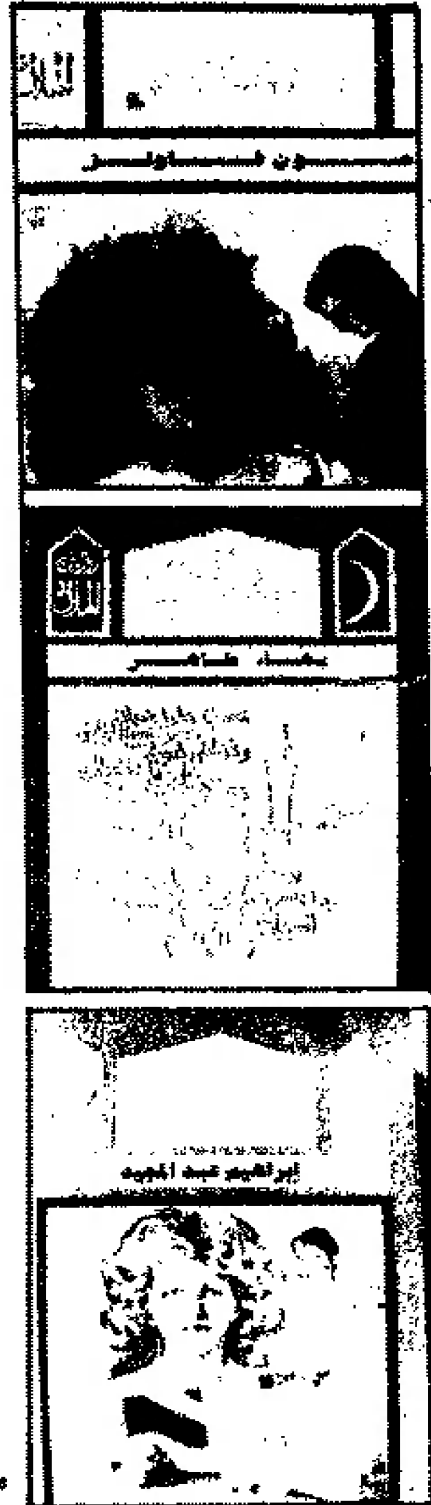
● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ،
أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد
المضمون إلى عنوانك .

● ٤٧ عاما من الابداع المثالي .

● تم اختيار أعمالنا لتكون أفضل
الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.

● تحصل رواياتنا على اهم الجوائز
الأدبية . وتتم ترجمتها إلى لغات العالم .

● مرة أخرى .. إذا كنت من قراء
الابداع الجيد .. فانضم إلى «عائلة روايات
الهلال» .



نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب . وقصة . ودراسة . وسير . وبحوث . وفكر . ونقد . وشعر . وبلاغة . وعلوم .
 وراث . ولغات . وقضايا . وتاريخ . واجتماع . وعلم نفس . ورحلات . وسياسة ... إلخ .

أول كتاب في القائمة

- الإنسان الباهت .
- الحياة مرة أخرى .
- التنويم المغناطيسي .
- نوم العازب .
- من شرفات التاريخ ج ١ .
- أم كلثوم .
- المرأة العاملة .
- قادة الفكر الفلسفي .
- الملامح الخفية (جبران ومي) .
- عبد الحليم حافظ .
- انقراض رجل .
- الشخصية المتطورة .
- محمد عبد الوهاب .
- الشخصية السوية .
- الشخصية القيادية .
- الإنسان المتعدد .
- الشخصية المبدعة .
- فكر وفن وذكريات .
- ساعة الحظ .
- سيكولوجية الهدوء النفسي .
- الاعلام والمخدرات .
- من شرفات التاريخ ج ٢ .
- الشخصية المنتجة .
- الأسرة مشكلات وحلول .
- ظلال الحقيقة .
- شعرة معاوية - ومالك بنى أمية .
- مذكرات خادم .
- طيبة أحمد الإبراهيم
- نوال مصطفى
- يوسف ميخائيل أسعد
- محمد حسن الألفي
- د . محمد رجب البيومي
- مجدى سلامة
- سوزان عبد الحميد أغا
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- يوسف ميخائيل أسعد
- يوسف ميخائيل أسعد
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- محمد حسن الألفي
- يوسف ميخائيل أسعد
- د . نوال محمد عمر
- د . محمد رجب البيومي
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- عرفات القصبي قرون
- طيبة أحمد الإبراهيم

Bibliotheca Alexandrina



0449664



طباعة ونشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع - للطباعة ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ١٧ المنطقة الصناعية
 بالعاصمة - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صيفي بالفجالة - ٤ شارع الإبراهيمي منشية البكري - زوكلي
 المسبودة - القيسية ١٥ (٢٨٦٥٥٤) - ٩٠٨٤٥٥ - ١٩٨٦١٩٧ ج . م . ع / فستاتس - ٢٤٩٦٥٥٥٥

To: www.al-mostafa.com